

تشارلز هنري بيرسون

كوخ في البراري

ترجمة: السيد النماس

رواية



كوخ في البراري

تشارلز هنري بيرسون

ترجمة

السيد النماس

إلى

شقيقتي

التي صعدت روحها أخيراً من دنيا البراري

إلى أعالي الفردوس

أهدي هذا الكتاب

تشارلز هنري بيرسون Charles Henry Pearson

مقدمة المترجم

الكاتب والكتاب

د. تشارلز هنري بيرسون (١٨٢٤ - ١٩٠٦) قس أمريكي ومؤلف قصص وكتب دينية. كتب عن الغرب الأمريكي سلسلة من الكتب تقع كلها في خانة الأدب الدعائي والقصص الموجهة تحت عنوان جامع هو *سلاسل الغرب* من بينها مشاهد من الغرب وكتابات أخرى. نشر كتابه كوخ في البراري أول مرة في العام ١٨٧٠ وأعيد طبعه مرارًا حتى وقت قريب ضمن سلاسل كتابات وقصص الغرب المغامراتية الإثارية التي تلاقي عند جمهور القراء الأمريكيين العاديين رواجًا كبيرًا نظرًا لأنها كرسست منذ بداياتها الأولى في القرن السابع عشر أيديولوجية تفوق العرق الأوروبي الأبيض على سكان أمريكا الأصليين من الهنود الذين يوصمون في هذه الرواية! شأنها في ذلك شأن نظائرها من روايات الغرب الأمريكي، بأنهم همج، متوحشون، قتلة، سالخور رؤوس، سفاكو دماء، غدارون لؤماء، أغبياء، وثنيون، لا حضارة لهم ولا تاريخ. كما رسخت هذه الرواية نظرية أرض بلا شعب لشعب بلا أرض (فلسطين آخرها وجنوب إفريقيا مشروع لم يكتمل والجزائر مشروع مجهض). تقدم هذه الرواية خطابًا مضملاً خادعًا لتاريخ الاستيطان واحتلال الأوروبيين القارة الأمريكية تحت رايات بعضها ديني مسيحي مؤول وبعضها أخلاقي منتحل مفتعل وبعضها ثقافي ملفق مزور، الهدف من ورائه كله تأسيس وجود طارئ بوصفه وجودًا أصيلاً وإنكار وجود أصيل بوصفه وجودًا دخيلاً وإعلاء القوة فوق الحق أيًا كان. وقد وجدت السينما الأمريكية في مثل هذه القصص والروايات مادة لا تتضب لما لا يحصى من أفلام الوسترن التي استمر عرضها لعقود وعقود داخل وخارج أمريكا، وأنفقت عليها مؤسسة هوليوود بسخاء وحشدة لها من عناصر الجذب والإثارة ما كفل لها الانتشار وحقق الغاية من وراء نشرها، وهو تثبيت الصور الذهنية النمطية عن الاستيطان بوصفه تنمية وتطويرًا وعن المستعمرين بوصفهم أبطالًا مغاوير يرفعون راية التقدم ويحولون البيئة وما عليها من حال العدم المزري والتجوال الهائم في البراري والصيد البدائي والحياة بلا هدف إلى حال الزراعة والصناعة والتجارة والثقافة والترفيه، من اللامجتمع إلى المجتمع ومن البدائية إلى الحضارة. لقد حولت السينما أمثال الممثل جون وين إلى رمز لأمريكا والأمريكيين لحقبة طويلة من الزمن. لقد جابت تلك الأفلام العالم كله مباشرة بالكابوي الأمريكي صاحب القبعة المميزة والبلو جينز الشهير بحصانه وبنديقيته ومسدساته وحتى جاذبيته الجنسية الطاغية، الكابوي الذي لا يقهر. لقد حققت تلك الأفلام لأمريكا الكابوي ما لم تحققه الأساطيل والجيش والحروب فاستعمرت الأذهان قبل الأوطان وأدمنتها الشعوب الفقيرة المستعمرة أوروبيًا قبل أن تنتشب فيها أمريكا استعمارها الثقافي والتجاري والسياسي حتى باتت الهجرة إلى بلد العم سام حلم كل الحالمين. بعدها ومعها خرج الكابوي إلى كل ركن من أركان الأرض ليمارس حقه! في عولمة قيمه وطرق عيشه وفلسفة وجوده. يقول د. صديق جوهر في ختام كتابه القيم الموسوم *عريضة الكابوي في بلاد الهنود الحمر - روايات الغرب الأمريكي بين الوهم والحقيقة* دار صفصافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص ١٧٢:

*لقد أدت الأساطير الدينية والخرافات الاستعمارية من أمثال خرافة ندرة عدد السكان الأصليين

المنافية للتاريخ، وخرافة الأرض العذراء (أرض بلا شعب) وخرافة الوعد المحتوم (الأمريكيون هم مبعوثو الرب لنشر أنوار الحضارة في بلاد الهنود الحمر الغارقة في ظلام دامس) إلى تشويه صورة السكان الأصليين وتبرير إبادتهم، علاوة على الخزعبلات العنصرية والاستعمارية التي نجمت عن التجربة الاستيطانية الاستكشافية في أمريكا والتي أثرت بقوة بالغة في رسم الصورة الشائنة للهنود ومجتمعاتهم في الأدب الأمريكي بدءًا من روايات القرن السابع عشر وانتهاء بأدب أربعينيات القرن العشرين، إن التاريخ الأوروبي الذي ينضح بالعنصرية ويعج بحملات الإبادة العرقية واستخدام أقصى درجات العنف في أمريكا والذي استغرق ما يربو على ثلاثة قرون من الزمن وانتهى باستئصال شعب الهنود الحمر وتهميش من بقي منهم على قيد الحياة داخل جدران المعازل والمحميات المبعثرة في شتى أنحاء الولايات المتحدة، هذا التاريخ التعيس كله لا يمكن محوه من الذاكرة الثقافية للعالم والإنسانية بمجرد قراءة حفنة من روايات المغامرات التي حاولت جردها تجميل وجه تاريخ الاستعمار الأمريكي القبيح*.

كوخ في البراري

النبى الكشاف

تمهيد

*إن بقيت هنا لمدة طويلة ستصير واحدًا من أبناء الغرب الخالص إلى حد أنك ستتنسى تمامًا كل عشقك لنيوإنجلترا. تلك هي تجربتي". هكذا قال أحد مستكشفي الغرب مفتول العضلات صاحب العقل الراجح والقلب الرحيم السمح، ذي القبضة الحديدية التي لم ترتفع يوماً رداً على ضربة جبان رعديد لكنها عندما كانت تشهر دفاعاً عن الحق تصبح أقرب ما تكون إلى *عظمة فك* شمشون الفتاكة بالفلسطينيين. كان صاحبنا قد هاجر من ولاية مين قبل عشرين سنة وكان واحدًا من أوائل المستوطنين الذين قابلتهم في البراري بالقرب من مسرح قصتي. فهل صحت نبوءته؟ أه كم كانت دقات أجراس سالم (مدينة السلام) تتسنف الأذان بأحلى وأوقع النغمات في أول أحد بعد عودتي إلى ولاية أولد باي. إلا أن الرائد الكشاف قدم نفسه بصورة خاطئة ذلك أنه جلس بجوار مدفنته الكبيرة المبنية من الطين والحجارة عيناه تتوهجان لمعاناً وكلماته تنساب من فمه رخيمة عذبة بينما يتكلم عن ذكريات أيامه الأولى الباكورة! أي قبضة تجلت قوتها عند مصافحته أحد أبناء نيو إنغلند الخالص!

ثم جاء الدور على أولئك الشرقيين الأمريكيين الذين قالوا: *لسوف تسأم الغرب بأسرع مما تتصور". وكانوا أيضًا على خطأ. عندما فارق ذلك المريض بادي الشحوب ذو الأوصال المرتعشة نيو إنغلند صادفته حياة جديدة في مينيسوتا. قال لي أصدقائي العارفون بخبايا الطب: *ضع بندقيّة على كتفك اقتل وكل الطرائد الضارية في البراري". توقعت أن أصبح نهبًا للثقلبات المزجة والخسران المبين إن أخذت بتلك المشورة لكن على العكس تمامًا فقد صلبت تلك النصائح عودي الواهن وأضفت مسحة من السحر والفتنة على فنون الكشف ومباهجه ذلك أنني تمكنت سريعًا أن أسهم ولو بنصيب صغير في واقع سبقني كثيرون من الرجال في تشكيله وإخراجه لحيز الوجود وبالمزج بين عالم الغاية ودنيا البراري أصبحت أقرب ما أكون من الطبيعة في جمالها وفي نضرتها وفي عظمتها، وقبض لي أن أزور أكواخ الهنود ببيضاوية الشكل وأكواخ المستوطنين البيض حيث مررت بالكثير والكثير من المغامرات.

وتعد كتابتي لهذه الرواية سجلًا لأحداث ومشاهد تجربتي في ارتياد واكتشاف الغرب الأمريكي، أحداث عشتها وخضت غمارها وانغمست فيها بكل ما أوتيت من اهتمام وعزم، فكم من مرة ارتحلت وسط الحشائش وقد موجتها أنفاس الرياح المنبعثة بقوة ووسط الأزاهير الفواحة بعبير مسكر لا يقاوم وكم من مرة تناهى إلى مسمعي فيها عواء الذئاب وتغريد الطيور وكم من مرة طبعت النسائم الطلقة التي تبرئ المرضى قبلاتها فوق جبيني وأنا قائم أتعبد مجددًا في محراب أحد الأكواخ الخشبية. أجل، الشرق والغرب كلاهما عزيز عليّ ولا غنى لأحدهما عن الآخر. بينهما ما بينهما من أواصر القربى ووشائج النسب. منذ تمت هذه الرواية فصولاً كانت إحدى أعز القربيات ممن يتحلين بأكرم الخصال وأعلى درجات الإيثار والتي طالما ملأت دنيانا نورًا وجمالاً، قد

حزمت أمرها على الاستقرار نهائياً في أحضان البراري التي عرفتُها يوماً أثناء كتابتي لهذه الرواية، بساطة وبراءة. كان الأطباء قد طلبوا منها أن تقصد الغرب إنقاذاً لحياتها وقد وصلت إلى هذه البقعة من الأرض في الوقت المناسب لتموت فيها ما جعل قلبي يتعلق بهذه الأرض وترابها لداعٍ آخر موجع أليم.

أن يربط الحب يوماً بين الشرق والغرب الأمريكيين كما يتم الآن من خلال الروابط الوطنية والتجارية وأن تفضي هذه الرواية على بساطتها وتواضع أمرها إلى تحقيق مراد كهذا يسعد النفس ويتلج الصدر، لهي أقصى أمني المؤلف.

الفصل الأول

العائلة الرائدة.. القمص الجريء

ها قد تم حفر آخر هضبة وأنا جد سعيد بذلك. هكذا حدث توم جونز نفسه وهو متكئ على مجرفته مستغرقاً في التفكير.

كان توم فتى قوياً في السادسة عشرة من العمر يعلو رأسه شعر بني أشعث ويعلو شعره قبعة من القش غير مؤطرة الحواف، وكان يرتدي بنطلوناً تراه فتحسبه مقلوباً ظهرًا لبطن فما أكثر ما نالته يد الترفيع والرتق حتى انتهى به الزمن والعمل والقماش الذي كان إلى تخليق عدد من البناطيل. أما الجزمة عالية الساق، فلم تكن تغطي إلا أقل القليل من أطرافه السفلى، ويبدو أنها آلت إليه بالميراث وكانت ملكاً لأحد معدمي الجيل السابق. لكن أي بأس بالنسبة له أن تكون ثيابه رثة بالية عديدة الألوان متافرة المنظر؟ أو أن تسمح ثقب حذائه للتربة الخصبة العميقة أن تتسلل إلى جوانب قدمه وأطراف أصابعها؟ أليس هو *محتل الأرض وسيدها المطلق اليد* وهو ابن أحد المستوطنين الذين لا تحدهم قيود ولا تقف في وجههم حواجز أو سدود مثلهم في ذلك مثل الهنود الذين يجوبون براري موطنهم في الغرب الأمريكي؟ إنه لم يسمع قط بأن ثمة *موضة أخيرة* ولا يعير انتباهاً لقصة ثيابه بالرغم من أنه، والحق يقال، يرغب أحياناً في أن تكون تلك الثياب أنيقة ومريحة بعض الشيء. منزله كائن في صميم البراري كما أشرت سلفاً. إلا أن حيازة الأسرة هي حيازة متواضعة إذ تقل مساحتها عن الفدان مسيجة على نحو بدائي فج وتضم بين حناياها *المزرعة والأبنية الملحقة*، وهذه الأخيرة تتألف من منزل خشبي صغير وزريبة خنازير صغيرة والكوخ، كان هذا عند بدء قصتنا، وكان واضحاً من هيئتها أنها تعود في إنشائها إلى موسمين فائتين على أقل تقدير وهو الأمر الذي يشهد بجلاء على مدى فقر وسفه ساكنيها لأنهم أهدروا وقتاً ثميناً كان بوسعهم فيه زراعة قطعة أرض كبيرة من تلك الأرض القابلة للحرث والفلاحة إن حولوها إلى مشروع تجاري وصناعي. لكنهم كانوا ينتمون لفئة من الناس لا تتمتع بتلك المزايا العقلية والعملية، كانوا قومًا لا يقر لهم قرار جوابين في الأفق كشافى طرق ورواد سبل حدها حيثما تغرب الشمس. لكن لعلنا غفلنا عن الفتى المتكئ منذ وقت ليس بالقصير على مجرفته يذهب به التفكير كل مذهب. دعونا الآن نلقي عليه نظرة فاحصة. يقول المثل القديم: *ليس كل ما يلمع ذهباً ولا كل ما يبرق فضة*. من فضلك أيها القارئ تعال نتغاضى عن ثيابه ونتفحص وجهه. عيان زرقاوان صافيتان، حاجبان ذوا تقوس لطيف، ملامح متناسفة، فم وذقن يمان عن عزم ودمائة موروثة وجبين عريض منبسط. أه لعلنا هنا أمام كنز مخبوء تحت أكداس ركام، من يدري؟

نظر ابن المستوطن حوله باستياء ظاهر وأخذ يناجي نفسه: *لكم أتمنى أن يصبح في مقدوري يوماً أن أرى أماكن أخرى من العالم وأن أصنع شيئاً بنفسى ولنفسى. ها نحن هنا نرتحل من مكان لآخر لا هم لنا سوى زراعة بعض البطاطس والقليل من الذرة مقيمين بكوخ مزر حيث لا مدارس، ولا جيران إلا في النادر الأقل. ما أفزع أن نقضي كل أيام حياتنا على هذا النحو. أعتقد أننا خلقنا لغاية أفضل من ذلك وكما أخبرنا الكاهن في عظة الأحد ينبغي علينا أن نجرب ونحاول أن نصبح بشراً

يشار إليهم بالبنان لا قطعاً من الخشب الطافية على سطح النهر تجرفها مياهه حيث شاعت وأنى مضت. وإني على يقين من أن هذا لم ولن يخطر ببال أمي ولا أبي لا في الماضي ولا في الحاضر*. وهنا توقف الصبي عن مناجاة نفسه وأخذ يتأمل كما لو كان يحاول حل أحد الأحاجي والألغاز حاكاً رأسه بطريقة كانت لتكون تأملاً فلسفياً بالمعنى الحقيقي إن قيض له أن يكون أستاذاً بالجامعة. ثم كان أن مسح بكم قميصه المتهرئ العرق عن جبينه مخلفاً خطاً أسود في الجبهة العريضة البسيطة المنبسطة التي وصفناها منذ قليل. ثم كان أن مضى نحو الكوخ وعاد حاملاً سلة متهالكة وشرع، بادئاً بالطرف الواطئ من الحقل، في جمع حبات البطاطس التي تركت لتجف تحت حرارة الشمس. ما أوفر محصول البطاطس الذي غلته قطعة الأرض الصغيرة تلك فيما كان النبات يذوي ويموت وكانت البراري قد اكتست حلة، ويا لها من حلة تقصر البلاغة عن إيفائها حقها، جراء تساقط الأمطار والثلوج عبر قرون متطاولة فأمدتها بعناصر الخصب والنماء ولم يكن من العسير الحصول على محصول من غلة البذور المنتشرة هنا وهناك عوضاً عن تهيئة الأرض وإعدادها حرثاً وفلاحة وجمعاً. كان صف التلال المحيطة مغطى بكميات وفيرة من البطاطس أخرجها الفتى توم إلى السطح بمجرفته ويا لبراعته في عمل ذلك. وبالرغم من ذلك لم يكن توم راضياً كل الرضا عن حجم ونوع وكم البطاطس التي استخرجها من الأرض حتى الآن. صحيح أنه استخرجها كلها من الأرض وصحيح أن أعواد الذرة قد قطعت وتكدست وأن القرع العسلي جاهز للتخزين وأن شغل موسم الخريف يمكن الانتهاء منه مع غروب شمس اليوم إلا أن ثمة أمراً كان يكدره ويعكر صفوه فقد بدأ مؤخراً يساءل نفسه عن المستقبل متطلعاً إلى معرفة ما يخبئه قادم الأيام له. وفي نهاية الأمر تأكد له على نحو أو آخر أن المستقبل هو ما نختاره ونصنعه بأيدينا لا أكثر ولا أقل. لكن قلبه كان يزرع تحت هموم ثقال خلفتها مسيرة حياته الشقية الخشنة في الماضي والحاضر.

منذ بضعة أيام وذاكرة توم لا تبرح تلح عليه بالصور والمواقف. وما أشبه الليلة بالبارحة، عندما كان بعد طفلاً صغيراً وجمع والده قدراً كافياً من المال فابتاع حصاناً وعربة حمل عليها العائلة وشرع في الارتحال بحثاً عن موطن جديد بعيداً عن أمواج الحضارة المتلاطمة التي كانت تقترب منهم! ما أكثر ما ترحلت العائلة من بعدها وما أشد انطباق المثل السائر الذي يقول: *إن الحجر المتدحرج لا تثبت فيه الطحالب!*. على حالهم المؤلم في حلهم وترحلهم الدائبين، إلا أن حجر السيد جونز أنبت الطحالب. كان الفتى توم يعلم ذلك حق العلم. وكان حجر السيد جونز ينبت الطحالب إن نظرنا إلى الموضوع من جانب واحد ما كان أيسر التقدم في اتجاهه ألا وهو ركوب العربة والترحل بها من مكان لآخر في أراضي العم سام غير المستوطنة، ذلك الترحل عبر الأرياف والتنقل دون توقف عبر الغابات والبراري. تلك الطريقة في وضع عائلة جديدة في أول حياتها على خريطة العالم، طريقة تتطوي على الكثير الغالب من البدائية والهمجية والقليل النادر من أمارات التحضر والمدنية ولو قيض لك أن ترى السيد جونز جالساً في عربة النقل ومقود الحصان في يده والغليون في فمه أو وهو يحمل بندقيته على كتفه متتبعاً أثر أحد الغزلان لقلت من فورك إن هكذا حياة هي بالتأكيد الحياة الأليق بالسيد جونز. لقد خلق كل منا لغاية بعينها وما خلق السيد جونز إلا ليكون جواً مرتحلاً ومستكشفاً من مستكشفي الغرب، امرأ يكسب قوته بأدنى جهد ممكن وبأيسر سبيل متاح من صيد الحيوانات إلى صيد السمك. حصان وعربة وكوخ خشبي مقام بطريقة

ارتجالية يأوون إليه، أدوات تقي بالغرض في فلاحه الأرض على أبسط نحو ممكن وأثاث بدائي يلبي احتياجات المعيشة الأساسية وملابس تم ابتياعها منذ *عهد بعيد* وتقوم الزوجة المجدة الكادحة بتجديدها من وقت لآخر، هكذا كان آل جونز يعيشون. بيت خشبي صغير يقام على ضفة نهر بغية صيد الأسماك، قريب من الغابة بقصد صيد الحيوانات و*شريط من البراري خالٍ من الأعشاب الضارة ك*حديقة فاكهة* تلك كانت قاعدة وجودهم حيث يبقون عامًا أو عامين وبعدها كن على يقين من أن صاحبنا المهاجر سوف يتململ ويبيدي رغبته في *بيع أرضه*.

إن المكان يزدحم يومًا بعد آخر حتى يضيق على سعته بالوافدين إلى الأرياف، أنا لا أستطيع قطع ثلاثة أميال دون أن أتعثر بكوخ أو منزل كما تكاثرت إلى غير حد الطرق التي تمر منها العربات الخفيفة. أنا لم أعد أحتمل كل ذلك. عليّ أن أجازف وأن أمضي بعيدًا لأجد متنفسًا جديدًا.

وقد يكتشف دوبرن تقاهة قيمة أرضه وما أدخله عليها من تعديلات وأن ليس أمامه من شيء يمكن التمسك به إلا عربته القديمة المتصدعة. ولا يكون منه إلا أن يضع، مثل كل مرة، على منتهى الأواني الفخارية المكسورة وإبريق الشاي الراشح الأسود وموقد الطبخ القديم بماسورته التي تتمدد فوق ظهر العربة والزوجة والأولاد محشورين بداخلها ثم يمضي صاحبنا المستكشف الذي لا يقر له قرار في سبيله لا يلوي على شيء قاصدًا العزلة والوحدة من جديد.

لا شك أن توم كان يسترجع هذه النبذة من تاريخ العائلة بشيء من التفصيل النابض بالحياة لا بدّ خلا منه وصفنا السابق له. وكانت النتيجة شعوره بالنقزز وعزمًا أكيدًا بأن يتخلص من هكذا حياة وسعيًا جادًا نحو ما هو أرفع وأسمى.

لكن ما الذي أدى بابن المستوطن إلى هذه النتيجة؟ منذ مدة لم تعد أحوال العائلة على ما يرام وهذا ما كان يقلقه ويزعجه. وعلى الرغم من أن توم قد نشأ وتربى في هذه البيئة مزعزعة الأركان الخالية من التخطيط وبعد النظر فإن فطرته السليمة كثيرًا ما دعتة للتمرد إليها إلا أن هذا التمرد لم يكن بذات قوته وعنفوانه وحسمه كما هي الحال الآن. إلا أن أمانيه وأشواقه وحلمه بما هو أفضل كلها جالت في خاطره وما كان منها إلا أن جعلته نكدًا متقلب المزاج سريع الغضب. ومما لا شك فيه أن تلك التطلعات تعود في جانب صغير منها لأمه وهي امرأة ذات ذكاء يتعدى حدود بيتها التي تعيش فيها لكنها وهي الزوجة التي ارتبطت مع زوجها برباط الحب الخالص الراسخ تقبلت كل حرمان وفاقدة قدرهما القدر عليها دون تملل أو اعتراض. لقد حرّمها الزواج من كل نعم ورفاهية العيش الرغد لكنها رضيت بما قدر عليها في *السراء والضراء* وإن كان نصيبها من الأخير هو الأوفى بمقاييس الواقع العملي. لم يكن ذلك جراء قسوة وإسراف السيد جونز ولكن بسبب من إدمانه الترحل والتنقل وقد أحال الحرمان والعوز حياتها إلى شقاء وبؤس.

كان توم، من حيث الطباع والمزاج، شبيهًا بأمه. لكن أمرًا مستجدًا طرأ في الآونة الأخيرة إذ وفد إلى المنطقة كاهن ورع بحثًا عن الخراف الضالة التي انحرفت عن جادة الإيمان وكانت له، يوم السبت السابق على بدء حكايتنا، عظة إنجيلية بليغة قيمة وجهها إلى شعب المستوطنين. كان الكوخ الخشبي الذي أقيمت الصلوات داخله على مبعدة ميل ونصف الميل من مقر سكن توم الذي أدى الصلاة صحبة والده وجمع من الجيران. لكن رسالة الإنجيل في عظة الكاهن تركت في النفوس

أثراً متباينة. فمن الناس من أقبل عليها ولان قلبه وزاد إيمانه واعتبرها خريطة فكر وأجندة عمل، ومنهم من أعرض عنها فتحجر قلبه وقسا فؤاده فكأنه لم يسمع ولم يع. لكن وقع العظة على توم أثار في نفسه دواعي التمرد على قدره في الحياة وضرورة البحث عن غاية أسمى للعيش. لم يكن توم ينتظر مقدم العالم الآتي المنتظر الذي تبشر به العظة في دنيانا هذه. فالعالم الحاضر بظروفه وشروطه الحالية هو ما يهّمه ويعنيه وما كان منه إلا أن أخذ يقلب الأمر على الوجوه كافة حتى انتهى أخيراً إلى قرار.

حدث توم نفسه قائلاً: *هذا الواعظ جاءنا من ديار عامرة بالمدارس زاخرة بالفرص الثمينة. فلم لا أسعى وراء هكذا فرص فأصبح شخصاً ذا اعتبار وقيمة يحقق إنجازاً مشهوداً؟ لم لا أذهب إلى المدينة وألتحق بإحدى المدارس في هذا الشتاء؟* يا لها من فكرة ملكت عليه نفسه بمجرد التفكير فيها! لكن كيف يتسنى له تحقيق ذلك؟ ومن أين تأتي النقود التي تعينه خلال الدراسة؟

أجاب توم قائلاً لنفسه: *عليّ أن أعمل وأكسبها يمكنني أداء أي عمل شريف وأقله يمكنني تغطية نفقات المبيت والأكل”.

كان توم جاهلاً بآتم معنى الكلمة. فهو بالكاد يقرأ وبالكاد يكتب لكنه كان يجيد الحساب، وكان علمه القليل هذا يدفعه دفعاً لتحصيل المزيد من المعرفة والعلم. ما أكثر ما كانت تثير نفسه وتحرك عقله الخطب العامة والحقائق الخالدة الواردة بالإنجيل التي وردت على لسان الواعظ البليغ حتى انتهى به الأمر إلى قرار مغادرة الموطن لطلب العلم والالتحاق بالدراسة المنتظمة وكان هذا التطلع البازغ بقوة هو ما جعله أصبر ما يكون على ضرورة الانتهاء من واجبه اليوم في أعمال الخريف حتى يتمكن من البدء في مشروعه الجديد.

قال لنفسه وهو يملأ السلة: *سوف أنتهي من جمع المحصول بحلول الظلام ولن تحتجزني في البيت أي مهام أخرى*. وفيما كان يهيم برفع السلة فوق كاهله دفعته صيحة مدوية إلى التنبه إلى سينة الأحلام التي أخذته:

توم، توم! تعال بسرعة! لقد اصطدت غزالاً صغيراً وسوف يفلت من قبضتي! كان هذا نداء شارلي ابن الاتني عشر ربيعاً من داخل الأجمات الكثيفة التي تحد قطعة الأرض المزروعة بالبباطس قرب الغابات. هرع توم لينجد أخاه ولم يصدق عينيه عندما رأى الصبي الغض يقبض على الغزال من ذيله محاولاً إحكام القبضة على ذلك المخلوق سريع الحركة غافلاً عن قدرة الغزال الفائقة في استخدام حوافره. وما إن قفز الأخ الأكبر فوق السياج حتى كان الغزال قد طرح شارلي على ظهره بضربة حافر قوية ثم قفز داخل الحظيرة المسيجة. في هذه اللحظة هرع، من داخل الكوخ، أشقاء توم وشقيقاته مهرولين هادرين، رؤوسهم يعلوها شعر ملبد كالكتان حاسرة بلا قبعات ولا أغطية رأس، وانخرطوا في مطاردة الغزال الطريد. ولم تمر لحظة إلا وكان توم قد نسي أمر خواطره الكثيرة وقراراته الحاسمة متلهفاً كأبي من إخوته لضمان عدم إفلات الغنيمة الرشيقة سريعة الحركة. كان موقفاً مثيراً للغاية أيضاً، الخوف والسرعة من قبل الحيوان الطريد في مواجهة التنظيم والجلبة وبراعة التخطيط البشري. كان المتعقبون من آل جونز يشكلون قوة لا بأس بها من حيث البنية الجسدية والطاقة الحركية وكانت الأم تقف عند مدخل باب الكوخ ترأقب المشهد وقد

حملت بين يديها رضيعًا حديث الولادة وكانت ذرية الزوجين جونز سلسلة توالدية منتظمة الحلقات أشبه ما تكون بدرج صاعد تقضي فيه كل درجة إلى ما يعلوها مباشرة فهناك توم تتلوه إليزا ثم بوب تعقبه سارة ويليهم بيل وبب ابن الرابعة.

صاح توم قائلاً لشارلي: *أصلح السياج الذي قفز منه الغزال*. فسارع الأخير إلى سد الثغرة التي أحدثها الغزال عندما قفز من فوق السياج الخشبي وكانت الأغصان قد تكسرت في ذلك الموضع من السياج.

حاصر الفتيان الصغار الغزال من زاوية لأخرى ومن جهة لأخرى بينما كان الغزال ينسل من بين أصابعهم لكنهم لم يدعوه ينعم بالراحة أبدًا.

تعالت الصيحات والصرخات على اختلافها *أوقفه يا ليز! امسكه يا بوب! لا تقلتبه يا سارة! تتح عن الطريق بب! ها هو هناك! لم لم تمسكه يا شارلي؟ أماه ألا يمكنك وضع الرضيع جانبًا ومساعدتنا؟ إنه يهرب! ها هو هناك! إنه سيقفز من فوق السياج! كلا إنه لم يقفز!*. في خضم كل هذه الجلبة والصياح كان الأولاد يندفعون في كل اتجاه وقد اختلط حابلهم بنابلهم حتى انقطعت أنفاسهم. من حسن الحظ أن السياج كان كثيف السماكة مرتفع العرض وقد بني من أشجار مينة كدست بعضها فوق بعض بحيث لم يتمكن الغزال من إيجاد ثغرة ينفذ منها هاربًا خصوصًا وقد جعله المتعقبون في حالة جري متواصل. وبالرغم من احتجازه على هذا النحو فإنه ظل على مناوشته لهم وإرباكه لتحركاتهم يأبى الاستسلام وعندها قال توم لإخوته وأخواته:

لن نتمكن منه بهذه الطريقة لكن إن فعلتم كما أقول لكم أظن أننا قادرون على التمكن منه. كان الغزال واقفًا في زاوية بعيدة من الحقل كما لو كان ينتظر حركتهم التالية. صفّ توم إخوته وتقدمهم معطيًا الأمر بالتقدم نحو الغزال.

تقدموا بثبات قال توم فيما كانوا يقتربون من الغزال. أمكنهم الاقتراب من الحيوان بضعة أقدام بينما تقدم توم ببطء ذراعاه مفتوحتان وعيناه مثبتتان على الحيوان تحسبًا لأي محاولة ثانية للهرب وعندها وعلى حين بغتة، قام بب الصغير، الذي كان توم أرسله إلى داخل الكوخ، وعضًا عن ذلك النّفّ دون أن يلحظه أحد حول الحديقة وخلف الحيوان، وأنفذ عصا حادة الطرف في مؤخرة الغزال قائلاً:

لقد فعلتها وانتصرت.

قفز الغزال في حالة هياج شديد بعد هذه الحركة المباغتة لمهاجميه فانفرط عقدهم وتكومت أفراد القوة واحدها فوق الآخر يعلوهم توم بينما وقف الغزال في ذات اللحظة في الطرف الآخر من الحقل وكأنما تم الأمر كله في طرفة عين.

صرخت سارة من تحت كومة إخوتها المتكومين: *ابعدوا عن رأسي!*

صاحت إليزا: *أوه سوف تكسر ذراعي يا عزيزي!*

سأل بوب شارلي في غضب ظاهر وهو يتقل من فمه وسخًا: *ما هذا الذي أسقطته فوقي لقد فعلت

هذا عن عمد – وأنت تعلم ذلك!*

كلا لم أفعل!

بل فعلت!

انخرطت سارة في البكاء وأخذت تمسح عينيها وتفركها بردائها الملطخ بالأوساخ: *لقد ظننت أن توم قد أمسك بالغزال ولم يسقط فوقنا بكل ثقله هذا*.

وبينما كانت عصابة الأولاد في اضطراب وارتباك كان الغزال يحاول جاهداً تلمس مخرج من السياج فيما جفف الأولاد دموعهم ولاحقوه مجدداً وأخيراً ها هو المخلوق الجميل الرشيق مفزوع تثيره جلبتهم وقد أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم لا يستسلم إلا بعد أن يقوم بوثبة مذعورة انقابت على إثرها سلة البطاطس رأساً على عقب وتبعثرت ثمار البطاطس في كل اتجاه وهنا حمله توم مزهواً ودخل به إلى الكوخ تصاحبه العصابة بجلبتها وضوضائها.

وفيما هم يتبعون قائدهم إلى داخل البيت كانوا يصيحون بصوت واحد: *ماما لقد أمسكنا به - لقد أمسكنا به!*

تساءلت الأم: *وأين ستحتفظون به الليلة؟*

وعلى الفور أجابها بب قائلًا: *يمكنه النوم معي!* ما أثار المزيد من الجلبة والمرح الصاخب.

رد توم قائلًا وهو يهز رأسه نفيًا تجاه أخيه المثير للمتاعب: *هذا لن يكون لأنك ستضع عصا في مؤخرته وتجعله يهرب مجددًا*.

وبعد عديد من المداولات انتهوا إلى قرار تقييد الغزال إلى عمود السرير حتى يتم بناء حظيرة لإيوائه بالقرب من الكوخ. وسرعان ما أقيمت الحظيرة وأودع الغزال بها.

عندما رجع توم إلى عمله كان النهار على وشك الانتهاء. تفحص توم كل ما حوله واكتشف بأسف أن ما تبقى من وقت لن يسعفه في استكمال جمع المحصول والأنكى من ذلك أن مطاردة الغزال التي انغمس فيها بكل قوة وحماسة لم تدع له أي طاقة عمل إضافية. أي عمل ينتظره وقد تبعثرت ثمار البطاطس في كل اتجاه وداستها الأقدام فاختلطت بطين الأرض مجددًا! وأي جهد يتطلبه إعادة جمع وربط حزم عيدان الذرة التي انفرط عقدها خلال المطاردة. مجرد تتبع ثمار البطاطس المبعثرة استغرق الوقت حتى موعد العشاء وبعدها نادته أمه فدخل حزيناً أسفاً وبعد أن جلب الخشب لإيقاد نار الفطور وأطعم الخنازير تسلق السلم الخشبي المتداعي ليأوي إلى فراشه المصنوع من القش في عليّة الكوخ.

ما أقل الزاد الذي كان به آل جونز يقيمون أودهم، هذا ما كانت تقص عنه هيئتهم جميعاً. صحيح أنهم كانوا أصحاب أقوىاء لكنهم كانوا يفتقرون إلى النضارة والامتلاء اللذين يعودان إلى تناول طعام وفير متنوع في الطفولة والشباب. لم يكن ينقصهم الخضار فثمة الكثير من البطاطس والذرة والفاصوليا والقرع العسلي منذ أن حل الخريف بل ومن قبل حلوله لكن ما أقل ما كان يتوفر عندهم الخبز والحليب واللحم. بالنسبة للحم كان اعتمادهم الأكبر في الحصول عليه يتمثل في بندقية صيد

الأب لكنه كان ولو عا بالقيام بجولات وصولات على اتساع أراضي البراري يتخللها على أحيان متباعدة ضربة حظ يحصلون بعدها على وجبة مطهية شهية.

في تلك الأونة كان السيد جونز قد رحل منذ بضعة أيام وكانت زوجته الصبور تعاني ما تعاني جراء نقص الغذاء. لم يكن في جعبتها إلا طهي الخضروات المكررة نفسها بذات طرق الطهي المكررة ذاتها مع أقل ما يمكن من نكهة تضاف من حين إلى آخر علاوة على رضيع دائم الصراخ يتفل ريالته فوق صدرها، ناهيك عما ينتظرها من أعمال المنزل وعا هو متوقع من أطفال يرتعون في أنحاء البراري الواسعة ويعودون وقد استبد بهم الجوع وتلبسهم النهم فيما هي عاجزة لا حيلة لها تقدم لهم ما لا يغني ولا يسمن من جوع. كان نوم يعي كل ذلك بحكم طبيعته التي ورثها منها ومثلها كان يحس بنقص الغذاء وقلة مكوناته ورداءة نوعيته، ربما بدرجة أقل من أمه، لكنه كان مهمومًا جدًا لأن وجبة أمه كانت أقل ما تكون.

قال لنفسه فيما هو راقد يستعد للنوم: *عندما أخرج من هنا وأكسب قوتي لن أتوانى عن إرسال كل أطايب الدنيا لأمي!*

الفصل الثاني

ضربة مزدوجة – طبيب كشاف

استغرق نوم في النوم لكنه ضبط ذاكرته على إيقاظه قبل طلوع الفجر وكانت شمس الصباح تملأ أفق الشرق بينما هو سادر في أحلام يقظته. كانت العلية خالية من النوافذ عدا من لوح زجاجي مثبت فوق فجوة تحت حافة نائئة وما إن أخذت الفتى سنة من النوم إلا وأيقظه فجأة صوت مرتفع. تساءل بينه وبين نفسه مخافة أن تكون ثمة عاصفة برية قد هبت فتحول بينه وبين حلمه الغالي في الرحيل عن البيت: *أهذا رعد؟*.

اختلس النظر عبر اللوح الزجاجي فرأى ما لم يتوقعه، كانت السماء صافية. فماذا يعني ذلك؟ لم يكن يخالجه شك في أنه سمع قصف الرعد! عاود النظر وفجأة برق في ذهنه خاطر آخر اطمأنت له نفسه.

هتف بقوة قائلاً: *أجل إنه الدجاج! أوه! ما أكثره!*

وبقوله *الدجاج* كان نوم يقصد دجاج البراري إذ من المألوف في الغرب التحدث عنهن بهذه الطريقة. لقد هدتهن غريزتهن إلى موقع الذرة بصورة دقيقة، مثلهن في ذلك مثل سائر الطيور التي تنتشر مسافة أميال في المكان، فاجتزن الحشائش الطويلة قادمات من كل حذب وصوب في آن معاً عندما ظهرت الشمس وكن يلقن كسرب كثيف فوق الكوخ ليهبطن داخل الحقل. فتلك النوعية من الدجاجيات التي يطلق عليها اسم الطيهوج هي مثال يضرب في النظام والدقة إن تعلق الأمر بتناول الغذاء ويا ليت فتيان وفتيات الشرق يحذون حذوهن في ممارسة آداب المائدة. فهن يتجمعن أولاً كما لو كن على موعد حول حقل الحبوب وينتظرن في هدوء إشارة الإفطار التي هي شروق الشمس وبعدها يدخلن معاً إلى حرم الحقل ويعكفن على التغذية لمدة ساعة واحدة لا تزيد ولا تنقص وبعدها ينفض جمعهن ويطنن مبتعدات ثم يعدن وقت الغروب ليحظين بساعة تغذ أخرى. كانت تلك زيارتهن الأولى لمزرعة آل جونز وقد اجتذبتهم أعواد الذرة المتناثرة هنا وهناك.

تراقصت عينا نوم في محارها طرباً وجزلاً فيما هو يحملق في حشود الطيهوج وأسرع بارتداء ثيابه. كانت المئات منهن ينقرن ويلتقطن الحب صحبة الكثير من الديكة الرومية. وكان رفيف أجنحتهن القوي هو ما أيقظه علماً بأن كثيراً من قاطني الغرب الأكبر عمراً يندفعون بذات الصوت ويحسبون هزيم رعد فما إن تجتمع أسراب هذه الدجاجات البرية وتحلق طائرة حتى يحدثن هذه الضوضاء الصاخبة.

همس نوم لنفسه قائلاً: *كم ستسر أمي! أي عشاء ستعده اليوم!*. هبط السلم وتناول بندقية الصيد القديمة الخاصة بأبيه حيث كانت معلقة دون استخدام لعدة أشهر، ثم استخرج من إحدى العلب الصغيرة بعض البارود والطلقات وكبسولة القذح وحشا البندقية على عجل ثم أراحها فوق عتبة النافذة حتى يتمكن من التسديد بدقة وثبات ويطلق النار على الدجاجات. ثم تلا ذلك حادث جلل وأفاق نوم ليجد أمه تغسل جبهته وأخواته يبكين. كانت البندقية قد خرجت عن السيطرة ولما كانت

محشوة حشواً زائداً فقد فجرت رتاج القدر فأحرقته وجهه وصعقه رد فعل الارتداد.

ما إن استردت توم وعيه حتى بدأ يتألم ويئن. أخذ وجهه في التورم بسرعة وبدأ مرآه مخيفاً فقد فحمه البارود وكانت الآلام مبرحة. ما أكثر ما مر بالسيدة جونز في مقامها الموحش النائي ذاك من ابتلاءات ومحن حلت بأعز ما لديها وضربت أعلى ما تملك. كان أفضع هو اجسها أن يكون توم قد فقد بصره جراء ما حدث لأن حاجبيه ورموشه قد احترقت بالكامل بفعل الانفجار. لكنها تيقنت من أنه لا يزال بصيراً وقالت ودموعها تسح من عينيها:

أوه كم أنا سعيدة لأن عينيك نجتا!

على مبعده بضعة أميال يوجد طبيب – أو لنقل شخص يدعى طبيباً – عادة ما يلجأ إليه المستوطنون المتناثرون هنا وهناك عند أي طارئ صحي. كان هذا الطبيب طويلاً ونحياً بصورة لافتة ودائماً ما كان يرى وقد أدخل أطراف بنطلونه أعلى جزمته المدبوغة الأنيقة عالية الساق مرتدياً قميصاً أحمر من الصوف، حوافه المتهرئة المتسخة، التي تقوم مقام الياقة، تكاد تلامس الأذنين. كان الرجل يعيش وحده، إلا من قطة تصاحبه، في كوخ حقير تظل نافذته مفتوحة إذا ما أوى للفراش وبابه غير موحد وإن طلبه أحد للخدمة أثناء الليل فليس على الرسول إلا أن يدخل رأسه من النافذة وينادي عليه أو أن يجذب حبل سقطة الباب ويدخل الكوخ. كان الطبيب بليغاً منمقاً في حديثه ميالاً إلى الاستفاضة في الكلام لكن للأسف كان مرضاه يعلمون أن مهاراته الطبية ضعيفة ناقصة. لهذه المهمة وقع اختيار الأم على شارلي رسولاً إلى الطبيب وما كان أسرع الولد في أداء المهمة وقد هاله ما جرى لأخيه توم المسكين. كان شارلي صبيّاً واسع الخيال وعندما يجمع خياله فإنه يرى الهرة الصغيرة العابثة التي تطارد ذيلها *منتي قطة سوداء يتعاركن في الفناء* وفي مثل هذه الأحوال تعود شارلي ويا لها من عادة سيئة أن تتطاير من فمه الكلمات متلاحقة متدافعة لا تلوي على شيء. وعلى ذلك كان هو أنسب إخوته للقيام بالمهمة طالما أن السرعة مطلوبة لكنه عندما دخل كوخ الطبيب مندفعاً متعجلاً أخذ يصيح بأعلى صوته *انفج رأ! انفج رأ! صحا المعالج بالأعشاب من غفوته وأخذ يفرك جبينه ليتأكد من أنه لا يحلم ثم قال متلعثماً: *من الذي سيموت؟*

كرر الصبي الصغير جملته: *انفج رأ! انفج رأ!*

قال الطبيب وقد أفاق تماماً: *تمالك نفسك يا ولد وأوضح ببطء ما جرى* ثم أردف قائلاً وهو يقبض على كتفي الصبي: *تكلم ببطء حتى أتمكن من فهمك!*

أعاد شارلي عبارته مشدداً على كلمة: *انفج.. رأسه*.

هتف الطبيب: *هذا أمر فظيع حقاً ولا يدهشني يا ولد أن شخصاً مثلك غير معتاد على مشاهدة الحوادث الدامية يهلع كل هذا الهلع. لكن خبرني من هي الضحية المغدورة التي تعرضت لهكذا حادث مأساوي خطير – أم أنه قتل بدم بارد؟*

أجاب شارلي الذي بدوره لم يفهم ما قاله الطبيب لكنه خمن أنه يوافق على ما قاله: *أجل سيدي*.

سأله الطبيب بحدة: *أجل ماذا؟ أهو حادث أم اغتيال؟*

حدد إجابتك بسرعة الآن؟*

وفي التو صاح شارلي ظناً منه أن الطبيب يوبخه على الكلام ببطء: *أج سيدي*.

قال الطبيب وقد عيل صبره وهو يهز جسم الصبي: *حسن أيها الغبي البائس أنت تهذي بما لا تعي من فرط الرعب اهدأ وقل لي الآن من الذي قُتل؟*.

إنه توم أخونا!

زقق الطبيب قائلاً: *وكيف لي أن أعرف من هو توم أخوك هذا؟* ثم أشار إلى هرة رمادية اللون مخيفة المنظر تجلس فوق صندوق من خشب البلوط تتابع الصبي بعينين خضراوين متقدتين وقال: *لو ظنت هذه الهرة أنك سنجاب سارق لكان صباحها هنيئاً ولأكلتك حياً ولن يخسر العالم شيئاً مهماً في ما أظن!*

قاطعته شارلي بجبن ملتزماً بالجواب عن السؤال: *إنه أخي!*

قال الطبيب وهو يهز جسم الصبي زري الهيئة: *أخوك! حسن أيها الصياد المخضرم، ماذا تقول عن ذلك؟ صبي ذو وجه متسخ مهوش الشعر وذو هندان مزر، جهول لا يعلم من أمر الدنيا شيئاً يدعي قرابتك. ألا يعد ذلك شرفاً؟*.

أوضح شارلي الأمر وهو منخرط في البكاء: *إنما قصدت أن توم شقيقنا هو أخي*.

سأله الطبيب بلطف وقد رق قلبه لحزنه: *لكن أليس لأخيك توم أي أسماء أخرى؟*.

أجاب الصبي *لا سيدي*.

حسن ما اسمك؟.

شارلي.

شارلي ماذا؟.

شارلي جونز.

أوه، فهمت! أنت من آل جونز، لن يكون أمراً ذا بال لو أن رؤوسهم جميعاً طارت عن أجسامهم. لكن ماذا تريد مني؟.

أمي تطلب منك المجيء إلينا بسرعة لتخرج توم مما هو فيه.

ماذا؟ بعد أن انفجر دماغ أخيك؟ هذا عمل على أي حال. لا بد أنه شاب وسيم أليس كذلك؟ يتنقل هنا وهناك سليماً معافى دون رأس فوق كتفيه. لكن الأمر ليس كما تقول وكل ما فيه هو أن رأسه ما زال على حاله لم يسقط أو ينفجر وكل ما في الأمر أنه بقي منه أقل القليل لينبت لنا رأساً ثانياً.
وهكذا وبشيء من المرح الذي أصاب الطبيب الآن أفلح الرجل في استدراج الصبي ليقدم وصفاً مفهوماً للحادثة التي وقعت ثم امتطى حصانه مثبتاً جراباً ذا كيسين متقابلين على جانبي ظهر الحصان خلفه وفي يده سطل ماء معدني، ومضى نحو بيت مستوطن موسر وروى الحادثة بشيء

من المبالغة لا يقل عما فعله الصبي شارلي وأضاف وهو يعدل وضع ياقته بطريقة حازمة عنيفة:
لسوف أصلح ما فسد من أمر الفتى وسيعود بعدها شخصاً جديداً سليماً معافى. ثم كان أن طلب
من المستوطن بعض الخميرة ولفافة قطن ثم شخص متوجهاً إلى كوخ آل جونز وهناك قام بتغطية
وجه توم بالقطن المشبع بالخميرة ورجع من حيث أتى. وسواء كان العلاج متماشياً مع الوصفة
العلاجية الطبية الأصلية أو لا فقد خفت آلام توم بعد وقت قصير وغشيه نوم هادئ ومن ثم مضت
السيدة جونز في أشغال صباحها ببال هانئ مستريح. لم يكن الأطفال قد طعموا شيئاً حتى ذلك
الوقت ولما كانت تأوهات أخيم قد انتهت انتبهوا إلى أنهم يتضورون جوعاً.

قال بب وهو ينتحب وقد تشبث بثوب أمه وهي تسير: *ألم يحن موعد العشاء؟*.

أجاب بوب وهو يلكر أخاه لكزة قوية تعالي بعدها صراخه: *هذا ليس عشاء بل هو إفطار*.

سخر منه بوب وراح، وهو الذي عضه الجوع فأخرجه عن وداعته، يحرك قسمات وجهه بطرق
عابثة مخيفة في وجه أخيه: *ابك، أيها التافه الضعيف*.

حاولت السيدة جونز، المغتمة المهمومة، تهدئتهم لكن بلا طائل وها هي تحمل رضيعها وتهدده
وفي الوقت نفسه تعد وجبة الطعام، فيما كان الأولاد الكبار يتعاركون هم أيضاً جراء الجوع. لم
تكن السيدة جونز تحسن فن التربية على أي نحو كان، ولقرط ضعف قلبها وشدة حنانها تجاه
ذريتها لم تكن تمارس أي ضابط أو رابط على تصرفاتهم فقط كانت تسوسهم بالحنان واللفظ.
وحتى تعالج الموقف فقد وجهت الكبار منهم إلى العمل. فواحد ليذكي نيران الموقد وثان ليغسل
حبات البطاطس وثالث ليكنس الأرضية، وهذه المهمة الأخيرة كانت أبطأها جميعاً لأن عصا
الكنس تفلعت والأرضية الخشبية تشققت وتفارقت ألواحها وبليت أجزاء المقشة حتى قاربت على
عدم الصلاحية للاستخدام. طلبت الأم من شارلي أن يتأكد من عدم فرار الغزال الموثوق ما حفز
بب إلى الذهاب في نفس المهمة. لم تحقق هذه الحيلة نجاحاً يذكر مع شارلي الذي لم تتطل عليه
خدعة أمه فعاد سريعاً ليهتف: *أوف! أعتقد أن الغزال على ما يرام!*

لكن بب وجد أمامه فرصة لا تعوض فأخذ يشاكس الغزال. كان محبس الغزال ضيقاً ولم يتمكن بب
من الاقتراب من الغزال ونال منه التعب جراء صياحه فيه وصراخه عليه فكر راجعاً إلى الحقل
بحثاً عن عصا طويلة يعرفها واستخدمها بالأمس جواداً يمتطيه. وفيما هو منهمك في البحث عنها
بين أكداس الذرة رأى شيئاً يرفرف بجناحيه ثم سمع قوقأة غريبة لافتة للنظر. كانت تلك دجاجة
برية تكسرت أجنحتها بطلقة من بندقية توم. تحرك الطائر بصعوبة بالغة مبتعداً محاولاً الاختباء
خلف أعواد الذرة. لكن عيني بب الثاقبتين لم تغيبا عن الطائر وراح يتبعه ويقول: *فرخ، فرخ،
فرخ* ظانناً إياه دجاجة عادية. أخذ الطائر الماكر يراوغ ويتنقل جيئة وذهاباً بين الأعواد القائمة
والممددة بسرعة فائقة وقد أحس بالخطر لكن بب ثابر وصمم على الإمساك به وقد فعل وأمسكه
من رقبته مهلاً: *لقد أمسكتك! لقد وقعت!*

صارع الطائر البري دون هوادة وخمش يد بب السمينة حتى أدامها لكن بب عض بالنواجذ على
غنيمته عائداً بها إلى الكوخ قائلاً وهو يدخل:

انظري يا أمي! لقد أمسكت دجاجة!

بالفرح الغامر وصيحات الإعجاب استقبل الأولاد دخول أخيهم الصياد المظفر وقبلته الأم بحنان وحب لأنه ذو حظوة عندها كونه صبيًا مبكر الرجولة، لولا أنه كثير التشكي والانتحاب، وما أسرع وأبرعه في ذلك إن حانت له الفرصة ولولا مزاحه الثقيل السمج الذي يضعه في كفة واحدة مع سائر أمثاله من الأولاد في مجتمعات أخرى أرقى تحضرًا. كان بب بكنزته الصوفية الممزقة المتسخة واقفًا عند باب الكوخ بارد الأعصاب ممسكًا بالطيهوج الذي كان يرفس ويقاوم غير آبه بالمرّة بمخالبه الحادة فيما برز وجهه السمين المدور وتراعت عيناه الزرقاوان اللامعتان وشعره الخفيف ينساب في عقصات متشابكة بينما استقرت على رأسه الحاسر أشعة الشمس الذهبية كاشفة غمازات الخدين، ما أجدر هيئته بريشة أحد الفنانين.

هتقت الأم قائلة وهي تأخذ الطائر من بين يديه: *يا لك من رجل صغير! لسوف تتال إبطارًا مميّزًا مكافأة لك على ذلك!* ثم وضعت حبة بطاطس محمرة وقطعة من كعك الذرة فوق جانب أحد صناديق الثياب وبينما كان بب منهمكًا انهماكًا كليًا في تناول الطعام انسلت هي بهدوء خارج البيت وخنقت عنق الطيهوج.

أمطر الأولاد البطل الصغير بأسئلتهم أين وكيف أمسك بالدجاجة البرية فأجابهم بتؤدة وهو يمضغ الطعام مضغًا طاحنًا. بعدها اندفعوا إلى الخارج عصبة واحدة أملين في العثور على طيهوج آخر. أثمر البحث وأفلحوا في الرجوع بدجاجتين كانتا راقدتين ميتين غير بعيد من الكوخ. صحيح أن البندقية القديمة أرسلت طلقاتها بصورة عشوائية استثنائية لكن لما كان سرب الطيهوج ضخمًا للغاية فقد فعلت فعلها وهذا ما أظهرته حصيلة الطيور المقتولة.

كان توم نائمًا على سرير أمه الذي يشغل ركنًا في الغرفة الوحيدة لكن ضوضاء الترحيب بأخيه بب الذي قنص طيهوجًا أيقظته وجعلته راضيًا تمام الرضا عما كان بالرغم من أنه لم يقل شيئًا. وفيما كانت ليز وسارة تحملان الطائرين الآخرين سرّهن أن يعرف أن محاولته الناجحة لإطلاق النار على الطيور قد أتت أكلها وأصبح لدى العائلة ما تأكله. لم يكن توم قد رأى في السابق مثل هذا العدد من الطيهوج وهو يتوافد على ساحة المنزل وقد عاش تجربة القنص كلها من أولها لآخرها بولع كبير. أدركت السيدة جونز بفطرة وبديهية الأم المحبة ما يدور بنفس ابنها من مشاعر وأحاسيس وبالرغم من أنها أظهرت عدم اهتمامها بالأمر إلا أن كل ما فعلته كان ينم عن تيه وزهو كبيرين.

أحرصن على ذلك الريش يا بنات. لِمَ؟ لأنه كثيف ناعم. سنحتفظ بكل ريشة ومن يدري لعل توم عندما يتعافى يبتكر بعض الفخاخ لصيد طيهوج يكفي ريشه لحشو زوج من المخدات ومرتبة سرير؟

سألته سارة: *هل مرتبة الريش مريحة جدًّا؟*

*جدًّا، خاصة في أيام البرد وجسم أحدهم في حالة وهن كما هي حال توم الآن إذ يسهل عليه الرقاد فوقها. إليزا هاتي الدجاجة التي جلبتها وسوف أجهزها. ما أسمنها! وما أطراها! يا لها من وليمة

لذيذة! وكم يتعين علينا الإقرار بفضل الرب وشكره أن عيني توم قد نجنا عندما أطلق النار على تلك الدجاجات. كم كان توم ابناً صالحاً باراً عندما فكر في قنصها لتكون طعاماً لنا! وكلي رجاء في أن تبدين قصارى جهدك في مساعدته عندما يصبح قادراً على الحركة والخروج وألا تتركه يقوم بكل الأعمال المنزلية اليومية الروتينية وحده".

كانت السيدة جونز جد بارعة في إعداد الدجاجة للطهي وقد حرصت على أن تكون في مواجهة السرير حتى يرى توم كل خطوة من خطوات الإعداد.

*هذا هو القلب وهذا هو الكبد لذيق كاللوز والبندق! *وأخذت تشمهما بطريقة ذواقة. *علينا أن ننحيهما جانباً وحدهما في الوقت الحاضر * وببراعة ظاهرة راحت تقطع الدجاجة إلى أجزاء نقعتها في ماء بارد خلط به ملح كثير. *هذا الملح سيذهب بنكهته البرية غير المستساغة. وكم أمل حقاً أن يتمكن توم من تناول بعضها بعد طهيها، لكم سيمنحه ذلك القوة والعافية! لكن إن لم يتمكن الآن فسوف يسمح له الطبيب أن يذوقه في الغد! *

الفصل الثالث

أين يمكن أن يكون؟ - إلهام داخلي

تتهدد السيدة جونز قائلة وهي تنتظر للبعيد في قلق من خلال نافذة الكوخ: *أين يمكن أن يكون؟*.
وكم من المرات يوميًا سألت نفسها نفس السؤال لكن كخاطر يمر ببالها لكنها لم تفه به إلا الآن. مر أكثر من أسبوع وزوجها بعيد عن المنزل وما من أنباء منه أو عنه. فما الذي يعنيه ذلك؟ ومتى سيعود؟ هل أصابه مكروه؟ ما أكثر ما تواردت هذه التساؤلات وغيرها على بالها فأقضت مضجعها وأرقت فؤادها. كانت السيدة جونز واحدة من أولئك الأشخاص القلائل الذين أوتوا شفافية قلبية تجعلهم قادرين على الشعور بقرب حدوث شيء عندما تتملكهم فكرة أو هاجس بأن أمرًا جلا يوشك أن يقع، يقين يداخلهم لا علاقة له بمنطق العقل ولا ببرهان التجربة ولا بسنن وطبائع الأشياء واحتمالات الواقع، بل هو يقين ناتج كما يقول البعض: *عن هاتف داخلي أو وحي جواني* لا أثر فيه لإيحاء خارجي قريبًا كان أم بعيدًا وما هو إلا همس سري للروح يأتيها بفعل قوة غيبية خارقة، وهكذا يقين داخلي لم يكن ليخون أبدًا السيدة جونز. لقد مر عليها حين من الزمن حلت بساحتها فيه شرور وخطوب توقعتها بحدسها القلبي قبل أن تقع. لقد ألمت بها الخطوب حتى ألقى بظلالها السوداء على كل أحاسيسها ومشاعرها وكثيرًا ما أسكنت الخوف والقلق في قلبها حتى أصبحت كتلة من القلق الحي. وعليه فقد كانت تهلع وتفرع لأتفه الأسباب. وفي الليل بخاصة كانت تتكمش على نفسها وقد تملكها الهلع وفي الفترة الأخيرة بات من الصعب عليها أن تذوق طعم النوم وكانت إذا ما نامت تهب من رقادها مذعورة لتتأكد من أن كل شيء على ما يرام ثم تمضي للنوم مجددًا. ومع ذلك لم يكن شعورها بقرب وقوع خطب ما يقتصر عليها شخصيًا فأحيانًا امتد هذا الشعور ليشمل الزوج لكن الشعور الأشمل امتد ليضم تحته سائر المستوطنين، وتملكها شعور مخيف بأن خطبًا ما فظيغًا سوف يحل جراء عدوان الهنود.

كان الليل في أواخره وكانت المرأة الساهرة وحدها مؤرقة وقد جافاها النوم. أرسل القمر أشعة نوره باهرة ساطعة وكانت السيدة جونز جالسة، بلا ضوء داخلي ينير المكان، منهمكة في حياكة بعض القماش الخشن. كان الأولاد يغطون في النوم وما من صوت يسمع عدا أصوات تنفسهم وصفير الريح في الخارج. أزعجها الصمت فقامت وتلصقت عبر النافذة مجددًا. بدا كل شيء كئيبيًا مخيفًا. يا للوحشة والوحدة! أميال كثيرة ممتدة من البراري لا تقع فيها العين على أثر لحياة بشر. وعلى الناحية الأخرى تنتصب الغابة الغامضة. كم تبدو سيقان الأشجار قاتمة كئيبيّة تحت الوميض المتقطع الواهن لنور القمر! حدقت السيدة جونز في أشباح الأشجار البعيدة برهبة وخوف وتوتر.

غمغمت قائلة لنفسها: *كم أنا حمقاء!* لكنها ما إن أشاحت بنظرها بعيدًا عن النافذة حتى استأففت انتباهها مجددًا مرأى الغابة فقد بدا لها أن ثمة شبحًا يتحرك في الحرم الخارجي من الغابة. قالت وهي تحاول جاهدة طمأنة نفسها: *إنها الأشجار لا غير!*

لكن لم تكد تمر لحظة حتى ظهر أحد الثيران وتبعه شبح شخص لا يبين وتلاه ثان ثم ثالث في

صف منتظم. كان رتل الأشباح يتضح شيئاً فشيئاً وعرفت من هيبته أنهم هنود يسطون على ماشية المستوطنين. وما إن اقتربوا من الكوخ حتى خامرها الخوف وجمد الدم في عروقها خشية أن يقوموا بزيارتها هي الأخرى. ولم تكد تمر لحظة حتى تنبعت داخلها غريزة الأمومة وخشيت أن يتعرض أولادها للقتل. نظرت ثانية نحو أولئك الهمج القادمين ثم فتحت الباب بهدوء بالغ، وكان الباب لحسن الحظ في الجهة الأخرى من الكوخ وعادت وفي يدها بلطة هي كل ما في متناولها من سلاح لتدافع به عن حياتها وحياة أولادها، اتقدت عيناها وتصلب وجهها حتى بدت تقاطيعه الحادة وظهرت عليه أمارات عزم وحزم أكيدتين فيما انتظرت في صمت انقضاض الهنود. لكن هؤلاء الهمج بصنادلهم الخفيفة التي لا كعوب لها كانوا ينسلون بلا صوت وكأنهم حيات كثيرة تسعى. لم يبد أنهم لاحظوا الكوخ وسرعان ما اختفوا عن الأنظار. وعندما اختفى أثرهم جلست السيدة جونز على الأرض وقد دب الوهن في أوصالها التي كانت مشدودة منتصبه منذ بضع دقائق. كان رد فعلها قوياً للغاية وكانت قواها تخور واستقر رأسها بقوة على جانب فراش توم ما أيقظه وأخذ يكرر مناداته لها:

أماه! أماه.

همست قائلة أخيراً: *هس وإلا سمعوك!*

همس توم في فزع: *من؟*.

حافظت الأم على هدوئها التام وتتصنت بانتباه حتى اطمأنت إلى أن الخطر قد زال بالفعل ثم حكت لابنها ما رأته وما داخلها من مخاوف وهواجس.

قال توم بثقة: *لكن يا أماه ليس هناك ما يدل على أنهم مصدر متاعب. وهم لا يجروون على مهاجمة المستوطنين لأن البيض يهزمونهم باستمرار علاوة على أنهم قليلون في الجوار. وكما رأيت فإنهم لم يؤذونا لقد اكتفوا بسرقة ثور. ثم كيف يكون هذا وأنت تعلمين بأنه لم تعد هناك حروب مع الهنود منذ أمد بعيد وقد أصابهم الضعف بمرور الوقت وأنهم يخلون أراضيهم ويرحلون بعيداً قدر ما يمكنهم؟*.

كان هذا كلاماً منطقياً مقبولاً ولم يكن توم استثناء في ذلك بل كان رأيه معبراً عن موقف ورأي المستوطنين كافة. كانت السيدة جونز تدرك جيداً أنه لا داعي للقلق وأن كل ما تحسه هو مجرد مخاوف لم يسبق لها أن تجاسرت وتحدثت عنها لأي كان من قبل لأنها كانت تعلم أن هذا هو الرأي الغالب في الموضوع وأنها لن تجني سوى الهزأ والسخرية. وما كان منها إلا أن هزت رأسها وقالت:

كم كنت أتمنى أن يكون والدك آمناً مطمئناً بالبيت.

هتف توم في اندهاش: *كيف ذلك يا أماه هل أنت قلقة عليه؟ لطالما أحبه الهنود وهو قادر على الذهاب إلى أي مكان بالبراري والغابات بغير مرشد أو بوصلة دون أن يضل الطريق. إنه صياد عظيم كما تعرفين ولن ينجح أحد الهنود في التصدي لبندقيته*.

قالت الأم وهي تأخذ بيده وتغير الموضوع فجأة: *لكن يا توم كيف لم تتحسن أحوالك حتى الآن تحسناً ملحوظاً؟ ما زال جسمك ساخناً وتبدو عليك أعراض الحمى. لقد قال الطبيب بأنك ستبرأ منذ مدة*. أطرق توم برأسه ولم يجب واستمرت الأم في الكلام فقالت بحنان زائد: *ثمة ما يعكر صفوك لقد لاحظت ذلك منذ بعض الوقت. أو لا تحب أمك لدرجة أن تكون هي موضع ثقتك وحافضة شرك؟ ما الأمر يا بني؟*.

ظل الفتى على صمته لكن قلبه، حيث يضرر سره ويظن كل الظن بأنه مستور عن الجميع، تأثر أيما تأثر بهذا الحنان والاهتمام الغامرين المفاجئين. وسرعان ما بدأت الدموع تنهمر من عينيه وراح ينتحب بصوت عالٍ.

كانت عينا السيدة جونز مغلفتين وشفاتها تتحركان كما لو كانت تصلي وما إن توقفت عن تمتتها حتى سألتها توم برقة:
أماه هل أنت مسيحية؟.

قالت: *هذا سؤال حساس وخطير يا بني، أحياناً أمل أن أكون كذلك لكن السير باستقامة على طريق السيد المسيح هو أمر عظيم. لكن لماذا تسأل مثل هذا السؤال؟*.

أوه أجابها توم متحرجاً *أنا لا أدري بالضبط لم سألت هذا السؤال. كل ما أعرفه هو أنك طيبة مستقيمة بما فيه الكفاية لتكوني امرأة مسيحية بحق لكنك لم تحدثينا كأطفال عن ذلك أبداً وأنا لا أعرف ماذا عليّ أن أعتقد بخصوص ذلك*.

أزعجتها إجابة توم فقالت: *توم أعرف أنني كنت مهملة في هذا الجانب* وأردفت بشيء من التردد: *لكن والدك لا يرى الأمر كما أراه وقلما خالفت آراءه في أمر تربيتكم بل كنت حريصة طوال الوقت على إرضائه ولعلي بالغت في ذلك*.

أماه أكنت تصلين الآن؟.

قالت بشيء من التردد: *أجل*.

وكنت تصلين من أجلي؟.

أجل يا بني.

صمت توم هنيهة ثم قال:

أماه منذ أن سمعت الواعظ تمنيت كثيراً لو كنت مسيحياً وأعني في حال ما إن كان الكتاب المقدس صحيحاً. لكن ثمة أمور لا أفهمها وهي صحيحة من وجهة نظري.

ما هي تلك الأمور يا توم؟ تغير لونه وأجاب:

لا أربغ في الحديث عنها إليك لأنني أخشى أن تعتبريني ولداً سيئاً جد سيئ. لكنني فكرت أكثر من مرة في ضرورة أن أسأل بشأنها من هو أعلم مني. أتؤمنين أماه بوجود إله؟.

من صميم قلبي .

وأنه راض عن أولئك الذين يفعلون الخير وغازب على أولئك الذين يفعلون الشر؟ .

بالتأكيد توم .

تكلم الفتى بمرارة قائلاً: *أليس غريباً إن صح ما تقولين أنه تركني أصاب بما أصبت ذلك الصباح بينما كنت أحاول صيد طيور الطيهوج التي كنتِ بأمس الحاجة لها، بينما هناك جو بريست وأمثاله كثر من شرار الناس ممن يقسمون على أن المضي للصيد والقنص وقتل المخلوقات طوال الوقت من أجل التسلية حلال وينالون في النهاية صيداً وثيراً لكنهم لم يتعرضوا قط للأذى كما حصل معي* .

قالت الأم: *يا بني ثمة الكثير من الأمور التي تخرج عن نطاق فهمنا كبشر لتدابير الرب حيالنا وغالب ظني أن أكثرها أعقد مما نتخيل لأننا جد جهلاء. لكنك تعرف يقينا حقيقة وضعي، فأنا لا أستمع إلى أي عظات وغالباً لا أرى أحداً ممن يسمعون ومن ثم فلا ينتظر مني أن أجلو لك مثل تلك التدابير الربانية كما قد يفعل أولئك القوم* .

قاطعها توم بفضافة: *كم كنت أتمنى أن يكون الواعظ هنا حتى أسأله، لكن لعل أمثاله لا يحبون الحديث إلى أمثالي من الصبية الفقراء الجهلاء* .

واصلت الأم كلامها واضعة يدها فوق موضع القلب: *حسن أنا على يقين من أن كل تدابير الرب صائبة مهما بدا لنا أنها غامضة عصية على الفهم وهذا يريح قلبي وعقلي* .

أعجب توم بإيمان أمه لكنه سرعان ما اعترض قائلاً: *أماه أتظنين بأن علينا أن ننق دائماً بأحاسيسنا الداخلية؟ لقد قلت منذ قليل بأنك أحسست بأن ثمة متاعب ستقع بيننا وبين الهنود لكن لا أحد توقع ذلك. وها أنت الآن تقولين بأنك تحسبن بأن كل تدابير الرب صائبة. والآن إن كنت أخطأت في توقعك لسلوك الهنود وفي أن والدي في خطر داهم بسببهم فكيف يمكنك أن تكوني على هذا القدر من اليقين بالنسبة للرب وتدابير الرب؟* .

أجابته قائلة: *لقد أخطأت أحاسيسي في كثير من الأحيان لكن ثمة أحاسيس لا تخطئ أبداً. وأنا موقنة من أن الرب يدبر الأمر بطريقة صحيحة لأنني أحس بذلك ولسوف نرى ماذا يكون من الهنود يا توم* . ثم تنهدت بعمق ونهضت وحملت طويلاً في البراري الممتدة وناحية الغابات المحيطة وقد ارتسمت على وجهها علامات الجدية البالغة. ثم اتخذت مجلساً على حافة السرير وقالت بلطف:

يا بني أنت لم تبح لي بكل ما يقلقك حتى الآن. هل يصح أن تحجب عني شيئاً؟ .

عند ذلك هدأت نفسه وجاش صدره بقوة لأنه كان يعرف *أن أحاسيسها في ما يخصه في مكانها وربما كذلك في ما يتعلق بالرب* وقد مس ذلك الحرص عليه والاهتمام بأمره شغاف نفسه.

أخيراً قال لها وهو يغالب عواطفه: *أماه أنا لا أحب أن أكبر جاهلاً عديم النفع كما أنني لا أحب أن يكون إخوتي وأخواتي فقراء أو أخواتي فقراء محتقرين* . طفرت الدموع من عينيه مجدداً ومن

عيني أمه بالمثل وأضاف قائلاً وهو ينهض بجسمه فوق سريره وقد أخذته الحماسة: *أنا لا أستطيع تحمل هكذا وضع ولن أستطيع مهما يكن من أمر*.

قالت الأم: *آه يا بني المسكين لقد كنت أحس بما يثقل على صدرك ويفسد شهيتك ويتعسك كل التعاسة وكنت أصلي منذ مدة طويلة لأجل شفاء نفسك*.

سألها توم: *أنت لا تريدين لي التعاسة أليس كذلك يا أماه؟*.

لا سمح الله، لكنني لا أَرْضَى لك أن تكبر في ظل حياة كهذه لقد أحسست بأنك قادر على عمل الكثير والكثير في دنيانا هذه وتمنيت أن ترى ثمار جهدك وعملك.

لكن يا أمي كيف يتسنى لي أن أغير مسار الأشياء؟.

أجابته وهي تتفرس فيه: *توم كيف فكرت في تغيير مسارها؟* أشاح الفتى بوجهه مجدداً ولم يجب للحظة ثم قال بلطف:

لقد قررت أن أرحل وأتعلم وأن أكسب عيشي وأحاول أن أصبح شخصاً ذا شأن.

ومتى فكرت في البدء؟.

أجابها بصوت متهدج: *صبيحة اليوم الذي جرحت فيه نفسي*.

أو كنت سترحل دون أن تعلمني يا توم؟.

أجل يا أمي وقلت لنفسني سوف تكتب لها رسالة في ما بعد تحدثها عن كل شيء.

أجابته الأم قائلة بحنان: *توم لقد سألتني من هنيهة عن سبب تخلي الرب عنك وتأذيك ذلك الصباح عندما كنت تحاول قتل الدجاجات من أجل إطعام العائلة، في حين أن الصبية الأشرار لم ينلهم أدنى أذى. أعتقد أن تدابير الرب كانت في محلها عندما سارت الأمور على النحو الذي أخذته. كيف ذلك، يا بني العزيز، انظر كم أنت أفضل عندي ولا غنى عنك في الوقت الحاضر مقارنة بطيور البراري مهما كثرت، ولعلك كنت في طريقك لإيذاء نفسك أكثر بالرحيل عما أصابك جراء نار البندقية. لقد خططت جيداً لكنك فكرت في الرحيل بالضبط كما فكرت في تدابير الرب معك وكلاهما كانا تخطيطاً وتفكيراً طفلاً. توم أنت ولدي الذي لا غنى عنه الآن لراحة قلبي وعقلي معاً وربما لحياتي كلها. أنا لم أعد قوية كما كنت وسوف تتالمني أي هبة ريح متاعب شديدة. لقد أمسيت أخاف من طول الليل الآن لكنني أشعر بالأمان مضاعفاً طالما كنت حاضراً بيننا. كما أنك خير عون لي على أشغال البيت وفي العناية بالأطفال. لقد كثر غياب أبينا عن البيت حتى بت لا أستغني عنك. ماذا لو شب في الكوخ حريق وأنت بعيد عنا وتعلم أن الموقد ليس من النوع الجيد وماذا لو تعرضنا للمتاعب مع الهنود الهمج؟ ومن ذا الذي سيجلب لنا خشب التدفئة خلال الشتاء البارد المقبل قريباً؟ لقد نظر الرب إلينا وأظننا بكريم عنايته وسابغ فضله عندما نجاك لأجلنا ذاك الصباح. وعلاوة على كل ما سبق فلم تكن لتتجح في محاولتك تلك*.

سألها توم بصوت واهن: *لم لا؟*.

أولاً ليس عندك ملابس لائقة تواجه بها الناس ولا رسائل توصية تجعلك موضع ثقة من يستقبلونك. ثانياً حياتك الماضية كانت جد مختلفة عن الحياة التي انتويت الدخول فيها وأنت لا تملك سنناً يعينك على متطلبات السفر إذا تنحصر التوقعات كافة في أنك ستعاني الأمرين وعود أن تكون عوناً لنا كما هي الحال الآن كنت ستصبح مصدر حسرة وغم كبير وعبئاً فادحاً علينا. ألم يكن الأمر كذلك؟ أدركت أن أمه هضمت الموضوع هضمًا لكن قلبه غاص بين ضلوعه مثلما هوت قلعة أحلامه وتبخرت خطته فانخرط في البكاء مجدداً. *لكن لا تسئ فهمي يا توم كما أسأت فهم تدابير الرب معك. أنا أعلم أن ما قلته يخيب رجاءك وينال من عزمك بل إنها لقسوة وفظاظة مني أن أبدد آمالك العريضة في أن تصبح إنساناً ذا شأن ذات يوم. صحيح أنك انتويت الرحيل في ذلك الصباح وأن الرب كتب عليك ذلك الحادث فقطع عليك الطريق، لكن هذا لا يعني أن الفرصة في تحقيق أحلامك ضاعت للأبد طالما أن تلك الأحلام قديمة مستقيمة. تقول بأنك تحلم بأن تكون شخصاً نافعاً وها أنت ذا بيننا شخص نافع للغاية فاقنع بمعاونتنا في أشغال البيت في الوقت الحاضر وسوف يفتح الرب أمامك أبواباً رحبة في الوقت الذي يعينه هو دون غيره، هذا يقيني الذي لا شك فيه". ثم قبلته واستلقت على فراشها لتحظى بغفوة قصيرة قبل انبلاج الصبح.

الفصل الرابع

جولة بالحصان مع الهنود - قلب أسود

هالو! دعيني أدخل. هل أنتم جميعًا أموات؟ دوى خبط قوي على باب الكوخ.

فركت السيدة جونز عينيها من أثر استغراقها في النوم ولما كان الأولاد يعتمدون عليها في إيقاظهم فقد كانوا أيضًا نائمين. هرعت إلى الباب الموصد وفتحته ودخل زوجها.

سألت: *أهو أنت يا جوزيف؟*.

أجابها بصوت أجش: *ومن يكون غيري حسب ظني لكن خبريني أين أضع هذه؟*. حاطًا عن كتفه ربع ذبيحة غزال قامت زوجته بتعليقها فوق وتد خشبي دق بالحائط.

أنا سعيدة بعودتك جوزيف.

ينبغي أن تكوني كذلك لأنك كنت على وشك ألا تريني مجددًا.

قالت زوجته وقد انتابها القلق: *أمل ألا تكون قد صادفت أي متاعب*.

ليس شيئًا يذكر مجرد خدش من رصاصة أحد الهنود الحمر الأندال.

لماذا أكنت تتعارك معهم؟.

أجابها: *ليس بالضبط فطالما عاملتهم بالحسنى لكن بعد ما جرى لو صادفني أي منهم في الطريق فسوف أطلق عليه الرصاص قبل أن يطلق هو عليّ هذا كل شيء*.

سألت السيدة جونز: *لكن كيف حدث أن أطلقوا عليك النار؟*.

قال زوجها: *حسن هاتي شيئًا أضعه على جنبي لأن هناك التهابًا حادًا يؤلمني بعد كل هذه الجولة الطويلة واطبخي لنا شريحة من لحم الغزال وسوف أحكي لك كل ما جرى*. وفيما كانت السيدة جونز تتنصو عنه قميص الصيد طالعتها جرح منقح بجانب زوجها.

قالت الزوجة وهي تضمد الجرح بعناية وتضع فوقه مرهمًا مسكنًا دائمًا ما يكون في متناولها لاستخدامه في الأغراض العائلية: *يا إلهي يا جوزيف لقد جرحت وتبدو منهكًا مكدودًا جراء حملك هذا الحمل طوال طريق العودة وأنت تنزف هكذا. اجلس وسأتيك بما تأكله فورًا*.

وما إن اتخذ مجلسه حتى نددت عن توم صرخة ألم وكان بب أول من جاء مهرولاً بغير تمهل ولا تفكير لدى رؤيته والده فكان أن تعثر بوجه توم الملتهب فتلقى ضربة من الأخير حطت على أنفه.

عند ذلك استيقظ بقية الأولاد وصاحوا: *بابا رجع إلى البيت! فيما تكوم بب على نفسه وهو يصيح: *أنفي ينزف! أنفي ينزف!*

أجابت الأم وهي تهدئه وتسترضيه: *أوه لا ليس الأمر كما تقول*.

أجابها مصممًا على استدرار الشفقة: *حسن إنها تتحسن، تتحسن!*.
أثارت هذه الملاحظة موجة من ضحك إخوته وأخواته اعتبرها بب إهانة له وسخرية من حاله
فجأً بصوت عالٍ.

صاحت الأم: *كفوا عن الضحك عليه يا أولاد*.

لكن ما أجبرهم على التوقف عن الضحك فجأة كانت هيئته المضحكة لأنه كان يرتدي، كما فعل في
الليلة الفائتة، أحد قمصان توم القديمة كجلباب نوم وها هو الآن يلاقي صعوبة في التقدم نحو أبيه
لأنه كلما حاول ذلك تعثرت أقدامه بأطراف القميص.

تدخلت الأم قائلة: *لماذا لا تهدؤوا يا أولاد. لقد طلبت منكم ذلك مرارًا وتكرارًا*.

وهنا أضاف بب بتعاطف وهو يحاول أن يتزن في وقفته: *أعتقد أنهم عمي صم لا يرون ولا
يسمعون*.

قالت الأم متهدجة الصوت: *لقد أطلق الهنود الرصاص على والدكم وكان على وشك الموت
وعليكم التزام الهدوء". سأل بب الذي كان يقف الآن قبالة ركبتي والده وقد اتسعت عيناه الزرقاوان
من فرط الدهشة: *هل قتلوك يا أبي؟ لأنهم لو فعلوا ذلك لكنت أدخلت عصاي في مؤخراتهم*.

عند ذلك تهامس الأولاد في خفوت تام لأنهم شعروا ببعض الخجل جراء علمهم الآن بالحادث
المفزع الذي وقع لو الدهم.

قال توم: *أنا كانت تخشى عليك من الوقوع في متاعب مع الهنود وقد سيطر عليها القلق فلم تذق
طعم النوم ليلة أمس".

سأله والده: *لم ذلك، أقام الهنود بأي تصرفات مسيئة في الجوار؟*.

أجاب توم: *لا وقد قلت لأمي بأنه ليس ثمة خطر أيًا كان*.

كانت رائحة لحم الغزال النفاذة تملأ جو الكوخ وقالت السيدة جونز: *هيا يا أولاد هلموا اغتسلوا
والبسوا ثيابكم واستعدوا لتناول الفطور".

هرع الأولاد، واتجهوا نحو حوض الاغتسال حيث هو في مصطبة الغسيل خارج الباب فيما هم
يتجادلون أيهم يسبق الآخر وغسلوا أيديهم ووجوههم بسرعة فائقة.

كان السيد جونز الذي يناهز الخامسة والأربعين من العمر رجلاً قصير القامة ممثلي الجسم ذا شعر
داكن ولحية كثة. موفور العافية وشخصية تتسم بتناقضات مشهودة في الطباع والكلام. كان إن
تحدث إلى الآخرين عفويًا لا يتكلف ولا ينمق كلامه، تناسبه تمامًا لغة من ألفوا ارتداء الملابس
الجلدية إلا أنه وفي بعض الأحيان كان يتحدث إلى الآخرين بلغة منتقاة لا تخلو من رقة وكياسة.
كان السيد جونز يكره التواجد في المجتمعات الكبيرة وكان المستوطنون يزدرونه لعدم التزامه بأحد
المشاريع مثله مثل الجميع لكن إن اضطرت الظروف للخروج من عزلته والتواجد في محفل أو
جماعة كان محدثوه يندهشون أيما دهشة من مدى تنوع ودقة معلوماته. هذه التناقضات جعلت منه

لغزاً محيراً وجعلت جيرانه يكبرونه أحياناً ويحطون من شأنه أحياناً تبعاً لظروف التعامل. على كل حال لم يكن يضاهيه أحد في إحاطته بطبائع الحيوانات ولا بأحوال الريف وظواهره. كان السيد جونز ذا بنية جسدية فائقة القوة لا تنال منها المشاق مهما كانت، وكان إن واجه الخطر ثابت الجنان مقدماً شجاعاً لكنه مع ذلك لم يستطع تقييد نفسه بعمل منتظم ذهنياً كان أم عضلياً.

تساءل السيد جونز فيما كان بقية الأولاد يلتهمون ما في طبق اللحم التهاماً: *ألن يحضر توم للإفطار؟*

عندها قصت عليه الأم كيف جرح توم ثم قالت:

لكنك لم تخبرنا كيف تعاملت مع الجرح الذي أصابك؟

قال السيد جونز وهو ينحي طبقه جانباً وقد أشبع نهمه: *حسن لقد اتجهت نحو البحيرة بعد أن سمعت بأن هناك أعداداً كبيرة من الإوز البري وطرائد أخرى وتوقعنا أن نخرج بغنيمة كبيرة لكن في مساء يوم وصولنا إلى البركة وبعد أن تفحصنا المكان لبعض الوقت قمنا -ديفيز وأنا- بعبور إحدى البراري حتى أصبحنا على مشارف أحد الأجمات فقلت له، عليك بالذهاب إلى الجهة الأخرى من الأجمة وأنا سأذهب من هذه الجهة فإن كان ثمة بعض الغزلان فعلى أحدنا أن يدفعها للخروج، ثم كان أن قطعت بضع ياردات بين الأشجار ولم أدر إلا وقد سمعت دوي إطلاق نار من إحدى البنادق واخترقت جنبي رصاصة. قلت لنفسى، تلك تحية استقبال من عند الهنود الحمر، وعندها أيقنت أنني مستهدف فتقلبت فوق الأرض وسكنت سكناً تاماً بين الحشائش الطويلة. وما إن مرت دقيقة لا أكثر على ذلك حتى برز أحد الهنود الحمر من وراء شجرة قريبة واتجه ناحيتي ليلسح فروة رأسي. جهزت مسدسي وما إن أصبح على مسافة بضعة أقدام مني حتى عاجلته بوابل من الرصاص فسقط طريحاً، ولما كنت لا أدري كم قد تكون أعداد أولئك الأوغاد في المكان جررت نفسي متجهاً نحو جانب البحيرة حيث وجدت ديفيز في انتظاري وكان قد رأى كل شيء فقمنا سوياً بالزحف ملتفين نحو الجهة الأخرى أسفل الضفة وقفلنا عائدين نحو الديار. لماذا بحق السماء لم يوجه هذا الوحش الضاري رصاصته نحو القلب، هذا ما لم أفهمه خصوصاً أنهم جميعاً لا يخطئون الهدف مطلقاً وبالأخص لأنه كان أقرب ما يكون مني والهدف سهل المنال".

عند ذلك أدركت السيدة جونز علة غصة قلبها وحرقتها عليه في نفس توقيت إفلاته العجيب من براثن الموت.

لكن محادثتهما قوطعت بظهور أحد المستوطنين الذي أتى ليسأل عما إن كانوا رأوا أثراً لزوج من الماشية الشاردة.

قال السيد جونز متوجهاً بالكلام للسائل الذي كان واقفاً أمام باب الكوخ وقد امتطى حصانه: *آه أهذا أنت يا جارنا ألن؟*

أجابه ألن بحرارة ومودة: *آه جونز متى رجعت؟ وهل حالفك الحظ؟*

رد عليه جونز قائلاً: *حصلت على بعض من لحم الغزلان وخضت معركة قصيرة مع الهنود".

*أها! لقد انتهى أولئك الأوغاد الحمر استنشاق رائحة البارود مجددًا أليس كذلك؟ حسن أنا جاهز لهم، هذه واحدة، كما أن لدي سبعة فتیان لا يقلون عني طوًلاً ويجيدون استخدام البنادق كأفضل الرماة وهم يتحرقون شوقاً للقاء أولئك الحقراء. لكن إن لم يكن أحد من عائلتك رأى ماشية شاردة في الجوار فعلياً أن أمضي في طريقي. حقيقة الأمر في ظني أن بعض اللصوص الأوغاد اقتادوها بعيداً".

تساءلت السيدة جونز: *بماذا تتميز تلك الماشية؟*

*أحدها أحمر والآخر مخطط مرقش ببقع غامقة".

هل الأحمر جد ضخم ذو قرون عريضة مفرودة؟

قال ألن: *هذا هو*.

*لقد رأيت الليلة الفائتة يعبر الطريق بجوار كوحننا".

أرأيت؟ أكان الآخر المخطط يتبعه؟

أجابته قائلة: *لا بل كان بعض الرجال يسوقونه".

صاح توم بحماسة: *كانوا هنوداً!*

لكن السيدة جونز انحنى لتفرغ صفيحة الفضلات التي كانت تحملها في يدها مستعينة في ذلك بسكين مائدة فشوشت على كلامه حتى لا يسمعه وبينما أشارت إليه بأن يلزم الصمت.

ظل ألن صامتاً يفكر للحظة. كان شعره فضياً وخطه الشيب لكن وجهه كان ينضح حيوية ويفيض حمرة وتورداً وكان جسمه الضخم متناسق الأجزاء ينم عن قوة بدنية كبيرة. كان ألن الذي ينحدر من سلالة بطل من أبطال الثورة والذي يحمل اسمه، رجلاً مقدماً نشيطاً قوياً يجيد استخدام البنادق ورث عن سلفه الروح القتالية العالية.

سأل ألن: *متى بالضبط رأيت أولئك الرجال يسوقون الثور؟*

أجابت السيدة جونز: *نحو الثانية عشرة حسب ظني".

* أكانوا مترجلين؟*

*أجل".

حسن، عليهم أن يرحلوا بسرعة إن أرادوا الهرب مني! وإن لحقت بهم.... لكن بقية العبارة ظلت معلقة في الفراغ لأن الشيخ الكبير قد تشمم رائحة وأثر الثور المسروق فنزل من فوق صهوة الحصان وتفحص بعناية الأرض ثم صاح بقوة وهو يمتطي حصانه وينهب به الأرض *الهنود!*

عندما توارى ألن عن الأنظار التفت السيد جونز إلى زوجته وسألها:

هل رأيت الرجال الذين كانوا يسوقون الثور؟

*أجل".

إذًا لماذا لم تقولي ذلك بحق السماء؟.

قالت السيدة جونز: *يا زوجي المتاعب قادمة لا شك فيها وكنت أتمنى ألا يكتشف السيد ألن من سرق ماشيته. فلو أنه أردى واحدًا من الهنود فذلك كفيل بمجيء المئات منهم فيهاجمون المستوطنات وسوف نعيش أوقاتًا عصيبة فظيعة".

رد جونز قائلاً: *بنسًا! إن ألن كفيل بمواجهة جيش من الهنود وهناك المزيد منا ممن سيهبون لمؤازرته فلا تخافي لأن الهنود الحمر يعرفون مقدار قوتنا جيدًا ولن يجازفوا بالاشتباك معنا. قصارى ما عندهم أن يتلصصوا من أن لآخر فيسطون على ثور صغير أو بقرة صغيرة ويطلقون النار على مستوطن غافل من وراء ساتر أو غطاء هذا كل ما يجرؤون على فعله... تقي بذلك!* ثم تناول بنديقيته ونظفها وحشاها قائلاً: *أظن أن عليّ اللحاق به فلعل ألن سيواجه الأوغاد دون استعداد كافٍ أو تنبه لما سيكون*. ثم خطا خطوة سريعة اختفى بعدها عن الأنظار.

انتشرت بسرعة أخبار إصابة توم وإطلاق الهنود الرصاص على السيد جونز مشفوعة بمبالغات كثيرة ذلك أن سكان منطقة جديدة عادة ما يتكافلون ويؤازر بعضهم بعضًا لأنهم يشعرون بأنهم ذوو مصلحة واحدة إن واجه أحدهم المتاعب. علاوة على أنه لم تعد هناك تلك التمييزات القديمة التي سادت في المستوطنات أول الأمر فقد تعرف المستوطنون بعضهم على بعض وألما إلمامًا كافيًا بأحوالهم وشؤونهم. أضف لذلك أن الطبيب عند خروجه في زيارته العلاجية أعطى مرضاه وأهليهم وصفًا مثيرًا لجرح مريضه الراقد بالكوخ كما أنه أسبغ ما أسبغ من المزاي السحرية على مفعول خدماته الطبية. صحيح أنه لم يقل بأن رأس توم قد انفصل عن جسده وأنه استبدلها بأخرى أحسن منها لكنه أدخل في روع مرضاه وأهليهم بأن شيئًا خارقًا قد تحقق بفضل مهارته الطبية والجراحية. وطوال اليوم قام كثيرون بعيادة توم لإشباع فضولهم وإظهار تعاطفهم. وقد شكل هذا فرصة ذهبية لأولاد آل جونز ليهنئوا وتفرح قلوبهم بما رأوا وبما سمعوا خلال تلك الزيارات. أما بالنسبة للأم فقد نال منها التعب جراء هذه الزيارات المفاجئة فودت وهي تودع آخر الزائرين أن تخلو إلى نفسها فنادت روبرت وطلبت منه أن يجلب بعض الخشب وأن يوقد نارًا حتى تتمكن من تحمير بعض كعك الشاي. خف روبرت سريعًا لأداء المهمة وهرع باقي الأولاد لمعاونته تحركهم في الأساس شهيتهم لتناول الكعك. ملأ روبرت الموقد بالخشب الجاف ثم أشعل النار فيه وسرعان ما امتلأت الغرفة بالدخان. لم يكن ذلك بالأمر الجديد وخير دليل عليه هو الحوائط المسودة للغرفة. لكن سرعان ما انقشع الدخان ونفثت غلاية الشاي الكثير من البخار فأخذت السيدة جونز بعض ما تدخره من لحم وصبت الماء المغلي فوقه وذرت بعض الملح. ثم وضعت في مقلاة الكعك بعضًا من دهن الغزال وفيما كان الدهن ييبق راحت تضع العجينة فيه ملء مغرفة حديدية كبيرة، مغرفة وراء الأخرى.

قالت لأولادها الملتفين حول الموقد كطوق محكم وهم يتابعونها بانتباه بالغ: *لسوف يستطيب والدكم هذا الكعك*. وعندما انتشلت من المقلاة الكعكة الأخيرة أدخلت الطبق المكس بالكعك في الفرن المفتوح ليحتفظ بحرارته إلى أن يأتي الزوج.

قالت سارة التي تتحرق لتناول الطعام وقد ألفت نظرة على خارج البيت لترى ما إن كان أبوها قادمًا أم لا: *يخيل إليّ أنه قادم الآن، لا ليس هو إنه شخص لا أعرفه. كم هو أنيق الملبس!*

عندما تقوهت سارة بعبارتها الأخيرة اندفع جمع الأولاد كتلة متراسة نحو الخارج، وقد أخذتهم الحماسة ليروا تلك الأعجوبة فاحتكوا بسارة خلال اندفاعهم فأزعجها ذلك أيما إزعاج.

اقترب منهم سيد محترم في أواسط عمره ذو هيئة لطيفة يضع عوينات ذهبية ويرتدي ثيابًا سوداء.

ولما كان الأولاد أبناء بيئة الغرب الأمريكي لا تقع أعينهم فيه سوى على نوعيات الناس الكادحين ممن يرتدون أبسط الملابس، فقد راعهم مظهر الرجل الوافد فتراجعوا وانكمشوا مذعورين وراء الكوخ وخلف زريبة الخنازير بالرغم من ندائه اللطيف عليهم مرة بعد المرة للبقاء. ومن هناك أخذوا يتلصصون عليه ويختلسون النظر إليه وقد فغروا أفواههم دهشة واستغرابًا.

قال الرجل وهو ينحني: *السيدة جونز حسب اعتقادي* فأجابت السيدة جونز طرقتة الخفيفة فوق إفريز الباب وقد علاها الارتباك والاندعاش جراء معرفته اسمها: *أجل سيدي*.

دخل الرجل دون استئذان لأن السيدة جونز كانت في قمة ارتباكها فلم تدعه للدخول ثم قال:

سمعت أن ابنك قد أصيب بجرح بليغ ولما كنت بصدد البحث عن أطفال لإحاقهم بمدرسة السبت التي سنجهد لها من الأحد فقد فكرت في المرور بكم ومعرفة ما حل به وكم من أولادكم يمكنهم الحضور.

همس توم فيما كانت أمه ترتب ملاءات الفراش في ارتباك وعصبية: *إنها الإرسالية*.

سمع الكاهن الطبيب ملاحظة توم ولم يبد عليه أنه لاحظ مدى ارتباك الأم وتخرجها فخطا نحو توم وقال بطريقة نزلت بردًا وسلامًا على الأم والابن: *أتمنى ألا تكون إصابتك خطيرة يا بني*.

أجاب توم ممتنًا لما أبداه الكاهن من عطف كبير: *لا سيدي لقد أحرقت البارود وجهي بشكل سيئ، لكنه شفي تقريبًا الآن وخف السواد بشكل كبير*.

ما الذي أدى بك للإصابة هكذا في هذا الوقت من السنة؟ عادة ما يصاب الأولاد ببارود الرصاص في يوم عيد الاستقلال. لقد مررت بهذه التجربة.

تجراً توم على الاستفسار لأنه كان مشوقًا لسماع قصة: *كيف حدث ذلك؟*.

أجاب الكاهن: *كنت حينها في نحو الرابعة عشرة صبيًا غرًا أخاف من كل شيء وأحذر كل شيء وكانت الأسابيع قد مضت وأنا أدخر البنس فوق البنس لأحتفل بالرابع من يوليو. ابتعت نصف رطل من مسحوق البارود ومدفعا حديدياً صغيراً ذا عجلات وتوقعت كما قد تظن قضاء وقت ممتع. كنت قد قررت في الليلة السابقة أن أبدأ اليوم بتحية كبيرة تحدث أثرًا لا ينسى، فتسحبت مرتدياً جواربي عبر غرفة نوم الوالدين إلى القاعة الأمامية وكان الوقت فجرًا قبيل الشروق وكنت قد حشوت، في المساء السابق بندقيتي الصغيرة حتى فوهتها، وما إن أطلقتها حتى سمع دوي كبير ولك أن تتأكد من أنه كان دويًا كبيرًا بكل معنى الكلمة لأنه تم داخل المنزل ثم كان أن انتعلت

حذائي ومضيت إلى الشارع تاركًا ورائي أبوي العجوزين ليناما ثانية إن استطاعا إلى ذلك سبيلًا. كان استخدامي الأول للبارود كما رأيت غير مؤذ لي إلا أنه علمني الاستخفاف بالأمر. عندما أصبحت في الشارع وجدت حشودًا من الفتيان والرجال ممن سبقوني إلى هناك وقد علا ضجيجهم وصخبهم وكانوا يطلقون المفرقات النارية ونار المسدسات والبنادق بينما تردد أجواء الصباح المغبش أصداء قرع الطبول والأبواق المعدنية. ثم كان أن صادفت ولدًا معه مسدس كبير عتيق الطراز فابتعته منه لقاء ثمن مرتفع مبالغ فيه وظللت أطلق النار باستمرار حتى حان وقت الفطور. وفي الطرف الشرقي القصي من المدينة حيث كنت أقيم آنذ كان ثمة تل مرتفع يطلق عليه اسم تل منجوي نما إلى علمي أن الجنود سوف يعسكرون به ذلك اليوم فذهبت إلى هناك بعد أن تناولت وجبة إفطار سريعة. كان ثمة عشرات من الخيام البيضاء المضروبة في المكان والتي تضم بين جنباتها رجالًا ابتاعوا سائر ألوان المأكولات الشهية في الوقت الذي كان فيه آلاف الرجال والنساء والأطفال منتشرين يجوبون المكان. أثارني المشهد أيما إثارة. كان التل بقعة ساحرة إذ يطل من عل على المدينة بكل ما تضمه من آلاف البنايات والشوارع الظليلة كما أنه يطل من جهة أخرى على الميناء بالسفن الراسية فيه والأرصفة والجزر الجميلة بينما يمتد المحيط بعيدًا على مدى البصر".

قاطعته توم قائلاً: *أنا لم أر المحيط إطلاقًا*.

حسن سأصف لك كيف هو وماذا يشبه. أو لم تنتظر إلى البراري وهي تمتد أمام عينيك أميالًا وأميالًا، أقصد البرية المتموجة التي لا تقفأ تمتد وتمتد حتى تتماس أخيرًا مع خط الأفق؟.

أجاب توم: *أوه أجل*.

*حسن تخيل أن تلك البرية تحولت مياهًا عميقة حتى إنك لا تستطيع لمس أعماقها بامتداد لم يقع عليه بصرك من قبل، هكذا يبدو المحيط ولا تنس أنه في حالة حركة لا تقتر ولا تهدأ، يهدأ عند الجزر ويثور عند المد وتتلاطم أمواجه وترتفع محلقة في الهواء فيرغي ويزيد مندفعًا نحو الأرض والصخور".

قال توم بجدية: *أوه لكم أتمنى أن أراه ولو مرة واحدة!*

تقرس الكاهن في وجه توم للحظة ثم قال:

*قد تفعل ذلك يومًا ما. لكنني كنت على وشك إخبارك كيف جُرحتُ. لقد فجرت كل مسحوق البارود وكنت قد مللت المسدس لأن هكذا أشياء تسليك بعض الوقت ثم تزهدها. بعد ذلك مررت ببعض الأولاد يقومون بصنع ألعاب متفجرة مثل البراكين المصغرة. ولا شك أنك تعرف ما هي البراكين إنها جبال تقذف حممًا ولهبًا. تناول الأولاد بعض مسحوق البارود وبللوه ثم شكلوه بأصابعهم ليصبح تلالًا مصغرة ثم وضعوا طرف شريط كبريت على قمة كل منها وأشعلوا الطرف الآخر بحيث تمتد النار إلى القمة وتبعث زخات من الشرر تستمر في توهجها بعض الوقت إلى أن يخف هذا التطاير وذلك الوهج تدريجيًا. هذه اللعبة خلبت لبي فقمت بابتياح ربع رطل من مسحوق البارود وشكلت تلالًا على غرار ما شاهدت من قبل وأشعلت طرف شريط الكبريت كما رأيتهم

يفعلون لكن الشريط احترق بكامله ولم تتفجر التلة. وعندها فكرت في أنني بللت المسحوق بأكثر مما ينبغي فانحنيت وأضفت بعضاً من مسحوق البارود الجاف من ورقة أحملها. وفي غمضة عين اشتعلت بفعل شرارة مدخنة مفجرة- كل محتويات الورقة التي كانت في يدي واحترق وجهي بشدة وأصبحت أسود كأني زنجي من الزنوج”.

قال توم: *هذا ما حصل معي لكنني أتعافى الآن*.

رد عليه الكاهن وهو يضحك: *فهمتكَ ويمكنني أن أقول إنك كنت قلقاً لسواد الوجه بقدر ما كنت قلقاً من ألم الاحتراق”.

قالت الأم: *لقد خشي توم ألا يزول اللون الأسود”.

*هذا ما خشيته بالضبط لكنني اكتشفت منذ ذلك الحين أن ثمة ما هو أفظع من سواد الوجه”.

سأل توم: *وما هو ذلك الأفظع من سواد الوجه؟*.

أجاب الكاهن: *سواد القلب!*

كرر توم الكلمة وكأنه لا يفهم معناها: *سواد القلب!*

أجل يا بني. أقصد القلب الذي سودته الخطيئة. آه لو أن الناس ألقفها أكثر سواد القلب بدلاً من القلق على المظهر الخارجي وسماء الوجه لكان ذلك أفضل من الوجوه كافة وسكت الكاهن برهة قصيرة ثم قال:

*لكن ثمة ما يستوجب الشكر والامتنان منا ألا وهو أن هناك علاجات لما يصيبنا من جروح الجسد التي تشوهنا كما حصل لوجهينا فتشفى الجروح وتعود البشرة نضرة جميلة كما كانت وفي المقابل ثمة الطبيب الشافي المعافي الذي يملك وحده شفاء الجروح التي تخلفها الخطايا بأرواحنا فلا يغادرنا إلا وقد عادت أرواحنا نقية طاهرة من غير سوء إلى الأبد. أليس هذا تدبيراً ربانياً مجيداً؟”.

همس توم وهو يبكي: *أجل*.

هتقت الأم بقوة وشجن: *أجل”.

قال الكاهن متسائلاً، فيما كان أغلبية الأولاد قد تجرؤوا على دخول الغرفة فوقوا وقد عقد الصمت ألسنتهم منصتين لما يقول: *لكن كم من تلك القلة سيحضر درس الأحد المقبل؟* وانصرف الكاهن بعد أن قطع عهداً بأن كثيراً من الناس سيحضر العظة وبأنه يأمل أن يعاود زيارتهم في القريب العاجل.

خلفت زيارة الكاهن الموقر في نفوس الأولاد رهبة وفتنة طاغيتين. ولعل ذلك صحيح لأن الكاهن كان صديقاً صدوقاً لم يهمله في شيء كون مسكنهم رثاً يفتقر إلى أدنى وسائل الراحة، ولم يأبه كون ثيابهم قديمة بالية ولم تنفره تصرفاتهم التي تتم عن قلة ثقافة وسوء أدب. لقد أحبهم محبة في السيد المسيح ومحبة في أرواحهم وهذا ما دفعه من الأصل لترك منزله الفخم في الشرق والانطلاق نحو البرية في الغرب. كان كاهننا رجلاً بحق وأباً مخلصاً من آباء كنيسة يسوع المسيح لا يطمح في

شهرة وجاه ولا يطمع في مال يجنيه أو ثروة يكسبها ولا يرجو رفاهية ونعيمًا يظلان حياته ولا غنى وعظمة يحملان الناس على احترامه والتودد له لكنه اختار سبيل هداية الخراف الضالة إلى حظيرة الرب.

قالت الأم بعد أن هدأ روع الأولاد جراء الزيارة الكهنوتية المباركة الميمونة: *أظن أن علينا ألا ننتظر والدكم أكثر من ذلك*. ثم أدخلت يدها داخل الفرن لتجلب طبق الكعك ولما لم تجد شيئاً أخذت تنتظر داخل الفرن وهي تهتف متسائلة:

كيف ذلك، أين الكعك؟ أنا متأكدة من أنني وضعت داخل الفرن فمن الذي أخذه؟.

حرق الأولاد بعضهم في بعض في ذعر بالغ.

قالت إليزا: *أراهن أنها واحدة من الأعيب بب* وهنا انتبه الجميع للمرة الأولى إلى عدم تواجد بب بالحجرة فهرعوا إلى الخارج بحثاً عنه.

نادت الأم: *بب، بب!*.

ردد الأولاد نداءها وهم يجوبون الحقل بحثاً ويتفقدون كل زاوية وركن تخطر بالبال. لكن ليس ثمة مجيب ولا أثر لبب إلى أن صاح شارلي أخيراً:

ها هي عصاه!.

قالت الأم بالرغم من أن القلق بدأ يساورها خوفاً على ولدها: *إذا فهو لم يبتعد كثيراً*.

قال روبرت: *لا لأنه يمتطي العصا معظم الوقت*، ثم أردف قائلاً على نحو مفاجئ: *آه أيها الوغد الصغير إنني أراك* ثم التفت إلى بقية الحاضرين وهمس: *انتظروا هنا ولا تحدثوا أي ضوضاء!*.

تجمع الأولاد صحبة أمهم بتلطف حول محبس الغزال وتلصصوا النظر في الداخل فرأوا بب جالساً بجانب الغزال والكعك في حجره يأكل منه ويطعم ذلك المخلوق الوديع. وبالرغم من أن بب كان أكثر من أعاظ وأذى الغزال فإنه كان أسبق الجميع في ترويضه واستئناسه.

الفصل الخامس

الأخ سميث

صباح الخير سيد جونز أعتقد أن علينا وصف هذا الموسم بصيف هندي، ألا توافقني الرأي؟
كان ذلك هو كاهننا الذي شد على يدي الصياد.

أجاب الصياد: *أعتقد أن الوقت لا يزال مبكرًا على ذلك لكن الجو لطيف حتى الآن*.

هل ستكون مشغولاً اليوم؟ أنا أود العثور على قطعة أرض مربعة لأقيم عليها منزلاً. وحيث إنني لم يسبق لي وضع اليد على أي أرض عامة من قبل فلدي الحق في ذلك وسوف أمارسه.

ضحك الصياد مستهزئاً وقال:

لقد وضع كثير من الناس أيديهم على أراض أكثر من مرة.

أجاب الكاهن: *لكن هذا غير قانوني*.

إنهم لا يأبهون لذلك.

لكنهم مجبرون على أداء القسم بمصلحة الأراضي الحكومية على أنهم لم ولن يخرقوا هذا الالتزام.

وهم لا يتوانون عن أداء القسم.

لكنهم بهذا يحنثون بالقسم.

هذا صحيح.

تتهد الكاهن وقال: *حسن أنا لا أفهم كيف يمكن لشخص أن ينتهك القانون ويؤدي يميناً كاذبة في سبيل الحصول على قطعة أرض صغيرة*.

أجاب الصياد بلهجة تغلب عليها الشراسة: *ولا أنا أفهم ولا أدعي التقوى أيضاً. لقد حدث أن وضعت يدي على قطعة أرض ذات مرة ثم قمت ببيعها ولقد انتقلت كثيراً منذ ذلك الحين لكنني لم أتحايل على الحكومة وأنتقص من حقها أو حق أي شخص ولا سنناً واحداً في ما يتعلق بموضوع الأرض. أنا لا أملك شيئاً هنا والأرض المقام فوقها كوشي هذا هي أرض الحكومة ولو عرض الكوخ اليوم للبيع عن طريق السلطات المعنية من أجل المنفعة العامة لما اعترضت أو قاومت. لقد جازفت وفتعت بما حصلت عليه عوض أن أملك مزرعة كبرى خارج نطاق الكوخ أحصل عليها تحت طائلة القسم. إنهم يصفون جوزيف جونز بالكلب الحقير وأنا لا أحسبه غير ذلك لكن دعني أقول لك يا جاري إن ضميري لا يتحمل وزر الذهاب إلى مصلحة الأراضي الحكومية ورفع يدي اليمنى بمهابة مؤدياً القسم بأن أقول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق وعندما أضع يدي مرة ومرات على أرض ليست من حقي أحلف مرة أخرى بأنني لم أفعل ذلك مطلقاً مثلما يفعل بعض

من يصلون وراءك ويترنمون بالمزامير!*

هل أفهم من كلامك سيد جونز أن ثمة مسيحيين ممن يتظاهرون بالإيمان والتقوى هنا بالجوار قد فعلوا ذلك؟

أجاب الصياد: *هذا ما قصدته بالضبط وأنا أكن لهؤلاء المنافقين المتباكين في صلاتهم من الاحترام قدر ما أكن للآخرين القانتين الخاشعين ولهذا فأنا لا أداوم على الصلوات الجماعية. ما أحصل عليه هو ما أحصل عليه بشرف وأمانة. أليس كذلك يا عزيزي؟*

*أنا لا أدخل إلى بيتي إلا ما يرسله الرب الرحيم من نعم داخل الغابات وفوق البراري من أجلي 'إن الماشية التي ترعى فوق ألف تل هي ماشيته' هذا مكتوب في الكتاب المقدس حسب اعتقادي وهو يعني كما فهمت أن الغزلان والوعول والذئبة والإوز والدجاج تخص الرب ولا أحد يمكنه الادعاء بأنها تخصه فيقول: *إنني أملكها كلها* فيمنعها عن غيره من الناس ويخص نفسه بالانتفاع بها*. ثم قال وهو يربت على بندقيته: *وعندما يقوم ببلي هذا بإرداء ظبي سمين أرضاً نحس بأننا أمناء مستقيمون فعلنا ما فعلناه بأمانة واستقامة أليس كذلك يا بيل؟ فالأمر لا يشبه بحال الوقوف وراء المنصة الخشبية في محل أو دكان وقد علت وجهك ابتسامة لزجة، بينما أنت تغش في الميزان والمكيال وتبيع سكرًا مغشوشًا بديلاً عن السكر الخالص النقي. ما أكثر ما رأيت ذلك بأمر عيني وقد صنعه أولئك الذين يحيون في منازل فخمة ويلبسون ملابس فخمة ويقصدون الكنيسة للصلاة بانتظام وإذا مروا بجوزيف جونز استنكفوا واستكبروا أن يتكلموا مع ذلك الصياد العجوز. ليس هذا مما يعنيني في شيء فأنا أكبر من أن أتحدث مع أمثالهم وإن كانت السماوات مفتوحة لهم فأنا أفضل ألف مرة ألا أكون معهم وألا يجمعني بهم مكان هنا ولن يكون لنا مكان معهم هناك. لكن هل ثمة ما قصدتني بالخصوص لأجله؟*

قال الكاهن: *أخبرني الناس أنه ليس بين المستوطنين من هو خبير مثلك في تقييم الأراضي وفي الاستدلال على مواقع تقسيم الأراضي وتربيعاتها وحدودها وفكرت في أن تصحبي في جولة قصيرة بالمكان دون أن يستقطع ذلك الكثير من وقتك".

قال الصياد: *لا شيء أحب إلى قلبي من ذلك، أئمة اتجاه معين تحب أن نتوجه إليه؟*

أخبرني الأخ سميث أن ثمة قطعة أرض مربعة هنا ما زالت على حالها لم يضع أحد عليها يده. وهنا أخرج الكاهن من بين طيات كراسه يحملها مخطط خريطة أولي للمنطقة والجوار مخصصة لبيان ما تم تخصيصه من أراض وما لم يتم.

سأل الصياد فيما مر بعينه فوق الورقة المفردة: *هل أعطاك تلك الخريطة؟*

أجاب الكاهن: *أجل فالبحث عن أرض هو أمر جديد بالنسبة لي، وأنا ممتن أن أسترشد بخريطة كهذه".

* أنا لا أجد سبباً قوياً للامتنان بوجود هكذا رسم معك".

تساءل الكاهن وقد اعتراه القلق والارتباك: *كيف ذلك، أليست تلك القطعة المربعة خالية من أي

واضع يد أو صاحب حق؟*.

أجل ونحن سنمضي ونراها على الطبيعة لكن هل ستذهب ماشياً إليها؟.

فأجابه الكاهن بالإيجاب.

أنت لن تتحمل بحال مثل ذلك المشوار لاقتناص قطعة أرض بهذه الطريقة فأمامنا أرض واسعة علينا أن نقطعها. ثم أردف موجهًا كلامه لزوجته ورأسه ناحية باب الكوخ: *يا امرأة اهتمي بشؤون الكاهن لأرى ما يمكن عمله لتوفير عربة نقله".

أوسع السيد جونز خطواته كما لو كان ذاهبًا في مهمة تخصه وشأن يعنيه واندفع مسرعًا كسرب نحل فقطع البراري وعبر نهرًا وأيكة حتى توقف قبالة كوخ عائلي يذكرنا بأكواخ نيو إنغلند. على مبعده من السكن كان ثمة هكتارات وهكتارات من الأرض المحروثة المفلحة المحاطة بسياج متين وثمة ماشية وفيرة من ذوات الصوف الأملس ترتعي في المرعى الخصيب تلبي احتياجات أصحابها الضرورية وبياع الفائض في السوق. توقف السيد جونز لا ليطرق الباب بل ليدخل من باب البيت ويسأل سيدة كانت جالسة تخبط ثوبًا:

هل زوجك هنا سيدة لنكولن؟.

أجل إنه في الغرفة الأخرى سأناديه.

لم تمر لحظة إلا وظهر صاحب المزرعة ذو البنية القوية النشيطة.

قال بنبرة غليظة: *كيف حالك جونز؟*.

*أوه أنا بخير حال لقد جئتك في مهمة تخص كاهنك الذي دعوته ليقم بيننا. إنه يريد بقعة بيني فوقها كوخًا -مثل بقيتنا كما أظن- وقد أخبره سميث أن يعاين قطعة الأرض المربعة أعلى الطريق والتي تبعد عن أرض كلارك نحو الميل والنصف وأنت تعرف المكان. كل ما أطلبه أن تأتي بعربتك فنقله مكرمًا ولا تدعه ينهك ساقيه في المشي والتجوال فلا يستطيع بعدها أن يعظنا نحن الخطاة يوم الأحد القادم. كان السيد لنكولن أول من حث المبشرين على تقاسم قطعة الأرض معه ولم يفقه أحد في التعهد بتقديم مساعدات عينية. كان السيد لنكولن مخلصًا في وعوده وكان رجلًا كريمًا بحق لكنه كان شخصًا مهملاً إلى أبعد حد. لقد نما إلى علمه أن الكاهن في طريقه لطلب قطعة أرض لكن لم يخطر بباله حتى الآن أن الواعظ لا يملك وسيلة للتنقل غير قدميه وأن قطع البراري مشيًا أمر مرهق منهك فضلًا عن كونه مضيعة للوقت. قال لنكولن وهو يلطم كتف زائره بقوة:

*أنا سعيد باهتمامك يا جونز وحتى أشجعك أكثر فسوف أطمم الفرسين في الحال ويمكنك أخذهما. وسرعان ما شدّ الفرسان رشيقيًا الخطو إلى العربة وانطلق الصياد وصحبته الكاهن دون إبطاء ليريه حدود قطعة الأرض المختارة. كان الموقع ممتازًا كالكثير من بقاع مملكة البراري وقد حرص الصياد أن يطلع الكاهن على مزاياها. كانت قطعة الأرض تحتل مكانها فوق هضبة معتدلة الارتفاع تعلوها أيكة صغيرة فائقة الجمال تطل من جميع الاتجاهات على بقية الأرض. كانت

أزهار الخريف كثيرة الألوان المتفتحة تتمايل منحنية فوق الحشائش الطويلة في انبثاق طبيعي من
بواطن الرابية الصغيرة شاقة طريقها حتى تختفي في البعيد وكانت الشمس ترسل أشعتها عبر
سماء كستها سحب ناعمة كندف الصوف. فكيف يتأتى لواعظ ذي ذوق سليم وحب راسخ للجمال
أن يقاوم جاذبية المشهد الطاغية؟

هتف الكاهن: *يا له من مشهد ساحر! لسوف أبني كوشي هنا بجوار هذا النبع وستبقى أرضي
المزروعة تحت عيني على الدوام".

كان الصياد يتوقع رد فعله فقال بتوجس:

لن يكون هذا المكان بالصورة التي تتخيلها.

سأل الكاهن وهو يبتسم: *لم لا؟*.

سأل الصياد: *هل تفكر في اقتناء حصان؟*.

*لا، لا قبل لي بذلك".

*إذا كيف ستحضر إلى مقاصدك وكيف ستعود المرضى وتصل إلى بيوت المتوفين وأنت في هذا
المكان؟ كما أنك لن تستطيع فلاحه الأرض كما ينبغي وهذه الأرض تبدو جيدة للغاية كمرج يملكه
أحد السادة الفضلاء: تلك واحدة من هبات الرب يا جارنا لكنها لم تخلق ليعيش عليها أمثالك. ألا
تنتظر حضور لقاءات مسائية؟ أنت لا يمكنك عقدها هنا حيث لا يعيش بشر عدا دجاج البراري
وفي الشتاء قد يفد ذئب أو ذئبان ضلوا طريقهم. أنت رجل ذو اختصاص ويلزمك أن تكون وسط
رعيتك وألا تنتحي جانباً وكأنك تريد تجنب صحبة الناس".

أحدثت هذه العبارات الجريئة -التي وضحت الصورة ووضعت الأمور في نصابها- أثرها فقال
المبشر:

*أنت محق ولكن ماذا عليّ أن أفعل؟ لقد بينت لي هذه الخريطة أن قطع الأرض الخالية قليلة في
الجوار وأنا غير قادر على تدبير ثمن مزرعة مستصلحة كاملة الأركان فأسعار هذه المزارع فوق
طاقتي".

أنت لا تعني أنك ستقيم هنا في هذا المكان. أتعني ذلك؟.

هذا أمر لا مفر منه.

قال الصياد بغضب: *حسن صحيح أن جوزيف جونز امرؤ لا أخلاق له لكن إن لم يرك جوزيف
جونز قطعة أرض تناسبك تمامًا فلأرقد ميتاً كما ترقد هذه الخريطة ميتة*. استحث الصياد الكاهن
على اتخاذ مقعده بالعربة وقفل راجعاً بعض الشيء في الاتجاه الذي قدموا منه منتهجاً ممر عربات
قديم غير مطروق واقع إلى اليمين ظهر فجأة للعيان من بين أشجار غابة قريبة من أحد الأنهار
وعلى الضفة البعيدة منه شوهدت ماكينة ضخمة لنشر الخشب ورجال داخل المجرى يعملون على
تقوية وتدعيم أحد السدود.

قال الصياد: *هناك مركز جميع الأشياء، بقدر ما يهم من يقطنون في الجوار*. وأشار إلى مبنى صغير عبر النهر قائلاً: *ذلك هو المتجر وقبالته ثمة فندق وسوف يحتاج النصابون والمضاربون في الأراضي -المستوطنون هنا- إلى وجود واحد مثلك بينهم ليحيي ضمائرهم الميتة ويجلو الصدا عن عقولهم بترياق التذكير الناجع، كما يقول الكتاب المقدس حيث لا رجعة بعد القيامة وحيث الحساب الأخير في السماء!*. قال هذا وهو يشير بازدياد جلي إلى أعلى.

قال المبشر: *لكن الأخ سميث أخبرني بأن جميع الأراضي القريبة من البلدة قد تم وضع اليد عليها*.

الأخ سميث. من هو الأخ سميث؟ أنا أعرف تشارلز سميث وإن كنت تشاركه الأخوية فأنا لا أشاركه إياها. وإن كنت قدمت لتتقذ أرواح الناس، كما أتوقع منك أن تفعل فلا يجب أن تشاركه الأخوية إلا إن تاب وأناب، وأنا لا أقول بأنه لن يفعل. والآن دعني أقدمك لبيتك المستقبلي إن استوطنت هذه المنطقة. هناك البلدة حيث نحن الآن. ثم وضع طرف خنصره على المكان الموضح بالخريطة. *وانظر الآن تر تلك الهكتارات الثمانية التي تمثل الميدان الهابط حتى موضع البلدة يشقه النهج الرئيس ما يضيف إلى رونق البلدة جمالاً فوق جمال. وعبر هذا النهج*. واصل كلامه بحماسة: *ستمر حتماً كل الرحلات إلى الوجهات الهامة الأبعد. وبمرور الزمن وعندما يشتد عود الهجرة والمهاجرين سيصبح في مقدور صاحب تلك القطعة من الأرض الحصول على أركان وزوايا جانبية يبيعها للناس. دعني أريك كيف تبدو على الأرض*. عبر الصياد الجسر بالعربة ثم تخطى موضع النهج المستقبلي وأوقف الخيل عند بقعة مرتفعة ارتفاعاً قليلاً تمثل أقرب نقطة في نطاق الثمانية هكتاراً. واصل كلامه مشيراً إلى الخريطة مجدداً: *هناك يمكنك أن ترى مجمل الثمانية هكتاراً تمتد طولياً من البلدة. وعبرها يجري رافد نهر هابطاً حيث تنمو أشجار الخوخ والبرقوق والزيفون ومن وراء ذلك ثمة عشرة هكتارات مسيجة من أخصب الأراضي المنخفضة المعشوشبة بمحاذاة النهر التي تغمرها الشمس بأشعتها طول الوقت ثم يأتي الدور على ثلاثين هكتاراً من الغابات البكر بأشجارها عظيمة النفع. هنا يقع محل بنايتك بالضبط حيث نقف الآن على مرأى من كل الناس وكل المسافرين، المتجر وماكينه النشر ومكتب البريد وما سوى ذلك في متناولك وفي متناول أي اجتماعات دينية، عشرة هكتارات خصبة كأخصب ما يكون ومتجانسة التربة على أفضل نحو، بوسعك حرثها وعزقها بأيسر الطرق وبأدنى جهد وسوف تدر عليك دخلاً يلبي احتياجاتك كافة علاوة على فائض يمكنك التصرف فيه بالبيع. وثمة خشب وقود في كل مكان حولك فلن تتطفئ لك مدفأة ولا موقد وإذا ما احتجت إلى التوسع في أرض مجاورة بالشفعة فليس عليك سوى أن تباع بعض أشجار الزيفون خاصتك لتعينك على دفع ثمن الأرض كلها كما تحدده الحكومة*.

أجاب المبشر حال انتهاء المستوطن من وصفه الطبوغرافي وكان لحظتها منكباً على الخريطة يتفحصها: *لكن هذه القطعة محجوزة باسم أحدهم كما تبين الخريطة*.

قال الصياد: *حسن ما اسم مالك الأرض المدون عندك بالخريطة*.

قال الكاهن وهو يقرأ الاسم: *هنري سيموندس*.

سأل الصياد: *أولاً تعرف من يكون هنري سيموندس هذا؟ إنه فتى غض بلغ التاسعة عشرة لتوه وبالطبع ليس بالغاً كفاية من ناحية العمر لكي يكون من حقه طلب الشفعة كما ينص القانون كما أنه لم يُقَم يوماً على هذه الأرض التي حجزها. كما أنه لا يوجد ثمة أثر لمسكن في المكان وينص القانون على وجوب وجود ما يشير إلى بناء مسكن حتى يثبت المستوطن أنه يقيم بالفعل في المكان. ذلك الاسم وهمي للتعمية. هذه أرض جيمس سميث وقد كان يعمل على مجمل الهكتارات العشرة المحاذية للنهر بحق الانتفاع المجاني وقد بات في متناوله أن يضع يده على هذه القطعة للحصول على ألواح الخشب المنشورة. هذه أرض ملك الحكومة وكل ما عليك أن تفعله أن تقيم فوقها كوخاً وتمضي في إجراءاتك وإن تدمر سميث أو اعترض فما عليك سوى أن ترسله إليّ".

أزعج هذا الاستبدال على حساب السيد سميث نفس كاهننا. كان من الجلي أن الموقع فرصة لا تعوض بالنسبة لشخص مثله كما أوضح مرشده صريح اللسان. صحيح أن ما فعله سميث بوضع يده على الأرض كان احتيالياً على القانون والحكومة ولو أنه امتلكها وفقاً للقانون ما استطاع أحد أن ينازعه حقه. لكن كاهننا ما جاء إلى الغرب ليحسن أوضاعه الدنيوية فقال للصياد:

ما قلته صحيح تماماً يا سيد جونز ولا شك عندي في صحته لكن الأرض ليست بغيتي ومرادي حتى أقوم بفعل الخير للناس وليس خليقاً بمثلي أن يفعل ما من شأنه جرح مشاعر أي إنسان.

قال المستوطن بنبرة من خاب أمه: *الأمر كما توقعت بالضبط وكان عليّ أن أعرف أنك من طينة من ينتمون قلباً وقلباً لملكوت السموات لا لعالمنا الأرضي هذا. لكنك الآن واقف فوق أرض إدموند أليس كذلك؟ حسن ليس بيننا وبين كوخه سوى مسافة قصيرة وعليّ أن أعيد العربة إليه*. ثم فكر للحظة وقال: *إن مررت بالسد في طريقك ستجد بالمر هناك. إنه مسيحي إن كان ثمة مسيحيون في هذه البقاع ويمكنك الاعتماد عليه وإن فضلت الحديث معه حول تلك الهكتارات الثمانية فليس ثمة بأس على الإطلاق*.

شكر الكاهن المستوطن على خدماته وفيما كان الأخير يقود العربة مبتعداً قال له: *زرني مجدداً إن احتجت شيئاً أقدر عليه*.

وفيما اتجه المبشر صوب السد، رأى مساحي الأراضي يؤدون عملهم فيقسمون البلدة إلى أقسام فتمهل ليعاود النظر إلى الموقع، فإذا بالشجيرات الصغيرة التي تنمو في ظل الأشجار الكبيرة قد أزيلت تماماً. وبانت البقعة المجرودة وقد حدها النهر من جانب بينما حدتها الغابة من جانب آخر بينما تتبسط البراري الجرداء مترامية على الجانبين وكأن الطبيعة قد رصدتها لتصبح مركز تجارة وأعمال.

جاءه من جانبه صوت يقول: *ما رأيك في مخطط البلدة؟*.

هتف الواعظ: *إنه رائع!* وإذ التفت تجاه مصدر الصوت رأى السيد بالمر.

كان السيد بالمر رجلاً متوسط الجرم يرتدي قميصاً ذا أكمام وبنطلوناً أزرق فضفاضاً ذا حمالتين ويعتمر فوق رأسه قبعة سوداء حريرية تشي كسراتها بأنها تستخدم أحياناً كمقعدة مثلما تستخدم كغطاء رأس. من تحت القبعة تطل عليك عينان زرقاوان حادثان وتنتهي حدود الوجه بذقن حليق

أجرد، أمارات شخصية دائبة العمل مقتصدة في إنفاقها تدخر من المال ما وسعها ذلك لكنها مع ذلك شخصية أمينة مخلصه بعيدة عن الأنانية وحب الذات. كان السيد بالمر بحق هو ما يتركه في نفس عارفه للوهلة الأولى الناصح الأمين والصديق الصدوق واليد الممدودة بالعون والخير قولاً وعملاً إذا ما قصدته. ليس ثمة في المستوطنة من يفوقه احتراماً، احتراماً لا ينبع من مظهره الشخصي كما كان واضحاً جلياً فالرجل كان يكن احتقاراً بالغاً لكل تفاخر أو تباه باللباس والمقتنيات، فقط كان يلبس ويفتني ما يتفق مع سلوكه القويم وباطنه السليم. كان السيد بالمر رجلاً عازباً يناهز الأربعين من العمر ونظراً لسجاياه وخصاله المسيحية من لطف العشرة والإنفاق على الضرورات، ويقال إنه دائم الإنفاق على الأمهات والبنات الصالحات للزواج وأنه متبسط فكه ربح الصدر في تعامله مع الرجال وأنه استطاع الهرب من كل مصيدة زواج نصبت له وأنه مازح كبير يرد على النكتة بنكتة.

سأل بالمر: *أجئت بحثاً عن أرض؟*

قص عليه المبشر وقائع اليوم وما قاله المستوطن جونز عن السيد سميث والثمانين هكتاراً.

قال السيد بالمر: *لقد نطق جونز بالحق كل الحق وكان ناصحاً أميناً وليس من مصلحتك أن يحدث بينك وبين سميث شجار ولو تركت الأمر لي لدبرته لك بحيث تضع يدك على الثمانين هكتاراً في نهاية الأمر دون ضغائن أو أحقاد. وما علينا إلا أن نقدم لسميث شيئاً لا أن نتشاجر معه.*

سأل المبشر: *أليس سميث عضواً في كنيسة؟*

أجاب بالمر: *نحن لا نعرفه حق المعرفة بعد لكن لو أقمنا كنيسة هنا فعليه أن يبرز شهادة عضوية حتى ينضم لها وأغلب ظني أنه لن يفعل ذلك أبداً. قدم له ما استطعت من الخير لكن لا تقرط في الثقة به.*

الفصل السادس

حكاية السيدة جونز - الذئب الرمادي

ذات يوم سأل توم والدته: *هل الشرق الذي أتيت منه مختلف اختلافاً كلياً عن غربنا هذا؟*
تساءلت: *من أي وجهة تقصد؟*

أجاب متردداً: *أوه من جهة وجود أناس فقراء جهلاء أم.. أم..*

قالت الأم برزانة مكملة جملته المبتورة: *أمثالنا ليس هذا ما كنت ستقوله* .

أجاب توم قائلاً وقد بدا عليه الاضطراب: *أنا لا أحسبكما أبي وأنت جاهلين، لكن* .

*أنا أفهم ما تعنيه توم. لا فحيث ولدنا -أبوك وأنا- وحيث تزوجنا كان الريف يعج بالناس وكان سائر الأطفال يقصدون المدارس ولم يكن ثمة أكواخ كالكوخ الذي نعيش فيه الآن، وإنما كانت هناك منازل جميلة ذات طرز مختلفة بعضها خشبي وبعضها من الحجارة والطوب".

ألم يكن ثمة فقراء بينكم؟

*أجل كان ثمة الكثيرون كما هي الحال هنا -كانت أعدادهم كبيرة بالمدن الكبيرة- وكانت حياتهم جد صعبة".

أكان أهلك وأهل أبي جد فقراء؟

لا كانت أحوالهم معقولة ومريحة .

إذا لم أتيتم إلى الغرب ولماذا نحيا كما نحيا الآن؟

ولما لم ترد على سؤاله في الحال استغرق الفتى في خواطره ناسياً السؤال الذي طرحه على الأم. كثيراً ما قلب توم الأمر فكراً وبحثاً، لكنه ما جرؤ على الكلام عنه علناً. وحديثه مع أمه بعد حادثة البندقية والجرح الذي أصابه أظهر له مدى حمق خطته في هجر البيت سراً، لكن ضيقه بقدره ونصيبيته من الحياة نما كلما تقدم به العمر وزاد قوة بقدر تضاعف قوته. كان قبول أمه العيش هنا كل تلك السنين الطوال أمراً يحيره ولغزاً كبيراً بحاجة لفض أختامه. كان إذا تطلع حوله لا يجد سوى هذا السكن الخشبي الكالح المتصدع وقد تشققت طينته اللاحمة وتكسرت حتى سقط فتاتها فوق الأرض، مخلفاً فجوات بين ألواح الخشب تمر من خلالها الريح وتتسرب من بينها مياه الأمطار. ولا تقع عينه سوى على الكرسي الوحيد المتداعي المزروع والدكك والصناديق البدائية التي توضع فوقها وبداخلها كل متطلبات العيش وأشباه أسرة مصنوعة من ألواح خشب السنديان، وقد ثبتت بالمسامير من الرأس والجوانب في الحيطان وعمود خشبي دون أي تشذيب يدعم الركن المتداعي. ثم ثمة الفرن الصديء المشروخ والمدخنة التي تسرب الدخان. ثم يعود توم فينظر إلى أمه التي يبدو عليها نبل الأصل بالرغم من رداءة ثوبها وكثرة اتساخه، وكلما اكتشف مدى التعارض والتناقض بين حالها قبل المجيء إلى هنا وبعده كلما أخذته الدهشة وسيطر عليه التعجب.

عندما كان أصغر سنًا لاحظت مدى التنافر بين ما عليه أمه من دماثة وكياسة وبين الواقع البائس الذي تعيش في ظله، وأحيانًا كان يخطر ببالي أن عليه أن يتناسى ويتجاهل الأمر، لكن هيهات فقد كان جد تعيس جراء التفكير في ذلك. كم أفض ذلك مضجعه وما أشبهه بعقاب صغير حبيس في أحد الأقفاص وهو يقرب الموضوع في رأسه ليل نهار وكيف لا يتسنى لأحد أن يخرج ذاك الملاك الحارس مما هو فيه من عنق وشقاء، تلك عين الأم الساهرة التي لا تفتأ تبذل المستحيل رعاية وحنوًا لكل من يعيشون تحت سقف هذا الكوخ الكئيب لا تشكو تعبًا ولا تتذمر من شيء.

أما والده ونهجه في الحياة فقد بدا له أمره غامضًا غريبًا شأنه في ذلك شأن الأم. أهو راض قانع بحياة التجوال التي دأب عليها طوال عمره؟ أو لم يفكر بتاتًا في مدى الحرمان والبؤس اللذين يجثمان على حياة أولاده وزوجته؟ أفلم تمر بهما بعض الأيام السعيدة والأوقات الهائلة؟ وهل قدر عليهما ألا يرياها مستقبلاً؟ وهل قدر عليه أن تمضي حياته على هذا النحو من التضحية بكل تطلع بازغ وكل توق أصيل في مقابل أحقر طعام وأرث ثياب وأزرى مأوى ومدارك لا تتسع وعقل لا يتطور؟

كانت توم جالسًا على طرف أحد الصناديق يقشر أغلفة كيزان الذرة بظفر منجل مكسور، كان يعمل ويفكر طيلة المساء فيما كان إخوته نائمين ولا أحد يلاحظ استغراقه هذا في التفكير سوى العين الساهرة أبدًا، عين الأم.

هتفت في أعماق نفسه *أنا لن أصبر على ذلك* وبدون شعور منه وتأكيديًا لنداء نفسه الداخلي سحب بقوة كبيرة غلاف كوز الذرة الذي يقشره مستخدمًا نصل المنجل الحاد. وما هي إلا لحظة وثب بعدها واقفًا على قدميه وهو يصرخ من الألم وقد وضع إصبعه في فمه وركل كرسيه بعيدًا مبعثرًا محتويات الصندوق التي راحت تتدحرج فوق أرضية المكان وتسكن الشقوق المفتوحة.

قال وقد انقبضت والتوت أسارير وجهه ألمًا ونكدًا لم ينالا من وسامته وحسن مرآه: *أوه لقد كسخت إصبعي بفضاعة!*

سألته الأم وهي تعلم سر ما حدث علم اليقين: *كيف حدث ما حدث يا بني؟*

كيف، الأمر كما ترى كنت أفكر في شيء فدفعت إصبعي مكان عرناس الذرة فوق نصل المنجل.

أعدت السيدة جونز الجزء المنفصل الدامي من لحم الإصبع إلى حيث كان من طرفه الذي ظل معلقًا بشيء من الجلد ثم وضعت ضمادة وعصبت الجرح.

ثم عمدت بعد ذلك إلى كنس حبات الذرة وتكديسها على هيئة كومة وأعدتها داخل الصندوق ثم جلست على أحد المقاعد الصغيرة الخالية وقالت:

*لا عليك توم، لا تفرط المزيد الآن وعندني شيء أقوله لك. لقد سألتني لماذا أتينا إلى الغرب. أعتقد أنه حان الوقت لتعرف شيئًا من تاريخنا وحكايتنا فقد يعينك هذا على تحديد الوجهة التي تريدها والعمل الذي ستقوم به. لقد ولدنا -أبوك وأنا- في كونيتيكت بنفس البلدة. وقد ارتدنا في طفولتنا

الباكرة نفس المدرسة سويًا وكثيرًا ما لعبنا معًا. عائلتنا كانتا عائلتين محترمتين، كانت عائلة والدك محترمة لكنها لم تكن تملك بمقدار ما كانت عائلتي تملك. كان أبوك فتى لامعًا واعدًا يستوعب ما يتعلمه بسرعة فائقة وكان ذا قلب حنون عطوف وذا ضمير حي. لم أره أبدًا وهو يمارس الشرور الصغيرة التي يقوم بها الأطفال في المدارس عادة. كان شديد الحساسية مرهف الشعور للغاية لكنه في الوقت نفسه يقدر معنى وقيمة الشرف تقديرًا عاليًا ويحتقر كل أشكال الزيف والخداع. وقد ارتبطت به سرًا عندما أصبحت في السابعة عشرة. لم يكن والداي يعلمان بالأمر ولا أي من آل البيت عدا أخت تصغرنى أمنتها على سري. وبعد كل هذه السنين أعتقد أنه كان من الأفضل بالنسبة للجميع ألا أخفي شيئًا منذ البداية وأن أصارح أُمي بحقيقة اختياري. لكنني كنت أعرف أنه لن يروق لهم كزوج لي. كانوا يطمحون إلى أن أحظى بزيجة مرموقة أي الزواج برجل ثري وأن أعيش حياة ترف ورفعة. وكان والدك يافعًا بعد وحكمت عليه الظروف بأن يكدح كدحًا لكسب معاشه. وكان يعرف رأيهم في ما يخص زواجي ويرى أن لي مطلق الحرية في فك ارتباطنا إن ساورني الندم، فقلل من رؤيتي وقطع أي اتصال معي. لم تتأثر نظرتي إليه بذلك لأنني كنت أعرف حقيقة دوافعه. وعندما بلغ السن القانونية توفي والده تاركًا له إرثًا قيمته ألف دولار نقدًا. وبهذا المبلغ دخل والدك دنيا الأعمال، في مدينة مجاورة، تحدوه آمال كبيرة. ولن أنسى ما حييت مدى جديته في الكلام ذات مساء في مقابلة لنا معًا كانت خاتمة ارتباطنا وذهب كل في سبيله. قال لي: *ماري سأصبح رجلًا غنيًا لقد صممت على ذلك ولن يخجل أبوك بعدها من اتخاذي صهرًا وسوف آتي لأطلب يدك*.

كان نبلاً منه وشجاعة تحسب له أن يتكلم بهذه الصورة لكن قلبي كان مليئًا بالوساوس والهواجس فأجبتة قائلة:

لكن ماذا لو لم تتجح؟

أجابني بقوة وعنف: *لسوف أنجح. لو أراد إنسان النجاح فسوف يبلغه*.

آه كم كان حمقًا وإثمًا أن يقدر والدي المال والمظاهر ولكم آلمي ذلك! وفي المقابل كم كان تهورًا وتجروًا من شاب يافع دفعه كبرياء الآخرين إلى اعتناق تفديس المال وحب المظاهر كمبدأ حياة وعقيدة عيش، وأن يسعى بكل ما أوتي من قوة لتكوين ثروة حتى يكون بوسعه طلب يدي من والدي وأن يكون نداء لهم. وهكذا يرضي كبرياءه الجريحة! هذا ما توصلت إليه الآن لا وقتها. ازدهرت أحوال جوزيف لبعض الوقت وكان كلما وضع يده على شيء أو عقد صفقة تأتيه الأرباح سعيًا وعندما تقابلنا ثانية كان واثقًا من نفسه تداعبه آمال كبار.

كان يردد: *دعي أباك المحترم يزدريني الآن إن استطاع، لن يمكنه ذلك بعد الآن ولن يستمر في فعل ذلك بعد اليوم*.

كان قد مر عليه في دنيا الأعمال عام عندما جاءه رجل متعلم مثقف ذو مكانة محترمة يعرض عليه مشاركته وحدثني جوزيف عن ذلك فقلت له:

*إنك تبلي بلاءً حسنًا حتى الآن فلم لا تمضي في طريقك وحدك؟ لطالما سمعت الناس تقول إن

الشراكة هي أسوأ سفينة يبحر المرء على متنها".

قال جوزيف: *حسن ثمة ما يرييني في شخصه وأعتقد أنني لن أشاركة".

لكن لما كان الرجل قد جاء تحفه هالة من التقدير لشخصه ولقدراته ونفوده علاوة على الأمل في تعظيم الثروة، فقد تمت الشراكة في نهاية المطاف. كان السيد جاك الشريك يكبر أباك في العمر وكان رجلاً جريئاً مملوءاً بالنشاط والحيوية. ذا جبهة شامخة وشعر خفيف يحمل على الدوام عصا، وكان امرأ مرحاً ذا طبيعة جد سمة مولعاً بحكي القصص لكنه كان حريصاً في مجال التجارة والأعمال حتى الأثرة. قابلته في إحدى المناسبات وكان ثمة شيء في تقليبه لعينيه، تعبيراً يجمع في داخله القلق والاهتزاز والأناية ما حدا بي للخوف منه. كان جوزيف فخوراً بمعرفته، وإذ تذكر تخوفي القديم سألني عن رأيي فيه. وسوف أظل أذكر الإجابة التي وردت على لساني لحظتها:

ألم تقل بأنه متدين؟

قال: *هذا ما يبدو عليه*.

أخشى أن يكون هذا مجرد قناع يخفي به حقيقته. لو كان مسيحياً حقاً فما الذي أضفته عليه نعمة الإيمان الحقيقي؟ لكن إن لم أخطئ في نظرتي إليه فإنه امرؤ خادع مضلل غشاش.

لكن الأمور سارت على ما يرام دون أن يعكر صفوها شيء وكلما قابلني جوزيف كان يقول لي:

شريكي مولع بتتبع الفضائح إلى حد كبير. ميل إلى اغتياب الناس وانتقادهم لكن ما لا أشك فيه هو أمانته.

ذات صباح بعد مرور بضعة أشهر على تلك المحادثة تصادف أن قابلت جوزيف وهو في طريقه للمكتب وكان شاحباً قلقاً وقال: *أوه لقد أمعنت التفكير كما لم يحدث معي من قبل. بعض الناس يشكون من الأرق ولم أشك الأرق في حياتي قبل الليلة الفائتة. فقد أويت لفراشي كالمعتاد وأنا هانئ البال لكنني لم أستطع النوم، لم أكن متعباً بحال وكنت قد تناولت عشاء خفيفاً فلم أجد مبرراً لهذا الأرق المفاجئ. تقلبت في فراشي ظهرًا لبطن وأغلقت عيني لكن بلا طائل. ثم كان أن وضعت إصبعي فوق رسغي متحسساً نبضي عسى أن يدخلني الاستغراق في العدى في غفوة أو يدفع بالوسن إلى جفوني ومن ثم أدخل في النوم، لكن هيهات إذ فجأة شخص شريكي أمام بصيرتي وبدا الأمر حقيقياً، وقد صاحب ظهوره توارد ملاحظات صغيرة عليه وأعمال وأقوال أخذت تتضم واحدة إثر أخرى كحلقات في سلسلة منتظمة وكلها تنطق بحقيقة واحدة، بالرغم من ممانعتي الداخلية، إنه امرؤ مخادع مضلل غشاش".

كان قلقاً للغاية وهرع إلى البلدة. وكان السيد جاك قد سبقه إلى هناك كما علمت بعد ذلك واستقبله بابتسامته الرقيقة وصنوف المداهنات، وللغرابية لم تمض ساعة زمن حتى كان قد محا أي أثر للشك في نفس جوزيف. ومضت الأحوال على هذه الوتيرة بضعة أسابيع حتى مر جوزيف بليلة مؤرقة كسابقتها وبهاتف داخلي يلح عليه ويخبره مجدداً بزيف شخصية شريكه جاك. وفي الليلة التالية وبعد أن أغلق المكتب عمد جوزيف إلى فحص ومراجعة دفاتر الحسابات الموكلة لشريكه طبقاً

لاتفاق الشراكة، واكتشف بعضًا من البيانات المحرفة التي احتال شريكه بمهارة ودهاء على تبديلها بخط يده بحيث يصعب كشفها. وبالمزيد من التحري والتدقيق تبين أن جاك كان يسرق البضاعة المخزونة. وما إن علم جاك أن أمره افترض حتى سقطت كل أفتحة الأدب والاحترام وتحول إلى وحش هائج فقام جوزيف بالحجز على أثاث بيته، لكنه اكتشف أن جاك قام بتحويل ملكية هذا الأثاث إلى ابنه الذي كان يعمل محامياً في المدينة. وفي الوقت نفسه عمد هذا المحتال إلى الفرار بكل غنيمته الحرام مخلفاً وراءه الشركة ونشاطها في حالة يرثى لها. ومثلما يحدث في هكذا أحوال، تتدهور فيها أوضاع امرئ نظيف اليد نقي السيرة كل ذنبه أن وثق بمن لا يستأهل الثقة وسلم الزمام لمن لا يستحق، ظهر البعض من الشرفاء والأوفياء الذين وقفوا إلى جانبه وأزروه في محنته. حاول جوزيف تسوية حساباته لكن دون جدوى. فقد كانت الأمور تسير على ما يرام إلى أن فعلها الشريك الغشاش فسرق ما سرق واختلس ما اختلس، ولو أن الدائنين أبدوا قدرًا من المرونة والتساهل لأمكنه العودة إلى السوق والوقوف مرة أخرى على قدميه وازدهار الأحوال من جديد. لكن الدائنين واحدهم تلو الآخر انقضوا عليه بكل ضراوة فإن أفلت من ورطة لاحقته أخريات حتى أجهزوا عليه وحل بساحته الخراب المطبق. كان وقع ذلك الخسران رهيباً على نفس جوزيف فكان يجلس بجوار المدفأة بالمنزل يوماً بعد يوم وأسبوعاً تلو أسبوع ورأسه مدفون بين يديه وقد أطبق عليه اليأس من كل جانب. ولو أن بعض الأصدقاء الرحماء التقوا حوله وأزروه وأوقفوه على قدميه مجدداً لكان ذلك فضلاً ومنة لا يقدران! لكن أولئك الذين طالما أمدهم بالمال حال اليسر والرخاء كانوا أول من قلبوا له ظهر المجن وأداروا له ظهورهم عند العسر والاحتياج.

بدأ جوزيف يستفيق من هول الصدمة شيئاً فشيئاً وبدأ يبحث مجدداً عن عمل، لكن دائنيه القساة عديمي التمييز كانوا له بالمرصاد ينتظرون إلى أن يتقاضى أي أجور فيستولون عليها دون رحمة. لذا اضطر للرحيل*.

قاطعها توم قائلاً: *استيلاء. كيف ذلك؟*

قالت الأم: *لأنه لو كان أحد مديناً بمال لأحد فمن حق الدائن وضع اليد على أجوره ومستحقاته أيًا كانت. وعندما يقدم العامل بيان عمله إلى صاحب العمل يكتشف أنه لا يمكنه منحه أجره المستحق. ويستمر الأمر على هذا المنوال، ولو ذهب إلى آخر الدنيا ليعمل ويكسب عيشه فالمحامون الدهاة لا يفتؤون يلاحقونه أينما رحل وحيثما حل، وقد تنقل أبوك حتى نال من التعب واليأس فأتي إليّ يوماً ما وقال:

*ماري، الكلاب تتعقبني من الصباح إلى الليل، يقتفون أثري حيثما ذهبت ولا يسمحون لي بفرصة أستعيد بها أموالي. لسوف أمضي نحو الغرب وليس من الصواب في شيء أن تظلي مرتبطة بي بعد الآن لأنني ومن ناحيتي قد لا أكون قادرًا على الوفاء بهذا العهد. لقد أحبط بي هنا في الشرق ولا مهرب أمامي والأسوأ من ذلك أنني فقدت شجاعتي وطموحي، لقد جئت لأودعك".

قلت له: *لو أنك بت لا تهتم لأمري ولا أعني لك شيئاً فصارحني. لقد كافحت كفاحاً مريراً وكنت تستأهل مآلاً أفضل بكثير وليس ذنبك أنك فشلت في المحاولة. وإن كان لا بد من الذهاب إلى الغرب فلن تكون وحدك، سوف أذهب معك وسوف أمضي هذه الليلة بعينها إلى والدي فأخبرهما

بأمر ارتباطنا وأطلب موافقتها على زواجنا".

هز رأسه. لكن شعوري بأنني كنت جبانة عندما تأخرت في إعلام والدي بالأمر مهما كانت العواقب، حدا بي للذهاب إليهما ومصارحتهما بالحقيقة كلها بكلمات صريحة موجزة دون إسهاب أو إطناب، وقد أدهشتني هذه الجراءة حينها. كان أبي رجلاً حاد الطباع سريع الغضب مستبداً متعجرفاً، ووالدتي امرأة دنيوية حتى النخاع. لك أن تتخيل رد الفعل. لكنني أحسست بأن واجبي يناديني، فتزوجنا دون احتفال أو ما شابه. كانت لدي بعض نقود قليلة جمعناها مع بعض ما كان قد ادخره أبوك من نقود واتخذنا طريقنا نحو الغرب. لكن ماذا هناك؟*. توقفت السيدة جونز عن القص لدن التقاطها صوتاً غريباً.

كانت صرخة طويلة مرعبة ترددت أصداؤها في سكون الليل الجاثم على القفار الموحشة في البراري، كانت صرخة فظيعة للغاية. أسرع توم وأمه متجهين ناحية النافذة فشاهدا وعلاً ضخماً يرتفع قرناه عاليًا ينهب الأرض بأقصى سرعة يلاحقه كائنان لا يبينان جراء الظلام الدامس بغية افتراسه.

قال توم: *هذا صوت الذئب الرمادي يطارد غزالاً. لكم تمنيت أن يكون عندي بندقية! لاستطعت وقتها أن أردى أحدهما بمنتهى اليسر فيما هما منطلقان داخل الغابات التي تحف النهر يلاحقان فريستهما ويطلقان ما يطلقان من عواء قصير سريع.*

قالت السيدة جونز وهي تتنهد ثم واصلت حكايتها: *أتمنى أن يتمكن هذا المخلوق المسكين من الهرب. نعود إلى ما كنت أحكيه فقد لاحظت بعد وقت ليس بالطويل من رحيلنا أن مشكلات عمل والدك قد أحدثت تغييراً مخيفاً في شخصيته، فقد خلفت داخله اشمزازاً راسخاً من المجتمع والناس اللذين بقي أثرهما في نفسه حتى بعد الرحيل والانقطاع عن المجتمع والناس، فحيثما ذهبنا كان القلق والتوجس يلازمانه وهذا هو سر حياة الترحال التي يعيشها وهذا هو السبب في أنني لا أقدر على الشكوى من أي تغييرات تطرأ على مسيرتنا الصعبة المنقلبة كعائلة".

كان توم الذي أنصت ملياً لهذا الفصل الجديد من تاريخ عائلته قد جاشت أحاسيسه واغرورقت عيناه بالدموع فسأل والدته بصوت مرتجف النبرات:

أماه، أتعقدين بأن أبي قادر على تخطي هذا الفصل من حياته؟.

أجابته قائلة: *توم، إن أباك صاحب قلب نقي وعقل راجح وأعتقد أن ثمة خيراً كبيراً سيأتي من وراء هذه التجربة الطويلة، وهو منجذب بقوة إلى المبشر والسيد بايسون يفهمه أكثر من أي شخص آخر، وأنا أدعو الرب أن يكون هذا التعارف فاتحة خير عميم بالنسبة له*. ثم أضافت: *واعلم يا توم أنني ما حكيت لك كل ذلك إلا لتجد مبرراً جديداً لعدم التعجل في هجر أبيك وأملك. ثمة فقرة في الكتاب المقدس أسترجعها وأفكر فيها كثيراً، وهي فقرة تتحدث إلينا عن الأمل والصبر الجميل لنيل خلاص الرب. لقد كانت غلطة أبيك عندما انغمس في التجارة أنه كان متعجلاً في إنفاذ إرادته الخاصة وهذا هو خطأ جميع الشباب الغض، فكلهم متعطشون للنجاح وهم يندفعون إلى معمعة الحياة وصراع العيش دون انتظار للتسلح بدرع الإيمان. إن ما ينقصهم، يا بني، عند

اعتزائمهم أمرًا وشروعهم في شيء هو المرشد والمعين الذي لا يضل ولا يخطئ ولا يتخلى عنهم
أبدًا. كان ثمة شيخ في بلدتنا تعودت على سماعه يقول: *لا تحاول أبدًا فتح باب العناية الإلهية
بالقوة*. وأنا أريدك أن تنتظر في صبر جميل حتى يفتح الرب بابك لك وبعدها لا تخش المضي
قدمًا".

الفصل السابع

يوم سبت في البراري

مقتطفات من يوميات المبشر

بالأمس قمت بأداء عظتي الأولى في أحد الأكواخ. عندما استيقظت في الصباح الباكر ونظرت عبر النافذة الصغيرة التي تطل مباشرة رأس السرير وأنا راقد في العلية متواضعة الحال واطئة السقف، بدا لي العالم في الخارج جديداً كل الجدة. عوضاً عن الشوارع الضيقة الصاخبة والأبنية المزدهمة بساكنيها في المدينة الشرقية، استقرت عيناى على حقل أخضر شاسع يمتد ليطبق الأفق في البعيد ويرين عليه صمت عميق يضاعف من عمقه سكوناً وسكينة ربانيين يختص بهما يوم السبت.

كان مضيبي قد قدم كوخه الخاص لإقامة الخدمة الدينية النهارية. وكان ابنه الشاب اليافع قوي البنية البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً والمتمرس بحياة الارتياح والكشف، قد طوف في كل جهة للإعلان عن الاجتماع الديني. وكان وثقاً من حضور عدد كبير من المصلين. ساورتني بعض الهواجس بخصوص الأعمال التي يتوجب علي القيام بها اليوم لأنني كنت قد أدمنت استخدام العظمت المكتوبة مسبقاً لكن هنا وداخل كوخ وأمام جمهور معين كان اللجوء إلى نص مكتوب أمراً مستبعداً وعلى الأقل في هذه المرة لا بد لي من الاعتماد على كرم ولطف المسيح وأن أتكلم بما ينطقني به الروح القدس. كان مكتبي ركناً من العلية ومكتبي لا تعدو نسخة جيب من الكتاب المقدس.

هتقت وقد غمرتني سعادة ممزوجة بالدهشة: *من أين أتى كل هؤلاء الناس؟* فقبل ساعة من الوقت المضروب للعبادة تواصل قدوم الرجال والنساء والأطفال، منهم المترجلون ومنهم من استقل عربة تجرها الخيول أو عربة تجرها الثيران. ومن خلال الشقوق في أرضية العلية المفككة ألواحها دون تثبيت أو تسمير أمكنني أن أرى أفراد العائلات وهم منهمكون في تهيئة وسائل الجلوس استعداداً للاجتماع الموشك على الانعقاد. ألواح غير مكشوفة من خشب البلوط وضعت فوق جذوع شجر وفوق صناديق وسرعان ما غصت الحجرة بقطع ضخمة من الخشب ولم يبق مقعد شاغر في حين وقفت مجموعات من الرجال عند باب الحجرة أو اتكئوا على حاجز الباب. ليس ثمة شك في أن العبادة ستكون *كاملة العدد*. وليس من الصعب علي تخيل مقدار الجهد الذي بذله هؤلاء الرواد ليحضروا العبادة فبعضهم قد قطع أميالاً كثيرة سيراً على الأقدام وأغلبهم جاء من أماكن بعيدة نائية. وإن أنسى لا أنسى وجوههم الجادة التي قرأت فيها انتباهاً واهتماماً بالغين عندما رأوني أهبط السلم وأحرق فيهم وأقرأ ترنيمة الافتتاح، وكذا رؤوسهم الخاشعة المنحنية خلال الصلاة لا ولا كيف ران عليهم الصمت البليغ وأنا أتلو عليهم العبادة. ثمة امرأة كانت جالسة يحف بها أفراد أسرتها ظلت تبكي من أول تسميتي لنص العبادة حتى آخر كلمة فيها. كانت تبكي من الفرح لأنها مرة أخرى وبعد حرمان طال أمده من النعم الدينية المباركة تسنى لها أن تسمع كلمة الرب. كان مشهداً يستأهل يد وفرشاة فنان قدير ليصوره. ذلك الكوخ الغاص بممثلين لكل ولايات الاتحاد وقد تنوعت أردبتهم وثيابهم وتباينت أعمارهم، فثمة الرجال التقليديون ممن غزا الشيب

رؤوسهم إلى الرضع حديثي الولادة الذين تحتضنهم أذرع أمهاتهم. لم يكن ثمة آلة موسيقية فخمة هنا لتعزف نغماتها اللطيفة الحلوة ولا توافقاتها الكبيرة المكثفة، ولم يكن ثمة جوقة مدربة ولا معبد مكرس لعبادة الرب تتابع منه دقائق جرس السبب لترتفع صعودًا في أجواء السماء، ولا ممانشي مفروشة بالسجاد ولا * شموع طقسية ترسل أنوارها الشحيحة* ولا منحوتات أو تماثيل تمثل رموزًا وقصصًا مسيحية، ولا منبر وعظ ذا وسائد وثيرة. لكن وبالرغم من كل ذلك كنت واثقًا من حضور الروح القدس بيننا. ولما أوفينا على ختام العظة بترنيمة *ليتمجد الرب الذي يفيض علينا بالنعمة والبركات* التي غنيت لأجل الشيوخ المنة. ترنمنا بها كما لو كنا روحًا واحدة وصوتًا واحدًا، كانت النغمات الرائقة العذبة التي تصدر عن الأطفال تمتزج بالأصوات الأعمق للرجال والنساء وبدا المكان الرث المزري وكأنه بوابة السماء.

كانت خدمتي في المساء بمستوطنة صغيرة على مسافة أحد عشر ميلًا. كانت رحلة جميلة عبرنا خلالها الممانشي المفتوحة بين أشجار البلوط والبراري المتموجة حتى انتهينا إلى كوخ اختيار ليكون محل الاجتماع. كان مبنى مستطيل الشكل واطنًا ذا حجرة واحدة، لا تزال ألواح أخشاب بنائه تحتفظ بلحائها الأصلي وقد سدت الفجوات بينها بطين صلصال رشقته أيدي البنائين. استقبلني السيد مالك الكوخ بحفاوة بالغة، وهو رجل قصير القامة أشيب الشعر ضئيل الجسم رشيق الحركة ذو قدم خشبية وحتى يبرهن لي على مدى تطلعه لاستضافة الاجتماع في كوخه أشار إلى دكة صنع الأحذية خاصته وإلى العديد من قطع الأثاث ومن بينها هيكل سرير وسرير مدولب وإلى كسوة فراش وقد أزيحت كلها من الحجرة وتم تكديسها بصورة مهوشة في الخارج. قلت له: *لقد تجشمت الكثير من العناء والتعب*.

أجابني بظرف ومرح: *ليس إلى هذا الحد فأنا جندي قديم ولهذا فأنا أجيء وأروح معتمدًا على هذه*. وأشار إلى الطرف الاصطناعي القديم: *لقد شاركت في حرب العام ١٨١٢ بسلاح المشاة وفي معركة..*.

قاطعته زوجته بلطف وهي امرأة تبدو عليها أمارات العلم والثقافة ذات وجه يشع محبة وخيرًا: *الكاهن لا يهمله سماع أخبار الحرب اليوم* ثم أضافت وقد علت الحمره وجهها: *لا بد أن تلتمس لنا العذر سيدي فقد مضى زمن طويل لم نتشرف بلقاء أحد القسيسين ولا بحضور صلوات أو عظات، لقد تتابعت علينا الأيام بلون واحد وطعم واحد ولا شيء هنا كما ترى يذكرنا بضرورة تقديس يوم السبت. أوه كم هذا مخيف وكأننا قوم وثنيون نحيا دون طقوس وتعاليم الإنجيل! لا مدارس أحد يؤمها أطفالنا وشبابنا، لا خادم للرب يشير على المحتضرين ويعزي المكلومين ويسأل المسيح تخفيف البلاء عن المكروبين!*

قلت لها: *لا شك أن أحوالاً كهذه ستكون فرصة لا تعوض لأولئك الذين يحبون المخلص يسوع*. فواصلت كلامها قائلة: *أجل ولكن ما يعيب ذلك هو أن من يؤمون الكنائس بعد فترة من الاستقرار هنا يتكاسلون عن أداء واجب عبادة الرب في يوم الصلاة. فما أنتذا ترى أولئك الشرقيين الخالص في يوم الأحد وهم يروحون ويغدون وقد انكبوا على أعمالهم غير مبالين بواجب الصلاة في يوم الأحد. أوه ما أمس حاجتنا إلى من يجمع تلك الخراف الشاردة فتتوحد تحت راية نعمة الجماعة

الواحدة فالكثيرون منهم في ما أحسب يتوقون خفية لذلك. لقد ظلت أصلي للرب منذ أكثر من عام أن يرسل لنا أحد خدامه ليهدينا سواء السبيل”.

قلت لها: *دعيني أقول بأن الإحباط كان نصيبك في كثير من الأحيان”.

أجابته باكية: *أجل لكن ثمة أمر حدث الأسبوع الماضي رسخ إيماني باستجابة الرب لدعائي إذ نما إلى علمي أنك قادم لزيارتنا. منذ أشهر خلت كتبت رسالة لبعض القوم في الشرق طلبت منهم فيها منحة من النصوص المباركة لتوزيعها على المستوطنين ولم أتلق ردًا حتى يوم الثلاثاء الماضي إذ تلقينا رزمة من الكتب والكراسات والنشرات الدينية وكان بينها نشرة بعنوان *المبشر وشجرة الزان*.

قال الزوج وهو يمرر النشرة إليها: *ها هي النشرة، من الأفضل قراءتها على الكاهن فلا يزال الوقت مبكرًا على الاجتماع* ثم وجه نظره إلى ساعة حائط فخمة مثبتة بأحد الألواح فوق فتحة المدفأة الواسعة المبنية بالحجارة وملاط الطين.

كانت النشرة تقول: *منذ سنوات بعيدة خلت سعى أحد الرواد لبناء منزل في إحدى ولايات الغرب. وقد وقع اختياره على *مربع أرض* في إحدى البراري المكتظة بالرواد وسرعان ما بذل جهدًا جهيدًا في تهيئة مزرعة. كان رجلًا ذا بنية رياضية وكان مهيبًا لسنوف المواجهة كافة مع بيئة الغرب الأمريكي. كان صاحبنا في مقتبل العمر وكان الرجل يشتهر ويذيع صيته إذا ما أجاد وأتقن *رفع الفأس وقطع الأشجار الضخمة*. برز هذا الرجل وعد واحدًا من بين أعلى الشخصيات شأنًا في تلك المنطقة. لقد واجه وتحمل بكل قوة وجسارة سائر التجارب والمحن إلا التجارب الدينية.

*قبل نزوحه إلى الغرب كان يحظى بكل مزايا الانخراط ضمن شعب كنيسة كبيرة منتظمة الأداء وكان عضوًا بارزًا بين أعضائها سنين عديدة. ثم ها هو فجأة يجد نفسه محرومًا من كل المزايا المباركة للمجتمع الكنسي ما أحبط وجدانه وآلم قلبه وحز في نفسه. وكانت تمر به أوقات لا يستطيع خلالها مزاوله أعماله المعتادة بكفاءة وإتقان. شغل هذا الأمر باله حد القلق البالغ وكثيرًا ما كان يجد منتفسًا في رفع همومه وشواغله الباطنية إلى الرب خلال الصلاة. ذات يوم كان أقرب ما يكون لعرش الرب وهو جاث على ركبتيه في منطقة منعزلة بالغابة. كان يصلي بحرارة ويدعو الرب أن ينعم على هذه البرية الموحشة المنعزلة بصوت يردد آيات الإنجيل. دعا الرب أن يتفضل عليه بمنن الكنيسة الروحية التي اعتادها في السابق وشعر بيقين تام بأن الرب قادر على ذلك وعلى ما هو أكبر منه. انهمك الرجل في طلب تلك البركة حتى إنه غفل عن عمله. انتظرت عائلته ليعود وقت العشاء لكنه لم يأت. فزعت العائلة وجدوا في البحث عنه فوجدوه راکعًا على ركبتيه. في رجل الرب هذا تمثلت آية الاقتراب من كرسي الرحمة الرباني. لقد أحب البقعة التي ركع عليها داعيًا الرب وصمم على تمييزها بعلامة. كانت البقعة بجانب شجرة زان فقام بوسم الشجرة بنزع جزء من اللحاء ليظل مهما مرت السنون يتذكر الواقعة التي رويتها لكم.

وسرعان ما استجاب الرب لصلاة ودعاء الرجل. فقد أوحى الرب كلمته في أفئدة شعب هذه المنطقة فقاموا ببناء حرم مقدس في قلب الصحراء. لقد حلت عليهم نعمة الرب. أما ذلك الرائد فقد بات أحد خدام الكنيسة الكبار وقارب عدد أفرادها على الثمانين. بات للدين مكانة سامية بين أفراد

شعب تلك الكنيسة. لم يمض وقت كبير حتى حظيت بنعمة الوعظ في دار عبادتهم الخاصة بالمصلين المخلصين لمسيحتهم. عند ختام الصلوات والطقوس المتصلة بها قص عليّ الشيخ حكاية صلواته تحت شجرة الزان، وختم حكايته وقد طُفرت الدموع من عينيه قائلاً: *الشجرة التي حدثتك عنها تنتصب هناك على مبعدة خمسة أقدام فقط من البقعة التي وقفت فيها واعظاً إيانا هذه الليلة*.

قالت المرأة عند سماعها خاتمة الحكاية: *هناك، تلك هي الكلمة التي أبحث عنها والتي تقي بالغرض تمامًا. لقد جثوت على ركبتي ودعوت الرب وأنا خاشعة متبتلة أن يمنحنا بركات الإنجيل ونهضت بعدها وأنا أشعر بما أحس به ذلك الرائد من أن الرب قد استجاب دعائي. وكم غمرني الفرح وعم قلبي السرور حينما فوجئت في اليوم التالي أي يوم الأربعاء الماضي بأحد الجيران يزورني ويستشيرني حول مكان يمكنك منه أن تصلي بنا وتعظنا!*

كان وقت الصلاة قد أزف. وكان ثمة حشد ضخم من الناس الذين استغرقوا تمامًا في أداء الصلاة وسماع العظة كما كان الأمر في الصباح. وما أجملها من بشائر أن نذيع بين الناس أخبار الفرح الذي عم المصلين الذين كانوا يتعطشون لسماع كلمة الرب، كلمة المسيح الحي! وما أعظم الفارق بين هؤلاء المصلين وبين أولئك الآخرين الذين كنت أصلي بهم في الشرق، أولئك الغارقين في شؤون الدنيا والذين يتجمعون في بيت الرب بغرض الترويح الثقافي أو بحكم العادات والتقاليد وطلباً لسمعة أو تفاخراً وتباهياً، أولئك الذين تقسو قلوبهم وتعمى بصائرهم كلما أفضنا عليهم من ذخائر كلمة الرب وتعاليم الإنجيل المقدس.

في نهاية الصلوات وبكل رحابة صدر هؤلاء القوم من مستوطني الغرب تم تعريفي بأغلب الحاضرين وبدا الجميع مشوقاً سعيداً بخبر بنائي منزلاً والإقامة في الجوار. ولكم يختلف أمر الاستقرار بين هؤلاء الناس الجدد بالنسبة لي وأمر تدبير موارد عيش أسرتي هنا وهو الذي لا يزال في علم الغيب، وأمر الوعظ وأمر الإقامة في كوخ خشبي على الأرجح، عن الوضع الذي كنت سأكون فيه لو قبلت الدعوة التي أرسلتها كنيسة كبيرة ذات موارد وافرة في شمال البلاد. ما أبعد من فارق بين أبرشية تقام في البراري الأمريكية على هامش الحضارة وبين أبرشية في مدينة! لكن قلبي قد تعلق بهؤلاء الناس ولو بقيت بين ظهرانيهم فماذا سيقول عني أصدقائي الشرقيون من محبي المال وطلاب الجاه؟

أمضيت سبتاً آخر ممتعاً لولا بعض التجاوزات الهينة خلال أداء طقوس العبادة والتي سبق لي التعرض لها خلال خدمتي في الشرق. لقد أثارني وأضحكني في البداية أن أرى أمهات ينصتن للعظة وهن يرضعن أطفالهن أو يؤرجحونهم بين أيديهن وفوق ركبهن. بالأمس كان ثمة طفل سمين ضخم الجرم وكان بيده على غير المألوف تقاحة -أقول على غير المألوف لأنني لم أر مثل هذه الفاكهة هنا- سقطت من يده وتدرجت حتى صارت عند أقدامي أو كادت، فما كان من الأم إلا أن تقدمت بكل جرأة والتقطتها وأعادتها لطفلها. لم يلق أي من الحضور بالألما حدث فقد عدوه أمراً اعتيادياً. ولا أخفيكم سرّاً إن قلت إنني أكره التصرفات المصطنعة والسلوكيات المزوقة. ولماذا تمنع الأمهات من غشيان بيت الرب إن كن يجلبن أطفالهن معهن؟ يقول الإنجيل: *حينئذ قدم إليه أولاد لكي يضع يديه عليهم ويصلي فانتهرهم التلاميذ* أما يسوع فقال: *دعوا الأولاد يأتون

إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السماوات* فهل الخادم أفضل من سيده؟

ثم تعالوا ننظر إلى ثياب جمهور المصلين في ذلك الكوخ الخشبي المتواضع، فإذا هي غريبة لا تناسق فيها ومجافية للذوق مقارنة بثياب جمهور المصلين في بيوت الرب بالشرق الأمريكي التي تمثل الأناقة والفخامة والثراء في آن معاً! لكنني أؤثر تقاليد الغرب في اختيار الثياب. لقد قرت عيني برؤية أولئك الفقراء وهم يرتدون ثيابهم البسيطة وقد جلسوا متجاورين واثقين من أنفسهم لا يقلقهم في شيء أمر* مظهرهم الخارجي من قطع الملابس وخلافه*. وعندما أفكر في أن الآلاف من الأرواح المتعطشة لسماع كلمة الرب محرومون من غشيان الكنائس المسيحية لمجرد أنهم عاجزون عن ارتداء ثياب حيكت من الجوخ أو الحرير، وكيف أن أموالاً كثيرة تهدر في هذا السبيل وكيف يرفل أصحاب هذه الملابس فيها وهم يتيهون كثيراً وينضحون خيلاء لتعج بهم بعد ذلك بيوت الرب، أجدني حامداً شاكراً للرب على أن أغلق قلوب رواد الغرب دون صيحات الموضة.

لكن هؤلاء الرواد الجسورين أناس ذوو تفكير جريء متحرر ويتعين على الواعظ أن يظهر* بمظهر الإنسان الكادح الذي لا يخجل من شيء ولا تأخذه في الحق والحقيقة لومة لائم أيّاً كان ولا خشية مخلوق مهما يكن* إن كان حريصاً على الاحتفاظ بثقتهم واحترامهم. وعليك أن تفهم أن الأمر لن يمر مرور الكرام إن غفلت عن شيء أو أهملت في استيفاء أمر حتى أثناء دروس يوم السبت، فقد فوجئت بالأمس بمن يراجعني ويصححني. كنت أتحدث عن مسألة الصدقات فقلت بأن أفقرنا إن كانوا من غير المبذرين فسوف يتبقى في حوزتهم شيء يمكن التصدق به على من هم أفقر منهم. وبعدها توجهت بالسؤال للحاضرين عما إن كانوا يعرفون الآية الإنجيلية المتعلقة بالموضوع والتي تحض على مثل هذا السلوك. لكن لم يجبني أحد فقمت بتلاوة الآيات المتضمنة ذكر تضاعف أرغفة الخبز والأسماك التي أشبع بها المسيح ببركته جوع الحشود الكبيرة المنهكة التي جاءت ليشفي مرضاها وليعظها (تقول الآيات إنها كانت سبعة أرغفة وقليلاً من صغار السمك فصارت ببركة المسيح إلى ما يربو على الأربعة آلاف من كل نوع، فأكل الأربعة آلاف إنسان حتى شبعوا – إنجيل متى ١٥ إشباع الأربعة آلاف رجل ه.م) ثم جاء إلى كلمات المسيح التي تقول: *اجمعوا ما تبقى من كسر ولا تهدروا شيئاً* ثم سألت: *ألا تحضنا هذه الكلمات على ادخار الفتات والفضلات حتى نتصدق بها على الفقراء؟*.

وعلى الفور أجابني فتى في نحو السادسة عشرة من العمر قائلاً: *لا يا سيدي*.

ظننت أنه لم يفهم السؤال فأعدته قائلاً: *لقد سألت يا توماس -وكان هذا اسمه- عما إذا كان مثل هذا القول يحضنا على استبقاء ما نميل عادة إلى التخلص منه من بقايا وكسر وفتات حتى نتصدق بها على الفقراء والمحتاجين".

أجاب الفتى: *إن هذه الآيات لا تتحدث عن ذلك في اعتقادي*.

تساءلت: *وكيف ذلك؟*.

*لقد طلب المسيح يسوع من تلاميذه أن يتشاركوا الأرغفة الطازجة السليمة مع الناس وأن يحتفظوا

لأنفسهم بالفتات والبقايا".

كان الفتى محققاً. لقد ظللت أمدًا طويلًا بغير قصد أعلم الناس أن هذه المعجزة العظيمة بين رحمت المسيح تحض على الاقتصاد والتوفير! وما أكثر ما سمعتها وهي تشرح للجماهير المتعلمة المنتورة في نيو إنغلند على هذا النحو فلا يعترض أحد. ثم ها هو اليوم يأتي فيطلع عليّ واحد من الناس ليبين خطأ طال عليه الأمد ويصادف أن يكون هذا الأحد هو فتى لم يبلغ الحلم بعد، فتى من بين أفراد عائلة من أكثر عائلات الغرب اقتصاداً وتوفيراً. كنيته جونز واسمه توم وهو فتى واعد في ظني يستحق مني اهتماماً أكثر مثلما يستحق أباه ذلك المخلوق المتفرد الذي لا يقر له قرار لكنه في تقديري رجل والرجال قليل، مظهره لا يعكس معدن رجولته الحقيقية.

لقد بدأت أشعر شعوراً يتضاعف بمرور الوقت بأن الواجب يدعوني للعمل هنا. لو لم يكن هناك زوجتي العزيزة وأولادي لقررت البقاء على الفور. لكن كيف يتأتى لها التوافق مع هكذا مكان منقطع عن العالم؟ أيمنها أن تتخلى عن طيب العيش ورغد المقام في منزلنا بالشرق لتشاركني من أجل السيد المسيح ضنك وشظف العيش في براري الغرب؟ المستوطنون طيبون رحماء ويقولون إننا لن نتبرم ولن نشكو من شيء. لقد تم عمل نشرة اكتتاب عام وحوت عددًا كبيراً من الأسماء وقال الأخ بالمر وهو رجل ذو وجهة اجتماعية رفيعة وذو باع ونفوذ كبيرين إنه سيتدبر أمر المال الذي سيبنى به كوخاً يليق بنا.

الفصل الثامن

انتصار توم

أوى توم إلى فراشه ليلة أن أسرت أمه إليه بتاريخ تقلبات عمل أبيه، وأحس بأن أمه منحتة شرفاً كبيراً عندما شاركته سر حياتها وأنه قد بات يفهم حقيقة والديه كما لم يتسنَّ له من قبل. كما أنه أدرك أيضاً أي عبء جديد حملته إياه في أن لا يخفي عنها شيئاً في مقبل الأيام كما فعلت معه الليلة. إذ إنها في حقيقة الأمر جعلت من هذا الالتزام عهداً مقدساً عندما تفضلت على هذا النحو بانتمائه على أسرارها بينما لا يعدو انتمائها على أسرارها واجب الابن تجاه أمه وبدافع مصلحته لا مصلحتها. ثم أخذ توم يفكر بينه وبين نفسه: *كيف يمكنني الآن أن أهجر العائلة في سبيل خير لا يزال في علم الغيب وكيف لي أن أتخلص من وقر ضميري وأنا أراها مثقلة راضية بكل أعباء رعاية أبي العزيز وإخوتي وأخواتي؟*.

خلال رقادها في ظلمة الليل البهيم تبلبل خاطر توم وتمزقت نفسه وهو بصدد التفكير في نبذ فكرة الالتزام والتحرر من قيد صحوة الضمير التي سيطرت عليه. وها هو توم، ابن المستوطن جواب الآفاق الذي لا يقر له قرار، والذي يحيا حاضراً مزريراً بانساً يفكر في استبداله بمستقبل واعد زاهر من كل الجوانب وهو من هو شاباً وفتوة وطموحاً وثقة من قدرته على إدراك ذلك الهدف المنشود وتحقيق تلك الغاية العظيمة ما دامت النفس هفت وتاقت وما دام العقل فكر ودبر. والآن يمكنه التخلي عن الفكرة ونبذ الأمر برمته والبقاء في نير الكدح المنزلي في كوخ حقير مثل هذا، لم يكن من المنتظر أبداً أن ينتهي به الأمر إلى هذا القرار لولا الصراع النفسي الحاد والاحتكام إلى الضمير اليقظ. صحيح أن والدته قد نصحته بانتظار قدر الرب ليفتح الأبواب الموصدة أمامه. لكنه مع ذلك لم يزل يذكر وقلبه منقطر كيف انتظرت أمه أعواماً لا حصر لها وسنين طويلة بلا بارقة أمل في خلاص أو بادرة تغيير مهما كانت فأبي باب موصد فتحته أطفاف الرب أمامها إذاً؟ أو لم تكن تستحق هذا التدخل الرباني أكثر مما يستحقه هو أضعافاً مضاعفة؟ أخذ توم يتأمل هذه المسألة حتى أدخله هذا التأمل في دوامة ذهنية عنيفة وكلما أمعن في التأمل زاد الغموض وتاهت الأجوبة.

أخيراً توصل إلى الاستنتاج التالي *أنا مكلفة ألا أهجر العائلة حتى ولو بقيت في الشقاء والتعاسة لآخر رفق في حياتي. هذا هو مغزى كلماتها وهذا هو حكم القدر بالنسبة لي. فهل أنا مستعد لقبول الحكم وتنفيذ منطوقه. فألتزم بأداء واجباتي وإن كانت تعني بالنسبة لي ما تعنيه لها حياة الفقر والحرمان من المتع والكدح ومعاناة شظف العيش وضنك الحياة وتفاهة الشأن؟*.

أدرك توم أن عليه أن يخلص إلى قرار وأن يحسم الأمر بطيب نفس. لكنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. والمرة تلو المرة حاول توم جاهداً أن يصل إلى قرار يمكنه أن ينكص عنه. كانت إرادته أضعف من أن تخمد نار التمرد المتأججة داخله. أه لقد دخل توم المرهق المكدود ولد جونز الرائد المستكشف في دوامة عنيفة من الحوار والجدال النفسي الأخلاقي وأصبح على المحك وتبين جلياً كم هو ضعيف هش! في النهاية وبمجرد استرجاع توم تقييم والدته لغلطة والده في طلب الثروة اعتماداً على قدرته وإرادته وحده من دون عون الرب، أدخله ذلك في حالة اضطراب نفسي

احتدمت فيه المشاعر وتبلبلت الأفكار واعتراه يأس مطبق.

تساءل توم وقد انتصب قائماً في فراشه ليفكر في مغزى مقالته *ما قصدها من وراء ذلك؟*.

إلا أنه لم يتوصل لشيء وتمنى لو أن أمه كانت مستيقظة فأوضحت بنفسها ما عنته بكلامها. ثم ما لبث أن هدأ روعه وعاد إلى أصل الموضوع ويا للعجب فقد انقشع الضباب وسطعت الحقيقة بكامل بهائها.

*الآن فهمت قصدها: كان على أبي أن يتبع سبيل الرب وأن يستعين بالقوي القدير وهذا ما يتعين عليّ أن أفعله. والرب قادر على التفضل عليّ بعونه وكرمه فأؤدي واجباتي بكل استقامة وتمام. أجل إنه الرب من يحدد ما علينا أن نفعل وما لا يجب أن نقوم به".

وانتهى الأمر بتوم بعد أن تجلت له هذه الومضة الروحية إلى مناجاة نفسه قائلاً: *سأدعو الرب أن يعينني على الأخذ بنصيحة والدتي وألا أحميد عن سبل الرب القويمة".

غطى توم وجهه بيديه وصلى للقدير من صميم روحه. وبينما هو مستغرق في صلاته ودعائه شملته سكينه ربانية سابغة. لقد تخللته تلك السكينه بلطف وخفة على غير توقع حتى حسب أنه كان يهلل منفعلاً وهو يسبح الرب وفي نهاية المطاف لم يعد فتاناً قادراً على الاحتفاظ بغبطته الفائقة لنفسه فنادى والدته برقة:

أمي، أمي!

سألته وهي المتأهبة دوماً لتنفيذ طلبات أولادها: *ماذا تشتهي يا بني؟*.

أجاب توم: *أوه يا أمي لقد دخلت معركة حامية الوطيس وصليت وخرجت منتصراً*.

وفي التو كانت راحة على ركبتيها فوق الأرضية الخشنة بجانب سريره، لقد وصلتها رسالته، وجرت على وجهها دموع الفرح والشكر للرب وقالت:

*هذا هو ما تمنيته على الرب. لقد انتشلك الرب مما كنت فيه وكل شيء سيكون على خير ما يرام".

في صباح اليوم التالي استيقظ توم وقد اكتسى وجهه بعلامات الجدية والسكينه. لم تشر أمه من جانبها إلى التحول المفرح في أحواله الذي طرأ خلال الليل وبينما هي منشغلة بإعداد الفطور كانت تمسح دموعها من أن لآخر من فرط اغتباطها.

قال توم وهم ينتهون من تناول وجبتهم البسيطة: *أمي لقد كنت أفكر في خطة جيدة بأن نجمع قسارى ما يمكننا جمعه من الخشب ما دام الطقس موثياً. فالشتاء على الأبواب وسيكون من حسن التدبير ألا تخمد نيران مدفأتنا خلاله ولن نضطر للخوض في الثلوج بحثاً عن خشب نوقده".

أجابته قائلة: *أجل لم ينته الصيف الهندي بعد وحتى يفضي لن نستخدم من الخشب إلا أقل القليل ولو أحسنتم أنت والأولاد لكدمكم كمية معتبرة".

سألها توم: *لماذا نطلق على هذه الفترة الجميلة من الخريف اسم الصيف الهندي؟*

أجابت الأم: *لأن الهنود اعتادوا مهاجمة مستوطنات البيض خلال تلك الفترة لأنهم كانوا يتوقعون عن شن حروبهم على البيض بحلول الشتاء*. وأضافت وهي تتنهد: *ولسوف أكون سعيدة عندما تسقط الثلوج لأنني آنذ أحس بالأمان حتى حلول الربيع".

قال توم: *لقد جن جنون آل ألن بسبب ما جرى لماشيتهم وقد تتبع الأب آثارها حتى وصل إلى وادٍ صغير ضيق شديد الانحدار في الغابات، وعندها اكتشف أن ثيرانه قتلت وقطعت: فالقرون والجلود كانت ملقاة على الأرض ولم تزل دماؤها دافئة بعد ولا أثر لأي من الهنود. لم يستطع آل الكبير، وهو من هو كما تعرفين في تاريخ مقاتلة الهنود، أن يجد خيطاً أو أثراً يستدل به".

هل حدث وشوهد أي من الهنود في الجوار منذ ذلك الحادث؟

*أجل لأن السيد بيسون المبشر شاهد أحدهم صباح أمس الأول وكان الأول في طريقه من مستوطنة روت ريفر إلى مستوطنة سلو كريك. كان السيد بيسون يمر بكوخ أحد النرويجيين قرب أحد البساتين عندما فوجئ بأحد الهنود السيوكس ينهب الأرض نهباً ممتطياً صهوة فرسه وهو يصرخ بأعلى صوته ويختفي عن الأنظار. وكانت السيدة بنغري قد أصابها هلع كبير، إذ كان زوجها خارج المنزل لقضاء بعض الحاجات وكانت وحدها تقوم بأعمال المنزل، فإذا بالباب يفتح ويدخل أحد الهنود فيجلس، وسرعان ما تلاه آخر وفعل نفس الشيء حتى انتهى الأمر بوجود اثني عشر هندياً بالحجرة وقد جلسوا صامتين يدخلون غلايينهم. قالت السيدة بنغري إنها آنذ فهمت من واقع تصرفاتهم ومن الأصباغ التي علت وجوههم وأجسادهم أنهم ينتون شراً. إلا أنها قررت ألا تظهر أي أمارة للخوف ومضت تكمل عملها. سرعان ما قام أحد الهنود بالنهوض وفتح بعنف صندوق ثياب زوجها وبعدها قام بقببهم بالبحث والتنقيب في سائر أرجاء المنزل واضعين اليد على ما أرادوا وانتظرت السيدة بنغري أن يأتي الدور عليها فيهاجمونها وإذا لحسن حظها- بنباح كلب وقعقة عجالات فأحس الهنود الهمج بالخطر وفروا من المكان".

سألت السيدة جونز: *وما رأي المستوطنين في هذا؟*

لقد اكتفوا بالضحك، لم يروا أن ثمة شيئاً خطيراً كان يمكن أن يقع وقالوا بأن زعماء الهنود أجروا مباحثات مطولة مع مندوب الحكومة وأعلنوا أنهم يودون موادعتنا ومسالمتنا. لكن البعض منا فعل كل ما بوسعه لاستفزاز الهنود وقالوا بأنهم يودون مقاتلة الهنود الحمر!

هتف توم قائلاً: *لكن ماذا هناك؟* فيما تناهى إلى الأسماع صوت نباح الكلاب وهرعت الأم وتوم صوب الباب فرأوا بعض الرجال والأولاد يطاردون حيواناً ضخماً عبر البراري.

صرخ أحد الجيران وهو يندفع مبهور الأنفاس ناحية توم ويقول: *دب إنه دب، هل والدك بالمنزل؟ اطلب منه القوم وسوف نتبل جثته!* ودون أن ينتظر جواباً أو يعطي تفسيراً لأي جثة يقصد أسرع مهرولاً وراء الآخرين.

كان الحيوان الذي يطاردونه من الضخامة بحيث لا يمكنه العدو بسرعة فالحقته الكلاب، وعند ذلك

قام الحيوان بعمل محاولات يائسة لبلوغ ملاذ بأحد البساتين الصغيرة القريبة بينما تقاطر مطاردوه خلفه غير بعيد منه. البعض منهم كانوا حاسري الرؤوس وبعضهم كان يحمل بندقية لكن أغلبهم كانوا مسلحين بمذاري الحنطة والهرافات وأحدهم -من فرط اندفاعه وحماسته- كان يحمل قطعة صدئة من أنبوب الموقد يعلم الرب وحده أي فائدة يرجي من ورائها في اصطيد دب ما لم يكن غرضه حال اختباء الدب في البستان أن يحمله على الخروج بتعريضه للدخان. حقيقة الأمر أن الرجل كان يقوم بتركيب موقد في منزله عندما سمع صيحة من يقول: *دب، دب* فقطعت عليه عمله وهرول ليشترك في المطاردة غافلاً عن كونه يحمل في يده هذا الشيء. كان رجلاً نحيلاً فتي القوام ضامر البدن طويل الساقين ذا شعر أقرب إلى لون الرمال ينسدل مفروداً خفيفاً حتى يبلغ كتفيه، ولما كان قد خرج دون أن يلبس معطفاً وبسروال لا يكاد يبلغ كاحليه فقد بدا منظره غريباً مضحكاً وهو يهرول مباعداً ما بين ساقيه فيما تبعه رجل قصير القامة بدين الجسم يتهادى مترنخاً في مشيته سرعان ما تخلف عن الجميع دون أن تظهر عليه أي أمارات للجبن أو التخاذل.

قال توم: *هناك، إنهم يحيطون بالأجمة* فيما كان الرجال والفتيان ينتشرون من مركز التحرك حتى طوقوا ملاذ الدب بين أشجار الأجمة.

سرعان ما انهال الرصاص من كل جانب وبعد وقت ليس بالقصير رجع الصيادون منهكين صفر اليدين.

قالت السيدة جونز: *لا بد أن الدب أفلت منهم*.

لكن شارلي جاء مندفعاً ناحيتها وهو يلقي قبعته ويصيح:

*أوه أليس الأمر مضحكاً! لم يكن هذا دباً يا أمي وإنما كان خنزيراً أسود فقده السيد أبوت خلال الخريف الماضي وظن أنه قد مات. لقد غدا خنزيراً برياً يتغذى على الجذور وجوز البلوط حتى أصبح سميناً للغاية. لم يكن الرجال يعلمون أنه خنزير حتى أطلقوا عليه الرصاص، ظلت الكلاب تتبحر نباحها المعتاد في هكذا مواقف وتكفلت الأعشاب الطويلة والأجمات بإخفائه. لقد جلبوا عربة لتعيده إلى المنزل".

لكن توم كان يقوم آنئذ بعمل فتحة في السياج الأقرب من الغابة ليتابع الموقف من خلالها وصاح به شارلي:

لماذا تقوم بذلك يا توم؟

أجاب توم بدمائة: *لقد كنت أفكر في أننا سوف نحتاج يوماً بعض الخشب يكون قريباً من الكوخ خلال الشتاء المقبل بدلاً من استخراجهم من تحت الثلوج وأنا أعد فتحة لتمرير قطعه من خلالها".

أردفت الأم قائلة: *أجل يا أولاد لقد تحدثنا في الأمر سابقاً توم وأنا. وحبذا لو تكاتفتم جميعاً لتكديس أكبر عدد ممكن من قطع الأخشاب. من الرائع أن يكون في متناولنا قطع خشب وفيرة لنطهو كعك الذرة وأن نجد ما نتدفأ به خلال الشتاء القارس!*

أعجب الأولاد بالفكرة، حتى بب، وبدؤوا على الفور في تنفيذها تحت قيادة توم.

من المؤلف في المناطق الجديدة التي يفد إليها القادمون الأول أن يتعاملوا مع الأشجار الكائنة بأرض الحكومة بحرية واسعة للحصول على الأخشاب التي يقيمون بها أكوأهم فيشقتونها وينشرونها ألواحًا تكسى بها السقوف والأرضيات، ولكم أسقطت فؤوس الرواد الأول من أشجار البلوط الضخمة في الغابات القريبة من كوخ آل جونز مخلفة وراءها، فوق الأرض، أغصانها الكبيرة. ثم إن هناك أيضًا الكثير من الأشجار الميتة ومن خلال تلك المصادر الجافة استطاع الرواد الأوائل الحصول على أجود أنواع الخشب الجاف.

قاد توم عملية الجمع فكانت الأغصان الكبيرة والأشجار الصغيرة الميتة تنثر وتسحب لتأخذ شكل أكداس غير بعيدة من المزرعة، ومن هناك كان آخرون من بين الأولاد يجرونها حتى الفتحة في السياج ومن الفتحة يسحبها آخرون إلى المنزل. أمضى الأولاد والبنات وقتًا ممتعًا في هذه المهمة، وكانت الغابة تردد أصداء غناء سارة وهي تؤدي نصيبها من العمل بينما كانت بقية صحبة الأولاد والبنات يتبادلون الكثير من النكات لكن لا واحد منهم أقبل على العمل بهمة وحماسة مثلما كانت الحال مع بب.

قالت إيزا وقد تعثرت في بب وهي تسحب غصنًا كبيرًا خفيفًا: *حيثما ذهبت تصطدم أقدامك بذلك الولد*.

قال توم: *من الأفضل أن تذهب إلى المنزل فأنا أخشى عليك التأذي*.

رد بب قائلاً: *لا لن أذهب فأنا ملزم بحمل الخشب إلى داخل الكوخ*. كان الولد يتأبط فرعًا طويلًا تحت إبط ذراعه ذات الغمارة وفرعًا آخر قصيرًا ضخماً ثقيلًا تحت الإبط الآخر حتى يثبت جديته وجدارته كصبي تجاوز حدود عمره بالإرادة والعمل، ثم مضى لا يولي على شيء ناحية الكوخ.

قد ينفلت الفرع الطويل من تحت ذراعه ويعلق إن احتك خلال سيره بأحد الأجمات، لكن بب سرعان ما يرفعه ويخلصه فإذا بالفرع الكبير الثقيل ينفلت من تحت الذراع الأخرى، وإذا به يبادر بكل شجاعة الالتقاطه مجددًا فيما ترتفع كنزته وتهبط خلال الانحناء والنهوض، وهكذا دو اليك تتفلت واحدة فيلتقطها لتتفلت الأخرى فيلتقطها دون توان وبغير شكوى أو تذمر حتى يبلغ المنزل في نهاية المطاف، فيجر حمله عبر الباب محاذراً خطر الارتطام بالموقد القديم. هو ذا فتانا يستريح الآن من عمله فيتناول ثمرة بطاطس باردة وقطعة من كعك الذرة اللذيذ الذي تصنعه والدته، وفيما هو يلتهم ما بين أصابعه أخذته سنة من النوم وبدت أشداقه المتوردة متخمة منكورة على آخرها بما انحسر في فمه من طعام.

صاح شارلي محدثًا جلبه وهو يدخل المنزل ليرى ما إن كان العشاء جاهزًا أم لا: *أف لم لا تواصل العمل مثل بقيتنا؟*.

واصل بب ازدراد الطعام وأجاب بتأفف:

لأنني اكتشفت أنه ليس ممتعًا.

كان وقع إجابته على شارلي عجيبيًا إذ تلقاها الأخير بضحكة مدوية ما أثار استياء بب، وعندما

غاب شارلي عن الأنظار قال بب لوالدته:
*أنا لن أذهب مطلقاً للعمل مرة أخرى".
استفسرت قائلة: *آه ولم لا؟*.
*لأنني لا أحب العمل".
قالت أمه: *إذاً لن تصبح رجلاً أبداً*.
سألها: *وهل الرجال لا بد أن يعملوا؟*.
أجابته: *بالتأكيد*.
وبكل ثقة قال لها: *إذاً لن أصبح رجلاً".
صاحت الأم: *وماذا ستصير إذا؟*.
سأصبح مبشراً أطوف بكل الأماكن وأضع نظارة ذهبية.

الفصل التاسع

مفاجأة

توجهت إحدى السيدات إلى أحد العاملين الودودين بفندق في البلدة الصاعدة الواعدة داكوتا بولاية أيوا سائلة إياه: *أوسعك سيدي تعريفي ما إن كنت أستطيع تدبير عربة تقلني أنا وأطفالي إلى إل مينيسوتا؟*

أجابها الموظف قائلاً: *ليس ثمة عربات تقل المسافرين إلى تلك الوجهة لكن يمكننا أن نوفر لك عربة صغيرة بحصانين إن أمكنك تحمل التكلفة الكبيرة.*

أجابت السيدة وهي تتبسم: *أود ذلك لكن بأقل تكلفة ممكنة. زوجي مبشر وأنا في طريقي للحاق به.*

رد عليها الموظف: *سأرى ما يمكنني عمله لأجلك* ثم انحنى احتراماً وخطا نحو بار الفندق سائلاً:

هل يوجد أحد متوجه إلى إل اليوم؟

قال رجل قصير القامة معقوف الأنف أسود العينين يقرأ إحدى صحف الشرق: *سأسافر نصف المسافة إلى هناك.*

هل في وسعك اصطحاب مسافر أو اثنين؟

أجاب قائلاً: *أنا مكتمل العدد لكنني دائماً ما أجد مكاناً لواحد بالزيادة ما دام يدفع الأجرة المناسبة.*
خفض الموظف صوته وقال: *إنها زوجة رجل دين وأطفاله.*

أجاب الرجل وهو ينهض واقفاً: *أوه حسن سأصطحبهم دفعوا أم لم يدفعوا* ثم تبع الموظف الذي قام بواجب تعريفهم الواحد للآخر:

السيد سوير – السيدة بيسون. سوف يأخذكم السيد إلى نهاية طريقه.

استعلمت السيدة بيسون قائلة: *كم تبلغ تلك المسافة؟*

قرابة عشرين ميلاً.

لكن كيف يتسنى لي استكمال بقية المسافة؟

أجابها الرجل بحرارة ومودة: *لا تقلقي بهذا الشأن أعتقد أن ثمة طريقة لإيصالك وجهتك بأمان تام.*

خلال نصف ساعة كانت عربته تقف أمام الفندق منتظرة إياها لتمضي بها نحو البراري. كانت العربة واقفة يتقدمها حصانان قويان مطهمان ومشدودان بشكائم متينة إلى العربة الطويلة العريضة

التي تتوفر على مجال كبير يتسع للعديد من الصناديق والصرر، كما أنها تحتوى ثلاثة صفوف من المقاعد الخالية من التتجيد. كان مالك العربية في رحلة تجارية لكنه وبعينه الثاقبة *الباحثة عن فرصة ثمينة* متأهباً لالتقاط بعض المسافرين نحو الغرب. كانت العربية غاصة بالمسافرين فحشر الأطفال الثلاثة -الصبي الصغير الوديع الرقيق وشقيقتيه- بين أجسام المسافرين الذين استقروا على مقاعدهم وأعان السائق الأم على الجلوس بجانبه. استلقت وجودهم انتباه الركاب بقوة لأن هيبنتهم وملابسهم كانت تتم عن كونهم عائلة صغيرة نشأت وترعرعت في نيو إنغلند دون غيرها.

قال مالك العربية فيما كان الحصانان يخبان بقوة على الطريق: *لقد سافر زوجك معي أول أمس. لقد توجه جنوباً نحو المسيسيبي منتظراً إياك لأسبوع كامل وقال لي مالك شركة ماكروغر للأراضي إنه أكثر الرجال، بين من قابلهم في حياته، قلقاً وضيقاً لأنك لم تصلي بعد*.

أجابت الزوجة وهي تضحك بمرح: *أنا آسفة لأنه انزعج بسببي*.

لم يرد لي أن أغامر بالسفر وحدي مع الأولاد وكتب لي رسالة يقول فيها إنه سيعود ليصطحبنا إن لم نجد شركة ملائمة ولكن لأني لا أريد أن أصرفه عن أعماله حزمت متاعي واصطحبت أولادي وانطلقنا مسافرين.

قال رجل يجلس في أحد المقاعد الخلفية: *أمل ألا يكون قد صادفكم أي حادث في الطريق لقد كنت في منتهى الشجاعة*.

لا لقد كنت على وشك فقدان إحدى بناتي الصغيرات.

سألت إحدى الأمهات: *ما الذي حدث؟*.

*حدث ذلك في محطة القطار في سبرنغفيلد. عطش الأولاد فأمرتهم بألا يتحركوا إلى أن أعود وعبرت الغرفة لأجلب الماء. كان ثمة جمهور كبير يتحرك في كل اتجاه وكانت القطارات تقد وتغادر وكان الجميع في حالة جلبة وتخبط فأسرعت ولم يستغرق غيابي إلا لحظة فوجئت بعدها بأن فاني الصغيرة صغرى البنات غير موجودة. كانت هيلين كبرى البنات مأخوذة بما تراه حولها وبما تسمعه فلم تنتبه لغياب أختها. أصابني الهلع لأن البنات قد اختفى أثرها فجأة وكأنها تبخرت فأنزلت قلنسوتي فوق كتفي لأجذب انتباه الناس وصحت بأعلى صوتي:

طفلتي! طفلتي! طفلتي ضاعت!

صاح بعض الحاضرين مكررين الوصف الذي أعطيت للطفلة *طفلة ضائعة! طفلة ضائعة!* وبدأ ألا أحد رآها فاعتراني خوف هائل مخافة ألا أعثر عليها حتى سمعت، ويا لفرحتي، أحدهم يهتف وسط الضجيج:

إنها موجودة! إنها موجودة! أين الأم؟ كان أحد السادة يرفعها بيديه وأحضرها إلي. كان الرجل منفعلاً بشدة وقال:

*لقد أوشتك طفلتك أن تقتل يا سيدتي، لقد وجدتها تحت إحدى عربات القطار بين عجلتين من عجالاته وهي تلعب بهما وتقول: *العربة تؤذيني، العربة تؤذيني*. قرع الجرس الأخير وبالكاد

سحبته من فوق الخط الحديدي وإذا بالقطار ينطلق بعدها".

علق أحد المسافرين قائلاً: *لا بد أنك تتحملين عبئاً كبيراً في اصطحاب أولادك في رحلة طويلة بعيدة كهذه".

أجابته: *هو كذلك بالفعل وعموماً فإن أصعب ما في الأمر كان في إدخالهم إلى داخل القطارات، فالأولاد صغار الحجم وتدافع المسافرين كبير وكان من المحتمل جداً أن يتعثّر البعض بهم أو يدوسهم أو يحول بينهم وبين الصعود على متن القطار في الوقت المناسب".

قال رجل: *كل واحد في مثل هذه الظروف يسعى لأن يكون أول الركابين وكثيراً ما حدثتني نفسي بأن الأنايية البشرية تتجلى في أبشع صورها خلال السفر عنها في أي ظروف أخرى. وحسب ظني فقد غض جميع من حولك الطرف عن معاونتك وكان عليك أن تواجهي الموقف وحدك في الاعتناء بأولادك والوصول بهم لبر الأمان".

أجابته قائلة: *عادة، أو لنقل أحياناً، كان أحد الغرباء ممن يمرون بنفس الظروف يمد يد العون لنا وكثيراً ما كان يخطئ في تقديره لكيفية المساعدة فتسوء الأمور أكثر. ذات مرة من هذه المرات سعدت فيها وفزعت في أن معاً من هكذا معاونة، وكنت أحاول جاهدة أن أضع أولادي على متن قطار بدأ في التحرك وأنا أفسح أمامهم الطريق فناديت بصوت مرتفع: *أما من أحد يعين أولادي على الدخول إلى العربات؟*. وإذا برجل كان الأضخم والأكثر بدانة بين من رأيتهم في حياتي يركض لاهثاً متخطباً من فرط سرعته ويحمل ابني الصغير ويهرول كأنه فيل، وإذا بقدمه تصطدم بحجر فينبطح أرضاً وقد ساخت قدمه في الرمال وندت عنه صرخة عظيمة فيما كان يلقي بجسم ابني الصغير داخل القطار. أسفت لحال الرجل لكنني في الوقت نفسه غالبت الضحك على هيئته الغريبة علاوة على أن سلوكي عندئذ انطوى على الكثير من قلة الذوق والجحود فقد كنت مضطرة، حتى ألحق بولدي، أن أدور حول جسد الرجل الضخم وأن أخطو فوقه مسرعة تاركة إياه يلم شعث نفسه وحده دون عون مني".

أثارت هذه الحكاية الكثير من المرح الصاخب ضاعف منه تدخل رجل إنجليزي بدين يجلس خلفها مازحاً في لكنة إنجليزية ظاهرة:

سيدتي لا بد أنه قدر حساسية الموقف!

قالت الأم التي سبق لها الكلام منذ قليل: *لكن كيف سنتقبلين الحياة في الغرب؟ أظن أن أمثالك لا يقدرّون على التكيف مع أساليب حياتنا الخشنة".

أجابت زوجة الكاهن بحماسة نمت عما بداخلها من روح معنوية مرتفعة: *أوه، أنا لم أترك ديارى واتي إلى هناك لأجل المتعة والترفيه ولكن للترفيه عن زوجي ولأشد من أزره في خدمة الرب يسوع".

ردت عليها سائلتها وهي تمسح دموعه فرت من عينيها: *حسن إن الشعب يعلم جيداً كم نحن بحاجة إلى أمثالك بيننا ويعلم قدر خسارتنا بعدم انتهاجنا سبل العيش القويمة كما ترسمونها لنا، وإني لأمل

أن تجدينا نحن أهل الغرب مستعدين لبذل قصارى جهدنا في سبيل نصره قضية الدين. لقد حظي أغلبنا بأوقات فضلى و عرفوا قيمة الذهاب إلى الكنيسة كل أحد و فعلوا ما في وسعهم لتعضيد الوعظ والإرشاد الكنسي ونحن مستعدون لفعل ذلك مجدداً".

هتقت هيلين، البنية الصغيرة ذات الأعوام الستة والوجه الناضر وصاحبة البديهة الحاضرة:
انظري يا أمي يا لها من حديقة واسعة!

كانت العربية قد عبرت سلسلة التلال الصاعدة الهابطة للجروف الصخرية التي خلفها نهر المسيسيبي داخل الأراضي وانتهت آخر الأمر لتشكل قمة هضبة جميلة تطل على البراري الممتدة على مدى البصر وقد كستها حلة زهور من كل لون وصنف. قالت الطفلة وقد تألقت عيناها بهجة وحبوراً:

أماه أليس الرجل الذي يملك هكذا حديقة غنياً جداً؟

أجابتها أمها مبتسمة: *هذه الحديقة لا تخص أحداً من الناس يا عزيزتي إنها إحدى جنان الرب فهو من غرس كل هذه الزهور ونماها دون عون من أحد. كلها زهور برية".

هتقت الطفلة: *أوه، ما أكرمه وأعظمه! أليس كذلك يا أمي؟ أليس للرب حديقة كهذه حيث منزلنا الجديد؟*

أجابت الأم: *أجل يا ابنتي أتوقع ذلك لأن كل شيء هنا عبارة عن حديقة كبيرة. بوسعك أن تسافري آلاف الأميال فلا تري صخرة أو رملاً. لا شيء سوى العشب الأخضر والزهور المتفتحة الجميلة".

صاحت البنية ذات العينين الزرقاوين وهي تصفق بيديها: *أوه، لكم أنا فرحانة بمجئنا للغرب! ألسنت فرحانة يا أمي؟*

سرّ المسافرون كثيراً بثرثرة البنية الغالية ولم تستطع الأم مغالبة عواطف الأمومة فطبعت عليها قبلة وقالت:

*أمل ألا يصادفك شيء أو تقع عينك على شيء أقل جمالاً من زهور البراري".

لكن في تلك اللحظة وقعت عينا الطفلة المتألفتان على مشهد أحد المستوطنين ماض في طريقه حاملاً بندقيته فوق كتفه وكان جرمه الطويل يقف ناتئاً مجسماً بقوة قبالة السماء بالرغم من أنه كان على مبعده بضعة أميال فسألت أمها:

أماه هل هذا رجل بري؟. ثم كان أن رأت بقرة ترتع في الأرض فسألت: *وهل هذه بقرة برية؟*

في الليلة التالية أوصل السيد سوير عائلة المبشر إلى الكوخ الغربي الأنيق الذي يملكه السيد لنكولن.

قالت السيدة لنكولن ضاحكة وهي تأخذ أمتعة وحاجيات ضيفتها: *حسن لقد باغتت زوجك هذه

المرّة".

سألت السيدة بيسون بنبرة تتم عن خيبة الرجاء: *أليس موجودًا هنا؟*.

أجابت السيدة لنكون قائلة: *لا فقد أمضى أسبوعًا في المسيسي وهو ينتظر ومخافة أن تتحملي فوق طاقتك أو أن تتأذي عند مغادرة الباخرة - وأنت تعلمين أن المسافرين وأمتعتهم يتعرضون لبعض الإجراءات وغير ذلك- فقد قام بزيارة كل سفينة أو قارب عند وصوله وطلب من الحمال في الفندق أن ينادي عليه كلما وصل قارب أو سفينة خلال الليل ثم يستعلم من المسافرين الوافدين عما إن كانوا رأوا سيدة بأوصافك تصطحب ثلاثة أطفال صغار، وقد سمع بعد أن رجع أن ثمة واحدة تشبهك قد ذهبت إلى أحد المرافئ عند أعلى النهر فذهب إلى هناك بالأمس أملًا في استقبالك واصطحباك عند العودة. ومن المحتمل أن يصل إلى هنا في وقت متأخر هذا المساء أليس من المناسب أن نعدّ له مفاجأة؟*.

كانت الساعة نحو التاسعة ليلاً عندما رجع المبشر وحده قلقًا محبطًا.

سأله مضيفه بلهجة المتعاطف: *يبدو أنك لم تعثر على زوجتك وأولادك التائهين؟*.

*لا ولست أدري ماذا أفعل. لقد استعلمت من الجميع لم أترك أحدًا إلا وسألته. وقرأت الصحف أيضًا ولم أصادف ما يفيد وقوع حوادث قطارات مؤخرًا. أخشى أن تكون قد وقعت فريسة المرض وهي في الطريق. لقد كانت همجية مني أن أطوع نفسي على تركها تسافر كل هذه المسافة وحدها ومعها الأطفال الثلاثة من ماساتشوستس إلى مينيسوتا. لقد كان الواجب يحتم عليّ أن أتركها حيث هي في الديار حتى تأتي الفرصة فأذهب لاصطحبهم".

قال السيد لنكون: *لعلها رأت أن من المجازفة المجيء وحدها فكتبت إليك رسالة لكنها ضاعت في الطريق".

رد عليه الكاهن قائلاً: *أنا أعرف أنها أذكى من ذلك لقد أخذت طريقها إلى هنا وقد قررت فعل ذلك كواجب عائلي والتزام أخلاقي، ولما حزمت أمرها نفذت ما عزمت عليه حتى لو كان ثمة حادثة قطارات كل يومين، بالرغم من أنها كائن ضئيل ضعيف الجسم".

قالت السيدة لنكون فجأة وهي تدير رأسها لتخفي ابتسامتها: *حسن أنت مجهد للغاية ومنهالك بما فيه الكفاية وأحسب أن من الأفضل تأوي للفرش مبكرًا*.

باغتت هذه النصيحة الكاهن لكن السيد لنكون بدد دهشته بالقول:

*لقد رتبت زوجتي غرفتك تحسبًا منها للقدوم السعيد لعائلتك ولن يغمض لها جفن ولن يستريح لها بال إلا بعد أن تطمئن على أنك راض عن إعادة الترتيب".

فتحت السيدة لنكون باب شقة الكاهن فإذا به يرى أمامه أطفاله الثلاثة نائمين نومًا هانئًا في أسرتهم الجميلة وإذا بزوجه جالسة في كرسي هزاز تغالب مشاعرها وتكبح جماح انفعالاتها حتى تنفذ خطة المفاجأة كاملة دون نقصان.

الفصل العاشر

لا يوجد ويسكي في هذا الزبيب

لو أن الشاعر الاسكتلندي عرف كم هو من الصعب بمكان أن أفضل الخطط التي تنتفق عن عقول النساء والرجال غالبًا ما تذهب سدى.

في اسكتلندا القديمة العزيزة المهابة فأنى له أن يتغنى لو أن قدره رمى به وسط تقلبات الأحوال في حياة الاستكشاف بالبراري الأمريكية؟

نحن نتحدث هنا عن كيف أن احتمالات النجاح والفشل التي طالما اكتنفت أعمال الناس في المجتمعات المنظمة المستقرة قد أعانت الناس بألف طريقة وطريقة على تحقيق خططهم، لكن ليس ثمة نظام ولا استقرار في بلد جديد؛ كل شيء أقرب لجنين يتشكل ومن ثم فإن توالي حالات الإحباط وخيبة الأمل واردة بالقطع. عندما يبلغ السفر بالمهاجر مقصده، سرعان ما يكتشف أن مشروعاته التي عقد عليها أعز أمانيه وخطط لها وفكر ودبر ما هي إلا قصور فوق رمال متحركة وأن عليه أن يعتمد على الرب القدير وعلى سواعده القوية في كل عمل يقوم به. أما قليل الحيلة من المهاجرين ضعيف الجسم الذي لا يقوى على الكدح والعمل العضلي الشاق فلن يجد أمامه الطريق مفروشًا بالورد، بل سيجد المحك وراء المحك والمحنة وراء المحنة وذلك هو حال السيد بيسون.

لقد مثل المستوطنون، وبخاصة المتدينين منهم نماذج غربية فائقة مبشرة حفزت الكاهن على العيش بينهم. لقد عقدوا العزم على الحفاظ على كل عهد معه وتوطيد كل رابطة به لكن ما أكثر الطوارئ والظروف المستجدة التي لا يمكنهم التنبؤ بها والتي جعلت التقيد بهذه العهود أمرًا مستحيلًا. لكن لعل أسوأ ما يسجل في هذا الصدد هو محنة المبشر في إقامة بيت للسكنى. صحيح أن السيد بالمر قد قدم عرضًا طوعيًا بإعطائه المال اللازم لهذا الغرض، ولو كان ثمة شخص يعول عليه في هذا الأمر لما وجد من هو أفضل من السيد بالمر، ولكن هذا الأخير قد استثمر مدخراته في البلدة الجديدة. كان السيد بالمر رجلًا حكيماً مقتصدًا وعندما اقترح عليه اثنان من الملاك مشاركتهم أحد المشروعات أحجم عن ذلك. كان المستثمران رجلين غير متدينين نابضين بالحماسة والرغبة في العمل والإنتاج لكنهما لا يؤمنان بـ*الغيبيات* ولا يأبهان بها، ومن ثم فقد كان من العبث التعويل عليهما في الاهتمام بحاضر ومستقبل الأحوال الأخلاقية في المستوطنة. إلا أن ذلك لا يمنعنا من إنصافهما بالإقرار بأنهما كانا معنيين بإنعاش الوضع الديني في قريتهما، وهما وإن كانا لا يقدران بحكم تكوينهما على أخذ زمام هكذا أمر بأيديهما فإنهما بحاجة إلى رائد وقائد يخطط ويكون قدوة ومثالاً وهذا أحد أسباب طلبهم من السيد بالمر مشاركتهم. كان هذا السبب كفيلاً بجعل السيد بالمر يعيد النظر في الموضوع لكنه شاور السيد بيسون قبل أن يقرر.

سأل السيد بالمر الكاهن بعد أن عرض عليه المسألة كلها:

ما رأيك في انخراطي بهذا الأمر؟

أجابه الكاهن قائلاً: *أمل إن أمكنك تحقيق نجاح مادي أن تصبح واحدًا من كبار الملاك بالمدينة،

وعندها أشعر بأنني أستند إلى ظهير قوي في جهودي من أجل صالح هؤلاء الناس دينياً واجتماعياً وأخال أن ليس ثمة مجازفة غير مأمونة في مشاركتك تلك، فلدينا كل ما نحتاجه هنا لإقامة محطة مياه ولدينا الغابات بأشجارها وخشبها ومحاجر الحجر كمواد للبناء، ولدينا مساحات شاسعة من البراري البكر صالحة للزراعة وعاجلاً أم آجلاً سيمر بالقرب منا أحد خطوط السكك الحديدية كما هي الحال على طرق السفر إلى المناطق المهمة غرباً وشمالاً. المهاجرون يفدون إلينا كل يوم وصرنا نقيم الصلاة ونلقي العظات بانتظام وآمل أن نحظى بمدرسة في أقرب الآجال”.

قال السيد بالمر: *وهذا ما أراه أنا أيضاً ويبدو لي أن بوسعي بالمثل تحقيق استعادة كبرى من وراء سلطة ونفوذ أحد ملاك المدينة الكبار”.

وهكذا قرر السيد بالمر المضي في مشروع الشركة. لكن بعض العقبات توالى فحالت دون تنفيذ مشروعات الملاك الكبار بالمدينة فالتكلفة والإنفاق متعاضمان بينما العوائد والأرباح ضئيلة ما دفع السيد بالمر لزيارة الكاهن ذات يوم قائلاً له بانفعال ظاهر:

*سيد بيسون أخشى أنني سأخيب رجاءك في ما يتعلق بالمال الذي وعدتك به لبناء الكوخ خاصتك”.

كانت هذه ضربة قاصمة بالنسبة للمبشر وكان صديقه بالمر يعرف مقدماً مدى وقعها السيئ على الرجل لأن الأخير وطن نفسه على قرب إقامة منزل لسكنى العائلة عندما تصل، وكم من مرة تبادلوا هو وزوجته الرسائل التي يتحدثان فيها عن الكوخ الأبيض الجميل الذي سيقام على مساحة الثمانين هكتاراً داخل كردون المدينة، وها قد تكدر صفو اجتماع العائلة ولقاء الزوجة بواقع كئيب مفاده أنهم حلوا ببرية لا كوخ فيها ولا سكن وكان الظن العكس، وأصبح الأمر أنه كلما تكرر سؤال الزوجة عن الكوخ و عما إن كان سيجهز في القريب ومتى سيصطحبها لتراه أن يراوغها في الإجابة من فرط خزيه وهمه، كما ضاعف من ذلك ما كانت تحسه من صمت أصدقائهم المقربين المطبق عن التطرق للموضوع ما جعلها تحزر جلية الموقف دون حاجة لكلام من أحد وذات يوم أزاحت عن قلبه الغمة الثقيلة بقولها:

*ألن يكون غريباً بمكان أن يصبح لدينا منزل أنيق مجهز كأفضل ما يكون بينما كل الناس هنا في البلدة الجديدة يعيشون في أكواخ خشبية ولا أظنك قادراً حتى الآن على بناء هكذا منزل فهو إذاً أمر مستبعد بلا جدال. لكن لا تحمل همّاً فإن كان الآخرون قادرين على الحياة بين جدران أكواخ خشبية من أجل تدبير المال فإننا بالتأكيد نستطيع فعل ذلك لدواعي أسمى”.

قال الكاهن وقد غمره الامتنان: *أنت كما عهدتك على الدوام*، وقص عليها ما كان من الأمور التي حكيناها سلفاً.

سألته: *وماذا نحن فاعلون؟ لا يجدر بنا أن نقبل ضيافة هذه العائلة الكريمة أكثر من ذلك فمنازلهم مكتظ بالفعل ما يجعل المقام معهم أمراً ثقیلاً عليهم”.

قال زوجها: *أعلم ذلك، ولدى السيد بالمر كوخ صغير عرضه عليّ للاستخدام المؤقت إلى أن يمكنني إقامة سكنى خاصة بنا لكنه كوخ ناء وخالٍ من أي وسائل للراحة وقد حرصت ألا أحدثك

بشأنه لئلا أزيد همك”.

قالت بنبرة مزاح: *أوه هيا خذني هناك اليوم لسوف يكون من المثير للغاية العيش في كوخ خشبي”.

وعلى ذلك أعدت عربة المضيف ذات الحصانين وذهبوا ليلقوا نظرة على الكوخ المعروض للإيجار. كان كوخًا صغيرًا بسيطًا أقيم على عجل طبقًا لحق الشفعة داخل حقل صغير مسيح قرب النهر على مسافة ميلين من المدينة وكان مسكن السيد جونز أقرب الجيران منا على بعد ميل ونصف الميل أسفل النهر.

كان السيد بالمر يتوقع مثل هذه الزيارة فسبقهم إلى المكان وقام بتركيب نافذة زجاجية وقارب ما بين الألواح الخشبية التي تشكل أرضية الكوخ حتى تلاصقت تقريبًا كما وضع بعض الرفوف المخصصة للأكواب في أحد الأركان.

هتقت المرأة ضئيلة الجرم قائلة وهي تضحك من صميم قلبها: *تلك هي البساطة والأناقة بعينها! ليس عليك يا زوجي إلا جلب بعض الكراسي وأحد المواقد وسوف ننقل فورًا إلى هنا* ونظرت عبر الباب وقالت: *انظر ثمة بطاطس هنا لم تستخرج من الأرض بعد. محصول وفير: لعلك تستطيع ابتياع حق استخدامها”.

أجابها الزوج قائلاً: *أوه بالفعل، لقد قال الأخ بالمر إنه يمكننا الانتفاع بالمنزل مجانًا وبكل ما يحيطه*.

قالت وهي تخطو تجاه السياج وتحملق في حافة النهر: *بما فيها أسماك النهر حسب ظني*.
جاء صوت من موضع قريب وبرز السيد جونز من بين شجيرات إحدى الأجمات وبندقيته تعلق كتفه: *أظن أنك لن تجد من السمك ما تحسب أنك واجده”.

قال الكاهن: *هذا جارنا، تلك زوجتي سيد جونز*.

قال جواب الآفاق: *تبحث عن عش يؤوي طيورك؟*.

أوما الكاهن بالإيجاب.

سأله جونز: *لقد وجدت الثمانين هكتارًا التي حدثتك بشأنها أليس كذلك؟*.
*بالضبط”.

تابع جونز كلامه: *وهل وهبها لك *الأخ سميث* هبة المسيحي التقي؟*.

قال الكاهن بنفس رضية: *أعتقد أنني مالكها الآن*.

أولم يتقاض منك أي مقابل لما لا يملكه، أو فعل؟.

قال المبشر: *لا هو لم يتقاض بنسًا واحدًا مقابل قطعة الأرض بالرغم من أنه يظن أن الواجب يقضي بأن أعطيه مقابلًا للتحسينات التي أدخلها على المكان”.

تحسينات! أجل أظن أنه ينتظر مقابلًا للعوارض الخشبية التي سرقتها من الغابة المحيطة بينما هو يضع يده على هكتارات وهكتارات من الغابات خاصته. ليس من العدل في شيء أن يأخذ مسيحي مقابلًا للألواح الخشبية التي سطا عليها من أراضي الغير. أدفعت له مقابل تلك الألواح؟

أجاب السيد بيسون: *أوه لا لم يرد في الفاتورة ذكر لذلك. لقد قام بتنظيف الهكتارات العشرة التي تعلقو النهر وسيجها وقال إنه بذل في ذلك جهدًا وتجشم تعبًا لا بد من مقابل له".

قال السيد جونز بحدة ظاهرة: *حسن لم يكن لدي علم بأنك يا موقر قد استأجرته ليؤدي هذه المهمة الصغيرة التي أعقد أنها أنجزت في العام الماضي لأننا نعلم كل ما يجري حولنا في تلك المناطق".

قال المبشر وقد تغير لون وجهه: *أجل، أجل*.

واصل جونز كلامه: *وإني لأحسب أنه تلقى المقابل الذي كان ينتظره فيما حصل عليه من الأرض. أنا لم أر محاصيل أجود مما غلته من ذرة وقمح ناهيك عن البطاطس والقرع العسلي التي زرعها عند أسفل النهر، أما أجزاء السياج الحديدي فليست له وإنما للغير سطا عليها وثبتها في الأرض، تلك الثمانين هكتارًا التي سرقتها وأجهدا بفلاحة وحرث التربة في موسم الصيف وقطع أجود الأشجار في فصل الشتاء وتحويل ما لا يهمه من أشياء إلى أسبجة وها هو مجددًا يأتيك – بعد أن حصل على كل القشدة وصار لديه ما صار من أرض ومال وفيرين – مطالبًا إياك كأخ مسيحي تقي أن تعطيه مقابل حصوله على كل القشدة وتحويلها لزبدة يتناولها على مائدته. هل لي أن أسألك ماذا تقاضى منك مقابل العملية برمتها؟*

قال الكاهن: *طلب في البداية ثمانين دولارًا ما لبثت أن تناقصت حتى وصلت لثلاثين دولارًا فقط*.

قال جواب الأفاق ساخرًا: *وعندما تقيم كنيسة لك سوف تختاره شماسًا أوليس كذلك؟*

قال الكاهن بهدوء: *أيها الجار جونز لقد اكتشفت أن المستوطنين هنا يعرفون جيدًا حقيقة السيد سميث، ومن كل ما عرفته يمكنني أن أقول جازمًا إن السيد سميث لم يكن عضوًا يومًا في أي كنيسة لكنه كان أحد أفراد طبقة عريضة تحاول جاهدة خداع المتدينين من الناس فتأخذ منهم ما ليس بحق تحقيقًا لأغراضهم الأنانية الشريرة. أنا لم أعطه الثلاثين دولارًا لأن له حقًا فيها، لكنني ضحيت بشيء مقابل ألا أعرض صالح الناس الروحاني للخطر بإفساح الفرصة لنشوب عراك مهما كان الحق معي، وخذها مني لسوف يأتي الوقت الذي يتعذب فيه ضمير هذا الرجل بسبب هذا المال مهما قل شأنه. لكن -مضيفًا ومغيرًا موضوع الكلام- نحن سنقوم بعمل تعليية فوق قطعة الأرض خاصتي بعد غد هل أستطيع الاعتماد عليك في مد يد العون لنا؟*

قال جونز: *آه ماذا ستقيم هناك؟ منزلًا خشبيًا؟*

رد الكاهن وهو يبتسم: *أوه لا، فقط بعض قطع الخشب. ملاك الأراضي في المدينة سمحوا لي بتفكيك المنزل الخشبي الذي كانوا يستخدمونه في الجهة الأخرى من النهر حيث إن أخشابه قد خلصتها الشمس من رطوبتها وجفت تمامًا ثم ننقلها ونقيم منها منزلًا فوق قطعة الأرض خاصتي

وزوجتي -ملتفتاً ناحيتها- أنت من سنعمتد عليه في عمل ما لذ وطاب من الأطعمة والشراب بهذه المناسبة".

أجابته قائلة: *لقد فاجأتني لكن بوسعي تجهيز المطلوب إن أمكنك تدبير اللوازم والموقد في أقرب الأجال".

قال السيد جونز: *إن شئت الحصول على بعض العون في البداية فسوف أرسل ولدي توم وأعتقد أنه لن يمانع مطلقاً في مساعدتك".

سألته السيدة بيسون: *أيمكنه الحضور اليوم؟*

قال المستكشف وهو يوسع الخطو في اتجاه منزله: *سأرسله في التو*.

سألت الزوجة زوجها بمجرد أن غاب جونز عن الأنظار: *ما الذي سنفعله بخصوص الموقد؟*

قال الكاهن: *سيبتيسر لنا ذلك بأقرب مما تتصورين".

وما إن قدم توم حتى طلب منه الكاهن أن يأخذ العربة الصغيرة ذات الحصانين ويذهب إلى المدينة ويخبر السيد بالمر بأن آل بيسون قرروا الانتقال إلى الكوخ وأنهم عازمون على الانتهاء من ذلك قبل حلول الليل فما كان من الرجل إلا أن أتى بصحبة توم ومعه عربة نقل على سطحها موقد طهي كبير وكيس دقيق وبعض الكراسي وبضعة أوعية وأوان فخارية ومواد غذائية متنوعة. وعندما حل الليل كانت عائلة المبشر قد استقرت في الكوخ الخشبي بطرازه الغربي، وفي الصباح التالي ستحسب عندما ترى زوجة المبشر أنها بنت المكان منذ أمد بعيد فها هي ترتدي ثوباً قطنياً نظيفاً مرقطاً ومريلة جميلة منهمكة في تحضيرها للوازم تدبير حاجيات المنزل.

قالت الزوجة: *أنا لا أنوي البقاء في منزل معار مدة طويلة يا زوجي فكم من الوقت تقدر حتى نستطيع القيام بأعباء العمل في كوخلنا الخاص؟*

أجابها قائلاً: *سيستغرق الأمر بضعة أسابيع وسنبذل قصارى جهدنا".

استطردت قائلة: *حسن لدينا أربعة أسابيع اعتباراً من اليوم ولو لم ينته العمل ويجهز الكوخ في حدود ذلك التوقيت فسوف أنتقل أنا حتى لو اضطررت لتركك هنا*.

سار كل شيء ببطء السلحفاة فيما عدا بناء المنزل! فقد سارع المستوطنون بكل همّة في إنجاز الأمر، فكان الرجال والعربات منهمكين في نقل الألواح الخشبية فيما كانت الأيدي الماهرة المتمرسّة تركيبها بعضها إلى بعض بأنسب ما يكون، حتى توج الأمر أخيراً بإقامة الرافدة الأفقية في ظهر السقف. ثم جلس الجميع فوق الحشائش ليتشاركوا تناول ما لذ وطاب من الأطعمة التي أحضرها توم والسيد بيسون ووضعوها فوق الأرض. كان ثمة البسكويت الخفيف والزبدة الصفراء وقطع لذيذة من لحم الغزال الذي سبق أن اصطاده السيد جونز وفتائر التفاح الجافة ورقائق كعك الزنجبيل الهشة وأرغفة اللحم الملفوفة والقهوة طيبة الرائحة.

قال السيد بالمر وهو يلكر برفق شخصاً يجلس بجانبه: *لم نجلب أي ويسكي بمناسبة إقامة الهيكل

الخشبي!*

أجاب الرجل: *لا لم نجلب وهو أمر آمل أن يحذو الجميع حذوه مستقبلاً*.

كان هناك باب لا بد من صنعه وتركيبه ونواذ تقام في مواضعها وكان ثمة شقوق بين الألواح لا مناص من ملئها بالملاط وأرضيات من اللازم فرد عوارضها ومهام أخرى مملّة، وكان الجميع متقلين بالعمل حيث لا مجال لاستئجار أيدٍ عاملة سواء *بدافع المحبة أو بداعي المال*. وقد اكتشف السيد بيسون أن معظم العمل يقع على عاتقه شخصياً مع بعض العون الذي يتلقاه من توم بين حين وآخر. كان الكاهن ربيب المدينة نشأة وتربية وكانت قواه البدنية أضعف ما تكون، لكن الضرورات حملته على القيام بمهام صعبة كقيادة العربات وتحميل الأشياء وممارسة أعمال النجارة ناهيك عن قطع الأحجار التي ستستخدم في تهيئة البئر قيد الحفر الآن. لقد أمكن في بضعة أسابيع إحداث تغيير رائع في شخصية إنسان لا يعرف من أمور الدنيا سوى محبة الكتب والولع بالفكر والثقافة، وكانت دراسته لصيقة به حيثما حل وأينما ذهب وها قد صارت كفاه الناعمتان خشنتين صلبتين واسمرتاً بفعل التعرض الدائم للشمس القوية واكتسب وجهه الشاحب سمرة لا تخطئها عين. وها قد أفسحت شخصيته وطباعه الانعزالية المجال أمام الانفتاح على الآخرين والتواصل معهم وتوارى حياؤه القديم الأصيل أمام جرأة وجسارة واتكال ظاهر على النفس، ما حدا به للتفكير في أنه قادر على القيام بأي شيء. وها هو السيد بيسون مستغرق في العمل من أجل إقامة منزل للعائلة بينما بقي الأولاد والزوجة بالكوخ المنعزل على حافة النهر. وكانت المسافة بين موقع الإنشاء والكوخ طويلة خاصة بعد يوم عمل مرهق وحلول ظلام الليل الدامس الذي يخشى معه أن يضل بيسون طريقه ويتوه. كانت تلك العوامل وراء قلق وخوف الزوجة، وكان بين أخشى ما تخشاه أن يصادفه ذنب متلصص أو بعض الوحوش الأخرى فكانت تفرع جرس منزلها الذي لم يكن سوى مقلاة من القصدير تظل تفرعها بقوة وعنف بواسطة محرك نيران الموقد. وقد قالت السيدة بيسون إن زوجها لا بد سيتعرف على هذا الصوت مهما كان موقعه بعيداً.

لكن الأسابيع الأربعة مضت وبالرغم من ذلك لم يكن بيسون ومن معه قد انتهوا من تركيب السقف لصعوبة الحصول على ألواح مناسبة ومواد أخرى لازمة، ولم يكونوا قد فرشوا سوى نصف ألواح الأرضية. كانت الزوجة شأنها في ذلك شأن أغلب النساء لا تنسى المواعيد والتواريخ. كان الكوخ الخشبي الذي يشغلونه مفتوحاً على مصراعيه وكانت رياح البراري باردة قارصة ولعدة أيام سقطت الزوجة مريضة، لكن في ذلك الصباح وبعد أن غادر زوجها الوفي البار الكوخ ليواصل أعمال النجارة شوهد توم وهو يسوق أمامه زوجاً من الماشية يجران عربة إلى داخل الأرض المسيجة وبعد محاولات كثيرة في النداء عليها بالتوجه يمناً ويسرة أمكنه إيقافهما قبالة الباب.

قال توم فيما كان الولد المشاغب شارلي يبرز من داخل العربة: *شارلي لازم الماشية حتى أنتهي من تحميل العربة*.

حمل توم برميلاً مملوءاً بالأواني الفخارية ولوازم أخرى كانت السيدة بيسون قد جمعتها خفية لهذه المناسبة وغلاية غسل تعص حتى حافظتها بأنواع الأغذية والمأكولات، ثم عمد إلى تعليق الكراسي بعرائش العربة وكذلك حمل قطع الأسرة ورتبها كلها ترتيباً حاز رضا وإعجاب زوجة الكاهن

النشيطة، ثم حمل ملاءات الفراش وملحقاتها بعد أن أحكم ربطها على هيئة صرر كبيرة وقال للسيدة بيسون *لسوف أهيئ لك مكاناً مريحاً تأوين إليه لأنك كنت مريضة*، ثم قام بوضع المراتب ثقيلة الوزن في مكان خال أفرده مسبقاً لهذا الغرض وفوقها الملاءات والشراشف الخفيفة، قائلاً لها فيما كان يمد لها يده ليعينها على الصعود والتربع على مقعدها الأملس بأعلى الحمولة وإلى جانبها الأطفال وهم في حال من السرور والبهجة *هنا لن تعودى تحسين بحركة العربة عند المسير*.

أما الثوران الصغيران الحرونان اللذان يجران العربة فقد أسلسا القيادة لتوم السائق والسائس المحنك الحكيم وكأنى بهما يعلمان أن على متن العربة زوجة أحد خدام الرب.

وتصادف وقتئذ أن أحد الصيادين المتهورين قام بإشعال نار في نطاق أعشاب البراري الجافة. وكانت السيدة بيسون قد انتبهت في الصباح إلى أن ثمة رائحة احتراق في الجو وبعض ضباب عالق، لكنها لم تلق بالآول ولم تشتم خطراً، لكن وعند اقترابهم من المدينة وقع أمر مهول على مرأى منها ومن الجميع. كانت النيران تندفع بوتيرة سريعة للغاية بفعل الرياح وتلتهم البراري حتى بلغت حزام الغابات التي تقع في نطاقها الثمانون هكتاراً خاصة زوجها الكاهن. كانت ألسنة النار تنز وتقرقع وهي تأكل ما تصادفه من أشجار الغابات بدءاً من أعشاب الأرض الجافة وصولاً إلى أعالي أشجار الصنوبر العتيقة الميتة، ولما كان مشهد الحريق يجري إلى اليسار منها فقد شهدته بوضوح طيلة الطريق.

سألها توم وقد أصابه الفزع: *ماذا سنفعل، أليس من الأفضل لنا أن نعود؟*.

أجابته قائلة: *أتظن أن النيران قد وصلت إلى أرض زوجي؟*.

تفحص توم بعينه الخبيرة مدى الدخان المتصاعد وفي الأخير أجاب قائلاً:

لا، إنها لم تصل لذلك المدى بعد.

استفسرت وقد اعتراها القلق: *أتظن أنها ستبلغ ذلك المدى؟*.

قال توم: *إن لم تغير الرياح اتجاهها فلن يمر وقت طويل حتى تبلغها علمًا بأنها ستعبر الطريق الذي سيعوقها بعض الشيء*.

سألته: *هل ستلتهم الكوخ آنئذ؟*.

أجابها توم: *أخشى ذلك*.

قالت السيدة بيسون بتصميم واضح: *حسن لقد قلت بأننا سننتقل إلى ذلك الكوخ خلال أربعة أسابيع وإن لم يحترق فسألتزم بكلمتي. وفي كل الأحوال فسوف نكون هناك ونرى كل شيء ونشهد الحريق*، ثم قالت وقد خالط كلامها بعض الأسى: *إني آمل إن شاء الرب أن نستطيع السيطرة على النيران في الوقت المناسب، لقد بذل زوجي من الجهد الكثير وعانى أكثر في سبيل الإقامة هنا*.

عندما اتجهت العربة إلى الشارع الرئيس في المدينة وقع بصر الزوجة على الكوخ الذي ينتظر أن

يصبح بيتها المنشود، ورأت زوجها أيضًا في نفس اللحظة وكان واقفًا فوق السقف يحملق في النيران الآخذة في الخمود. سمع الزوج قرقعة العجلات فيما كانت العربة تدنو من المكان، وما إن وقع بصره على العربة واستشعر غرابة المنظر حتى صاح قائلاً:

لماذا نحن هنا بحق السماء؟ زوجة وأطفال ومنقولات منزل! ما الذي يعنيه ذلك؟ هل أنتم بسبيلكم للهجرة إلى أقاصي الغرب، أهو كذلك؟

أجابته هاشة باشة: *إذا هبطت من عليائك حيث أنت الآن فسوف أتعطف عليك بالجواب. لقد سبق أن قلت لك يا زوجي إنني سأنتقل إلى الكوخ اليوم فهل سبق لك أن رأيتني أخلف وعدًا أو أراجع عن عهد قطعته؟*

قال وقد بدا عليه الارتباك: *لكنني لست جاهزًا لاستقبالكم، فنصف السقف لم يتم تركيبه بعد”.

أجابته قائلة: *حسن أنا لا أطيق أن أتركك هنا وحدك تكبح وتتصبب عرقًا في إقامة البيت معرضًا نفسك لمخاطر لا يعلمها إلا الرب. فقد تلتهمك الذئاب أو تضل طريقك في الليل، كل هذا لأنك تعتقد أن الكوخ لم يصبح بعد لائقًا بي ولا مجهزًا بكل ما يريحي. لماذا تصر على أن يكون كل شيء كاملاً غاية الكمال في هذا الكوخ كما كان دأبك في الشرق عندما كنت تكتب عطاتك وتحرص على أن تكون كل كلمة في موضعها الصحيح. الآن من فضلك هلا ساعدت توم في تفريغ الحمولة وفي حملها إلى الداخل وسوف أعد الشاي فورًا وسوف نعمل كلنا على بث الروح فيك وتشجيعك قدر استطاعتنا. لكن خبرني ما شأن هذا الحريق؟*

*لقد كانت فرصة كوخنا في النجاة من الحريق ضئيلة جدًا”.

قال توم فيما كان عائدًا: *أجل لقد خرجت لأنظر بالخارج ماذا يكون وقد اقتربت النيران من حدودكم ثم توقفت”.

طمأن كلام توم الكاهن إلى حد بعيد لأنه كان يعلم جيدًا أنه ما من قوة بشرية مهما كانت قادرة على إيقاف تقدم النيران، وكان بيسون يدعو الرب وهو معتل سطح الكوخ أن تغير الريح وجهتها. فهل كان ما جرى من توقف النيران في المكان والزمان المناسبين بالضبط هو جواب الرب على تضرعه الصامت ودعائه القلبي؟”.

الفصل الحادي عشر

السيدة العجوز سکنفلنت في مازق - تائهة في الغابة

ليس هناك إنسان سيئ قلبًا وقالبًا. تلك حقيقة لا ينكرها أحد، لكن المقرين بتلك الحقيقة يتناسون عندما يزنون المناقب والمثالب أولئك الذين يأثمون عامدين متعمدين عندما يتعلق الأمر بقول الحق وفعل الصواب.

وفي شخص السيد سميث تجتمع المحاسن والنقائص في آن معًا، ولعل الأخيرة ترجح الأولى في ميزان التفاضل لكن علينا أن نضع في الحسبان عند تقييم شخصيته ككل بعض الظروف المخففة، فحبه الطبيعي للمال زاد منه وضاعفه التأثير الخبيث لزوجته. كانت زوجة السيد سميث مجبولة على البخل عندما تزوجها، امرأة تتحكم فيها نزعة الاستحواذ والتملك لا تقرب في ما لديها وتحصل على أقصى ما يمكنها الحصول عليه، علاوة على نزوعها الأكل للسيطرة على الآخرين. وما أكثر الأحيان التي تدخلت فيها لتند نوازع الخير والغيرية التي قد تتحرك في نفس زوجها الأمارة بالحسنى إزاء بؤس وشقاء الآخرين، أو لتحول بين يده وبين أن تمتد بشيء من العون يخفف من ألم المكرويين، والآن وبعد انقضاء ثلاثين عامًا على ذلك الزواج القميء، بات الزوج ممتثلًا لروح الجشع والطمع التي بنتها فيه وخانعًا. تقول فيؤمن على ما تقول وتريد فيفعل دون تردد بحيث ظهر للناس في أعماله التجارية كأخط ما يكون خلافًا لبعض جوانب شخصيته الإيجابية. كانت السيدة سميث هي الفاعل الرئيس في *صفقة الثمانين هكتارًا* التي بيعت للمبشر والتي أثارت في نفوس المستوطنين جميعًا اسمئزازًا كبيرًا. في هذه الصفقة لعب السيد سميث دور القرد المنوط بالتقاط الكستناء المشوي من النار، وبالرغم من ذلك فلا بد من الإقرار بأنه تلهذ هو الآخر بتذوق ذلك الكستناء. كانت السيدة سميث امرأة داهية فقد توارت في الخلف خلال إجراء الصفقة فيما كانت توحى لزوجها بما يراد وما لا يراد، وهكذا لم ير الناس إلا السيد سميث في الواجهة شرييرًا جشعًا، ولو أتيح للناس أن يروا ما وراء الستار لأدركوا أن *تصفه الجميل* هو الأكثر شرًا والأعتى جشعًا.

لم يكن السيد بيسون قادرًا على دفع الثلاثين دولارًا، التي وافق السيد سميث بعد لأي على تقاضيها في مقابل التعديلات والتحسينات التي أدخلها على الأرض، دفعة واحدة، وبات السيد بيسون بعدها معرضًا للإلحاح المستمر من جانب السيد سميث لاستكمال المبلغ. ومخافة أن يتهاون زوجها في تحصيل المديونية أو أن ينقص منها شيئًا قررت السيدة سميث أن تقوم بتحصيل المديونية بنفسها. وعلى ذلك ارتدت ثوبًا صوفيًا أسود حائل اللون واعتمرت فوق رأسها أفضل قبعتها وشقت طريقها عبر الغابة صوب كوخ الكاهن.

عندما بلغت المكان لم تجد أحدًا سوى توم وبب في الداخل لأن السيد لنكولن كان قد حضر بعربته واصطحب العائلة للغداء بمنزله.

سألت الولدين: *هل الكاهن بالمنزل؟*

أجاب توم: *لا*.

ومتى سيرجع؟

قال توم: *لا أدري لكن من المنتظر أن يحضر زفافاً هذا المساء ولما كان الوقت يشرف على الرابعة فقد يصل في أي دقيقة الآن”.

قالت السيدة سميث: *إذا فسوف آخذ كرسيًا وأنتظر. ثمة صك دين صغير أرغب في استيفائه من السيد بيسون وأحسب أنه لن يمانع في سداه الآن”.

كانت السيدة سميث امرأة ثرثارة وفضولية وأخذت تمطر توم بكل صنوف الأسئلة المتعلقة بعائلة الكاهن ما أرهاق الصبي وأحنقه، خاصة وقد تذكر كم من مهام يتعين أداؤها خلال فترة ما بعد الظهرية فهو الآن دائم التردد على الكوخ لمعاونة الكاهن، ولذا سأل السيدة سميث عما إن كانت مستعدة لرعاية بب لأنه في طريقه إلى القرية قائلاً بأنه يعتقد بأن عائلة الكاهن ستعود قبل أن يعود هو. سرت السيدة العجوز بهذا الترتيب الذي سيتيح لها فرصة تفحص الواجبات المنزلية التي تؤديها زوجة الكاهن فتابعته بنظرها توم حتى اختفى أثره داخل القرية فشرعت على الفور في إجراء فحوصاتها. وكان أول ما فتحت باب الخزانة لترى على أي وضع رتبت الأطباق لأنها سمعت في ما سمعت أن زوجة الكاهن قد وقعت في محذور عظيم هو تأليف أحد الكتب وأنها لاحظت *أن أيًا من الناس إن أهدر وقته في مثل هذه الأمور فلا بد أن يكون مهملاً غاية الإهمال في القيام بواجبات المنزل*. إلا أنه ولخيبة أملها لم تصادف السيدة سميث في الخزانة ما يمثل أي خرق للنظام أو خروج على الذوق السائد فكل شيء كان مرتبًا بطريقة تفوق ما تفعله هي في الكرار ببيتها لكنها سرعان ما تنفست الصعداء عندما صادفت طبقًا متسخًا.

غمغمت قائلة وهي تتنفس الصعداء: *بالضبط كما حسبت*.

ما إن انتهت السيدة سميث من تفنيشها الدقيق لخزانة الكؤوس والأطباق، حيث تشممت الخبز لتعرف ما إن كان متعفنًا أم لا وكسرت قطعة من الكعك لترى ما إذا كان جيد الصنع والنوعية ولحست عن أطراف أصابعها بعضًا من بقايا الخوخ المطبوخ، حتى شرعت في التلصص تحت السرير كي تتيقن من عدم وجود أي أتربة، وعندها سمعت جلبة صادرة من الخارج فظننت أن الكاهن قد رجع فاستدارت وأغلقت باب الخزانة وجلست مجددًا وهي تمسح فمها بمريلتها. أتاح تغيير الوضعية للسيدة سميث أن ترى بوضوح الدرج المفضي للعلية التي تحتل مكانًا بسيطًا تحت السقف حيث اعتاد الكاهن استخدامها كمكتب عندما يود أن يخلو لنفسه، ومن أعلى الدرج رأت المرأة بب وهو يهبط على مهله وقد اعتمر قبعة الكاهن فوق رأسه ممسكًا بيده الممتلئة طرفها فوق حاجبيه لئلا تغطي عينيه، فيما استقرت نظارة الكاهن ذات الإطار الصلب فوق أنفه وانسدلت من ورائه متجررة عباءة الكاهن التي أضفت على المشهد مهابة. كان مرأى الصبي يدل على أنه يحس بأهمية كبرى ضاعف منها ارتداؤه الزي الكهنوتي وكان توهج وجهه دليلًا ساطعًا على ذلك.

صاحت السيدة العجوز: *لطفك يا إلهي! ماذا أنت فاعل يا ربيب الشيطان؟ ألا يمكنك التصرف بأدب وأنت في بيت الكاهن؟* وما إن استقر على الأرض حتى أمسكت به ولم تتوقف عن هزه بقوة

إلا عندما سقطت النظارة فوق الأرض.

لم يكن بب يتوقع هذا الاستقبال وفيما كانت السيدة سميث تجرده من ثياب الكاهن راح ينتحب متذمراً.

فتحت السيدة سميث الباب وقالت له: *اخرج الآن يا بب ولا تعد إلى هنا ثانية!* فهرع الولد مهرولاً بأقصى ما يمكنه من السرعة مبتعداً عن المكان.

كان على السيدة العجوز واجب إعادة عباءة وقبعة ونظارة الكاهن إلى مكانها الأصلي بالأعلى فتطلعت من النافذة لتتأكد من عدم قدوم أحد وصعدت إلى خلوة المبشر.

ها نحن أولاء قبالة الموقر السيد بيسون صاحب الأدوار العديدة فهو الواعظ تارة والراعي تارة والنجار تالثة والبناء والمزارع والطبيب – ولأن السيد بيسون كان على دراية لا بأس بها بالطب فقد كان المرضى يأخذون بنصائحه وعلاجاته إلى حد كبير – ها نحن أولاء في خلوته فنرى إلى أي حد أدى تعدد أدواره إلى ما نراه من فوضى وعشوائية في حال المكان وبخاصة عندما كان يستدعى فجأة وعلى غير توقع منه. أضف لذلك فإن كوخه مثله في ذلك مثل الأكواخ الأخرى في البلد الجديد تسرح في أنحاءه فئران المزارع محولة إياه حسبما كان السيد بيسون يقول أحياناً: *إلى مكان من الخطورة بمكان أن ينام المرء فيه وهو مفتوح الفم مخافة أن يخطئ الفأر طريقه إلى جحره ويدخله بدلاً منه". وسواء وقعت مثل هذه المصيبة المخيفة أم لم تقع فإن القوارض الصغيرة كانت تطارد بعضها بعضاً عبر العوارض الخشبية وتتقب في الخزائن وتعيثُ فساداً في الأسرة وتقضم أي شيء يناسب أسنانها الصغيرة الحادة وحتى كتبه وأوراقه لم تسلم من غاراتها الشرسة.

كان مرأى الصفحات وقطع ورق الكتابة وصحف الأخبار والمراجع القديمة يظهر إلى أي حد كان الكاهن عاجزاً عن ابتياع المطبوعات الحديثة فلا يكون أمامه من مناص إلا أن يقرأ القديم ويعيد قراءته وهو مستتكف كاره، وكان ثمة مظاهر أخرى للفوضى العارمة التي تسود المكان والتي كانت تبعث الغضب والاستياء في نفس زوجته، إلا أن هذا كله أدخل البهجة والنشوة على قلب السيدة سميث وكان عينيها عينا كولمبوس عندما وقع بصره لأول مرة على القارة الأمريكية.

هتقت بقوة وهي ترفع يديها أمام عينيها لتحجب ما تراه من فوضى: *بالضبط كما توقعت، فلطالما سمعت حكايات تقول إن تلك النساء المشتغلات بالأدب كسولات مهملات لا نظير لهن في الخمول وقلة الاعتناء وإني لعلى يقين من أن ارتباط رجل بإحدى هؤلاء النساء الوقحات المؤذيات لا بد أن ينتهي به إلى نهاية فاجعة يفقد فيها حياته. أليست صديقتي بتسي أن مثلاً ونموذجاً؟ إنها تقضي نصف وقتها في الزيارات ولم يحدث أن تأفف زوجها من إهمالها شؤون البيت. وكم عرفت من نساء يقمن بالتطريز ويلعبن البيانو ويرسلن الدعوات تلو الدعوات لزيارة بيوتهن ويحضرن حفلات الرقص حتى في أوج النهار لكنهن يفضلن الموت على هدر وقتهن في تأليف كتاب! لكن أتبدو كتبهن تلك لافتة للأنظار وهي مركونة فوق أرفف المكتبة؟ ولست أبالغ إن قلت بأن الكاهن سيضيق صدره ويتصدع رأسه إن عرف بما تحويه تلك الكتب من أفكار وخواطر وهو من هو في العلم والمعرفة كما يقول الناس. حسن لا ينبغي لي أن أبقى هنا أكثر من ذلك علماً بأن المكان لم يختلف قيد أنملة عما ظننت". عادت السيدة سميث إلى الغرفة بالأسفل ورفعت يديها مندهشة عندما

نظرت إلى الساعة فاكتشفت أنها بلغت الخامسة مساءً.

*أظن أن جون سيكون مضطرباً لعمل عشائه بنفسه أو يظل جائعاً، وللعلم فإنه اعتاد ذلك. لقد ربيت في زوجي عادة ألا يتوقع مني أن أشقى وأكدح في أعمال المنزل". ثم هتفت متعجبة: *لكن ليرحمني الرب! إلى أين ذهب ذلك الطفل؟ أخشى أن يكون قد تعرض للأذى* ثم فتحت الباب ونادت:

بب، بب! هلم إلى المنزل!

لكن بب لم يجب وعليه فقد فتشت في ما حول المنزل فلم تجد له أثراً، فأضافت ظناً منها أنه لم يجب لأنها هي من نادته:

*هلم إلى المنزل في التو واللحظة فتوم يريديك".

كان ثمة فسحة أرض صغيرة خالية حول الكوخ وبعدها يمكن رؤية أجسام كثيفة الأوراق والأغصان، وعلى مبعده تترأى الغابات على كلا الجانبين علاوة على الطريق المؤدي للمدينة. كان أقرب منزل في القرية على مسافة بضع ياردات فأسرعت صوبه لتستفسر لأن القلق بدأ يعتربها خوفاً على الولد الصغير. لكن الأطفال الذين صادفتهم يلعبون في الجوار قالوا بأن بب لم يعبر هذا الطريق وعليه فقد كرت راجعة وقامت بتفتيش جديد في جوار الكوخ تتادي عليه دون رد كما كان الأمر في السابق، ولما كان ثمة مسار عريض للعربات يبدأ من عند باب الكوخ ويفضي إلى داخل الغابة فقد تراءى لها أنه من المنطق أن يسلك الصبي ذلك المسار فهرولت مسرعة في ذلك الاتجاه.

سبق لنا أن قلنا بأن للسيد سميث محاسنه ومثالبه، وبالطبع لم تكن زوجته امرأة *فاسدة قلباً وقالباً* بالمعنى الجدلي الذي يقصده أولئك الذين يذهبون إلى أن الإنسان خطأ بطبعه. ولما كانت السيدة سميث قد أنجبت أطفالاً فقد استيقظت في داخلها غريزة الأمومة تجاه بب الغائب فأخذت تستحث الخطى عبر ذاك الطريق فيما كان الغسق يتكاثف شيئاً فشيئاً ويخيم على أعالي الأشجار السامقة. بدأت معالم الطريق تتشابه في عيني السيدة سميث كلما تقدمت، ولما لم تجد الصبي قررت أن ترجع وتخطر الجيران. لكنها وجدت الطريق وقد غطته من كل جانب الشجيرات الصغيرة النامية إلى جانب الأشجار الكبيرة لأنها فقدت الطريق الرئيس. أزاحت السيدة سميث بجهد جهيد فروع الشجر الصلبة وعادت إلى طريق العربات فيما ظنت لكنها ويا للأسف أخطأت التقدير مرة أخرى. أصابت السيدة سميث حيرة وارتباك كبيران بينما كانت تتوغل أكثر فأكثر في قلب الغابة. وخطوة بعد خطوة ومسافة وراء مسافة أخذت تغذ السير متعجبة أنها لم تر أثراً لكوخ الكاهن حتى الآن ثم إذا بها ويا لسعادتها تسمع صوتاً يشبه صراخ طفل. الآن انزاح عن فؤادها هم ثقيل.

قالت السيدة سميث لنفسها: *لا بد أنني قريبة من الكوخ وأن هذا هو بب* ثم نادى بحنان ورقة غير مألوفين عندها: *بب! بب! أين أنت؟*

أرهفت سمعها وقد توقعت استجابة فسمعت الصوت ذاته لكنه ويا للغرابة أكثر بعداً. وعليه فقد أسرعت الخطى منادية على الولد بأعلى ما فيها من قوة صوت. ولما نال منها التعب أخيراً وباعت

كل جهودها بالفشل توقفت لتستريح بعض الشيء وتستجمع شتات نفسها وقواها. كانت السيدة سميث ولوعة بحساب الأمور المالية وقد استيقظت في داخلها تلك النزعة الآن فأوحت لها بأنها قد تجاوزت المسافة المطلوبة عدة مرات فهل هي ماضية في الاتجاه السليم، ملأ الرعب نفسها عندما خلصت إلى أنها قد تاهت في الغابة وضلت طريقها. كما أنها تذكرت ما سمعته مؤخرًا من أن الناس سمعوا صوت فهد يتناهى من داخل الغابة وأنه يشبه صوت صياح الأطفال ما زاد من خوفها.

وفيما هي تفكر مليًا في كيفية الخروج من ورطتها تناهى إلى سمعها من أعماق الغابة خلفها عواء سريع قصير سرعان ما تبعه عواء طويل، إنه صياح *ذئب الغابة* المتعطش للدم الذي ما إن سمعه مرة حتى يستحيل علينا نسيانه أبدًا. لقد عركت طويلًا الحياة في البرية ولم تكن تعرف ماذا يعني ذلك العواء فأخذت في الهرولة قاطعة الطريق بأقصى سرعتها جاهلة مقصدها. بدأت أوصالها المرتعشة تخذلها لكن العواء المخيف للذئب علا مرة أخرى ثم أعقبه عواء ذئب آخر وثالث ورابع ما دل على أن عواء الذئب الأول قد استدعى الذئاب الأخرى إلى الطراد وتعقب الفريسة، ما حدا بالمرأة إلى نسيان أمر ضعفها وخور جسمها، فبدأ وكأنها تخفتت من ثقل جسمها فأسرت خفيفة لا تنشد إلا النجاة بحياتها. كان هذا السباق غير متكافئ وكانت نهايته الفاجعة ماثلة أمام عينيها وهي تسمع أصوات الحيوانات المفترسة تقترب رويدًا رويدًا، وإذا بها ويا للقدر السعيد ترى قبالتها كوخًا صغيرًا مهجورًا. كان ذلك الكوخ مأوى يستخدمه الحطابون في الشتاء إبان موسم قطع الأشجار. كان باب الكوخ مخلوعًا من مفصلاته فمقرت السيدة سميث إلى الداخل وكلها يأس وقنوط وبحثت حولها عن ملاذ يحميها، لكن الغرفة كانت خالية من أي ساتر أو حاجز أو ما شابه. وعلى حين بغته كانت السيدة سميث وكأن قوة علوية حملتها فاعتلت جانب الكوخ حيث صادفت رافدة تقضي إلى طابق علوي فتوقفت هناك منشبهة بالحائط وكأنها تمثال من الرخام لا حراك به ولا حياة، بينما عجزت الذئاب عن الوصول إليها في مكانها المرتفع ذاك وأخذت تلحق أشداقها وهي تراقب فريستها حتى انبلج الفجر حيث وجدت بعد ذلك فرقة من الناس كانت تبحث عنها طوال الليل. كانت عاجزة عن الكلام عندما وجدوها وظلت على حالها تلك لا يمكنها أن تروي ما حدث لها. وكان أول ما استعلمت عنه بعد ما أمكنها تذكر ما جرى هو بب الصغير.

قال أحد الرجال وهو يهدئ من روعها: *أظن أنه بكل خير الآن*.

لكن لما أصرت على الذهاب إلى كوخ الكاهن للتيقن من سلامة بب أعانوها على بلوغ الكوخ حيث كانت بعض النسوة مجتمعات وبينهن السيدة جونز وكلهن قلقات جزعات على الطفل المفقود بلا أثر حتى اللحظة.

عندما نزلت السيدة سميث بيدها النحيلة ثياب الكاهن الكنسية، بكل غلظة وفضاظة، عن بب أحس الطفل بأن حقوقه انتهكت وكرامته أهينت بصورة لا مزيد عليها ومن ثم فقد قرر أن الطريقة الوحيدة لرد اعتباره وصون كرامته هي أن يهرع جريًا إلى المنزل فيحيط أمه علمًا بهذا الانتهاك الفظيع.

ولما كان شكل الأرض في خلفية كوخ الكاهن يشبه إلى حد بعيد شكل الأرض في خلفية كوخ والده

فقد سلك هذا الاتجاه بدلاً من الاتجاه الذي سلكته السيدة سميث. وبعد أن قطع مسافة معتبرة رأى النهر الذي يمر خلال أرض الكاهن. وإذا رآه تذكر أن ثمة نهراً يجري خلف كوخ والدته ومن ثم خلس إلى نتيجة مفادها أن منزله كائن في الجهة الأخرى المقابلة للنهر. وها هي أعواد الذرة المتبقية تنتصب في الأرض الخالية بالجهة الأخرى وهي تشبه الأعواد التي قطعها توم وكدها. وعليه فقد أخذ بب يمشي صعوداً وهبوطاً على طول الضفة بحثاً عن طريق عبور يسلكه حتى كلت قدماه إلى أن بلغ موضعاً فيه شجرة قطعت وطرحت أرضاً لتكون معبراً للسالكين وقنطرة وحيدة للعبور إلى الجهة الأخرى، حيث استقرت أعالي أغصانها في تلك الجهة بالضبط مثلما كان الجسر الذي يمر أسفل كوخ والده والذي طالما نهاه والداه عن السير فوقه. ولطالما تم تحذير بب بهذا الخصوص ولطالما أثار خطر المرور به انفعال الصبي الصغير حتى إنه لم ينسه للآن وإذ هو مستغرق في التسرية عن نفسه بإلقاء العصي في المياه ومتابعتها وقد راح تيار الماء يجرفها بعيداً أخذ في المناداة:

أماه تعالي انقذي بب إن لم تريدي رؤيته غارقاً.

ولما لم تظهر أمه نادى بأعلى صوته على سارة حتى بدأ الغسق يسدل أستاره فأحس بب بالخوف من أن يطول أمد الموقف فاعتلى الشجرة. كانت الشجرة على ارتفاع شاهق من فوق سطح المياه وكان شعر رأسه المجدع يتماوج على سطح المياه كلما نظر للأسفل ولما كان عاجزاً عن السير بثبات فقد جلس وحاول أن يتقدم شيئاً فشيئاً مثلما شاهد سارة تفعل من قبل. لكن هذا لم يفده كثيراً فبدأ يزحف على يديه ورجليه وبهذا الزحف الحذر الذي مكنه من أن يصبح أكثر تنبهاً بات أكثر قرباً من الوصول وعندها سقط وحبس أنفاسه من الرعب. إلا أنه ولحسن حظه سقط فوق الفروع السفلى فأعانتته حتى تمكن من استعادة القبض على جذع الشجرة ولم يمر وقت طويل حتى وطأت أقدامه الصغيرة اليابسة.

كانت الأرض المحروثة المجاورة للنهر غير مسيجة وكانت الضفة شديدة الانحدار بحيث يتعذر على الماشية الشاردة الاقتراب منها، وقد صادف بب صعوبة في تسلقها لكن لما كان الولد جائعاً ولا تزال عنده بقية من عزم وبالرغم من قصر رجليه وتعثره المتكرر فقد أفلح أخيراً في تسلق الضفة. أخذ بب يجوب حقل الذرة باحثاً عن كوخ أمه بلا جدوى وقد باعت جهوده كلها بالفشل فأدرك أن صياحه وبكائه غير ذي نفع. وكان التعب والخوف واليأس قد نالوا منه فأمال برأسه فوق لفيفة من أعواد الذرة ثم انحدر برفق من فوقها حتى أصبح على التربة الناعمة مستغرقاً في النوم فيما كانت الظلمة تسود المكان.

لكن أين كان توم؟ عندما رجع من أداء مهامه فوجئ بغياب السيدة سميث وبب عن كوخ الكاهن وظل واقفاً جامداً بلا حراك ولا يدري ماذا عليه أن يفعل إلى أن وصل الكاهن وفي التو صارحه توم بما يحيره.

قالت السيدة بيسون في توجس: *أتظن أن المرأة قد قصدت بيتها تاركة وراءها بب وحده هنا وأن الولد قد شرد بعدها؟*.

أجاب زوجها: *لا أظن أن امرأة بمثل عمرها من الحمق والطيش بحيث تفعل هذه الفعلة ولعلها

ذهبت إلى القرية مصطحبة الولد مخافة أن يتعرض لأي مخاطر. لعل من الأفضل يا توم أن تمضي إلى القرية وترى ما هنالك”.

هرع توم على الفور نحو القرية وعندها سمع صياح أحد الفتيان:

هل وجدت المرأة العجوز بب؟ ثم حكى له كيف أتت إلى القرية بحثاً عن بب، توجس توم خيفة وكر عائداً وأخبر السيد بيسون بما سمعه من الفتى.

قال الكاهن: *لعل السيدة العجوز قد ملت من الانتظار فاصطحبت معها بب إلى البيت. خذ العربة وتوجه إلى هناك”.

اكتشف توم أن السيد سميث لم ير زوجته وعندها أيقن أن ثمة أمراً جلاً قد حدث وقال:

*لقد أخبروني في القرية بأن زوجتك جاءت إليهم بحثاً عن بب. ربما يكون الاثنان قد تاها في الغابة والآن إن أمكنك تجميع المستوطنين هنا فسوف أستنفر القرويين ونقوم بالبحث سوياً”.

كنا قد حددنا طريقة البحث عن المرأة المفقودة فقمنا مراراً بتفتيش الأرض المجاورة لكوخ الكاهن والتي تقع على جانب النهر، وقد انتهى الجميع إلى استحالة عبور الطفل النهر وأنه إما انقض عليه حيوان مفترس أو أنه سقط في مياه النهر وغرق. وتهاياً الجميع لمسح النهر بحثاً عن جثة الطفل عندما رأى أحدهم نتقة من ثوب تعرف عليها توم بوصفها قطعة من ملابس بب تطل من أعلى غصن صغير بالشجرة – الجسر بين الضفتين.

صاح توم: *لا بد أنه موجود على الضفة الأخرى* ومع تجدد الأمل في العثور على الولد انطلقت جماعة الباحثين ليبحثوا في الحقل وهم يصيحون باسم بب.

جاءهم صوت طفولي مجيباً على النداء *هأنذا!* وجدوه جالساً على الأرض وقد راح يستخرج بقوة حبات الذرة من أحد الكيزان وشاهد الجميع آثار أخاديد الدمع الذي سال على خديه جراء المحنة التي مر بها وقال بب بنبرة من يحس بأنه قد خدشت مشاعره بتخلي الجميع عنه:
*أنا لم أتعش”.

لقد أخبرنا بعض اللاهوتيين بأن من الخطأ التوجه إلى الخطاة من خلال مخاوفهم وأن الحب هو الوحيد الكفيل بإصلاح ما فسد من أمرهم. ولعل السيدة سميث جبلت من طينة أخرى بخلاف بقية الناس، لكن أخطاء تلك الليلة قد خلفت في نفسها تغييراً كبيراً وقد فوجئ السيد بيسون ذات يوم بالسيد سميث يزوره في كوخه وقد جلب ربع عجل من لحم البقر قائلاً له فيما كان يقوده داخل الكوخ:

أيها الموقر لقد ذبحت ثوراً ورأت زوجتي إن لم يكن في ذلك إهانة أن أجلب لك قطعة منه مضيفاً وهو يهيم بالمغادرة: *وها هو إيصال الاستحقاق الآجل الذي أعطيتني إياه مقابل التحسينات التي أدخلتها على الهكتارات العشرة، تقول زوجتي إنك دفعت فيها ما تستحقه وزيادة لقد أشرت عليه بأن القيمة قد دفعت وهذا منتهى العدل والإنصاف إن وافقتني الرأي. وبالمناسبة إن نفدت الزبدة عندكم فما عليك إلا أن ترسل لنا وسوف نوفر لكم بضعة أرطال بين الحين والآخر كلما

تسنى لنا ذلك”.

الفصل الثاني عشر

حريق وفيضان

كان المبلغ الذي تعهد المستوطنون بجمعه لا يفي بدعم عائلة المبرشر، وبالرغم من أن أمين الصندوق قد بذل قصارى جهده إلا أنه لم يتمكن من تحصيل بعض ما كان مفروضًا على أناس وردت أسماؤهم في لائحة المتعهدين بالمساهمة. لم يحس أحد بالانزعاج مما يجري قدر ما كانت زوجة الكاهن تحس. كانت امرأة محنكة مدبرة وذات قدرة بديعة كما أشار زوجها أكثر من مرة فهي تجعل *الدولار الواحد بقيمة ثلاثة دولارات وتصنع بأقل القليل من العناصر والمواد وجبات كاملة شهية*. لكن يجب القول بأن شهية العائلة الصغيرة التي كانت تثيرها وتفتحها عوامل البيئة البرية ما كانت لتجد ما يشبع النهم، وما أكثر ما كان الجمع يغادر المائدة شحيحة الأطباق والأصناف وهم أقرب إلى الجوع منهم إلى الشبع.

في مثل هذه الظروف لم يكن يملك السيد بيسون إلا أن يواسي زوجته بما يمكن قوله عن الرخاء والرغد القادمين قريبًا لا محالة. وهم يعرفون حق المعرفة أن أغلب المستوطنين قد وصلوا هنا حديثًا وعليهم أن يبتاعوا كل شيء لأنهم لم يمضوا في المكان مدة تكفي لزرع الأرض وحصد المزروع. لكن ها قد مرت سنة حرثت وزرعت خلالها كثير من هكتارات الأرض الخصبة وثمة بشائر تنبئ بغلال وفيرة. ولما كان المبرشر يفتقر إلى قدرات الفلاحة ويود بطبيعة الحال أن يكرس جهوده المتاحة للمهام الروحية الموكولة إليه في أبرشيته الناهضة، فقد أجر الهكتارات العشرة القابلة للزراعة خاصته إلى أحد الجيران لزراعتها بمبدأ المشاركة، مقتطعًا رقعة صغيرة زرع بها بعض باكورة البطاطس ومجموعة متنوعة من خضروات الحدائق. ولما كان الشخص الذي حمل على عاتقه عبء زراعة بقية الأرض مزارعًا ذكيًا خبيرًا وصاحب تجربة في العمل باستخدام العربات وتأجير العمال، فقد اطمأن قلب الكاهن إلى تزود عائلته بما يكفيها من ذرة وقمح تغلها الأرض. ولم يكن ثمة مؤشر على نيل محصول وافر أفضل من قاع ذلك النهر السريع المعطاء. لقد أينعت أعواد الذرة وبلغت من الطول مبلغًا غير مسبوق وتزاحمت على جانبيها كيزان ذرة هائلة الحجم ولم يتأخر محصول القمح عن منافسة محصول الذرة كمًا وكيفًا، وتبارت محاصيل القرع واليقطين أيها يبز الآخر في محصلة العدد والحجم، واستتبت السيد بيسون نوعًا خاصًا من قصب السكر اشرب حتى بلغ طولًا غير عادي. صحيح أن بعض ماشية الجيران الشاردة الجامحة اقتحمت الحظيرة المسيجة أكثر من مرة، وأن خنزيرة حرونا وأولادها الأحد عشر الجامحين قد شنوا غارات لا تحصى فسلبوا ما سلبوا وخربوا ما خربوا ما أوقع الكاهن في متاعب جمّة تتعلق بطرد الدخلاء وتأمين المكان، لكنه أخيرًا تمكن من الحصول على مدد وفير من عوارض خشب البلوط المجففة لتمتين السياج وقال لزوجته فرحًا:

*سنة أخرى وأتحدى أن تتمكن أكثر الحيوانات جموحًا وحرثًا في المستوطنة من سرقة كوز واحد من الذرة أو حبة بطاطس من الأرض".

مر الصيف وأصبحنا في أواخر الخريف وذات يوم جاء الرجل القائم على زراعة أرض السيد

بيسون لزيارته وبدا مبتتسًا للغاية.

قال للكاهن: *أيها الموقر زراعتنا هذه السنة لن تغل شيئًا يذكر".

سأل الكاهن: *لماذا، كيف ذلك يا صاح؟*.

أجاب المزارع: *أنت تعرف أنني شأني في ذلك شأن أغلب المستوطنين قدمنا من بيئة أدفا من هذه وقد أخبرونا أيضًا أن موسم النمو طويل هنا مثلما هو هناك، فتخيرنا أفضل ما نعرف من بذور وجلبناها معنا لكن لم يتسن لها الوقت لتتضج وتؤتي أكلها والذرة غير صالحة للطحن كما أنها لا يمكن حفظها لأنها جد خضراء طرية. لقد أصبت بخيبة أمل كبيرة لكن هذه هي حال أغلب جيراننا".

ليس ثمة كلمات يمكن أن تعبر عن وقع الصدمة وخيبة الرجاء التي حطت على رأس المبشر.

تساءل الكاهن: *محصول القمح جيد، أليس كذلك؟*.

*أجل لكنك تعرف أننا بذرنا أقل ما يمكن من القمح لأن الأرض صالحة أكثر لزراعة الذرة".

وهكذا اتضح أن نصف الهكتار الذي اختص المبشر نفسه بزراعتة قد قدم غلة أكثر بكثير مما غلته الهكتارات التسعة والنصف الأخرى، علمًا بأن المزارع كان بينه وبين نفسه يهزأ بالطرق والوسائل التي اكتسبها الكاهن من حياته بالمدينة. وهكذا تأجلت سنة الخير والوفرة اثني عشر شهرًا أخرى.

تلك الهكتارات الثمانون! لكم اطمأنت نفوس الكاهن وزوجته إلى أنها أصبحت في حوزتهم أو على الأقل أوشكت على ذلك! وكم من مرة طاب لهم مرآها وانبساط أرضها وتدرجها بين هضاب ووديان فراحوا يقدرون قيمتها المستقبلية! وكذا البستان القريب من الكوخ بأشجاره الباسقة الياضعة المثمرة وكم من المرات تمشت العائلة كلها في ظلاله الوارفة سعيدة هانئة! ويا للسعادة عندما كانوا يلاحظون مدى التقدم في تنقية وتطهير ما تحت الأشجار الكبيرة من شجيرات صغيرة طفيلية ومن تقليم للأغصان الزائدة عن الحاجة!

قال الزوج في أحد الأيام: *عندما يتم دفع ثمن الأرض بالكامل سأكون سعيدًا للغاية. فلنحسبها، ثمانون هكتارًا، قيمة الهكتار الواحد دولار وخمسة وعشرون سننًا بالسعر الحكومي يكون إجمالي المبلغ مئة دولار. أعتقد بأن عليّ الأخذ باقتراح السيد جونز وبيع بعض الأشجار عبر النهر فورًا طبقًا لمبدأ الشفعة. لقد عرض عليّ مبلغ ثلاثين دولارًا في الهكتار مقابل قطع أشجاره وبهذا المعدل تكون ثلاثة هكتارات ونصف فوق كفايتنا".

تم البيع وباتت المئة دولار في حوزته وذات صباح اتخذ الكاهن طريقه، ممتطيًا جوادًا صوب مصلحة الأراضي الحكومية والتي كانت تبعد عن المكان سبعة وثلاثين ميلًا. إن جولة على متن جواد عبر براري مينيسوتا لأمر يبعث النشوة والبهجة في نفس صاحبها وقد كان الحصان وراكبه منسجمين منتعشين. والظاهر أن رياح البراري القوية قد أعاققت تقدمه حتى إنه بلغ الموضع المنشود في غضون خمس ساعات في موعد تناول شاي الخامسة مساءً، وفي صباح اليوم التالي

اصطحبه أحد المحامين من معارفه إلى مصلحة الأراضي الحكومية وفي معيتهما شاهد يؤكد بعد أداء القسم القانونية صحة كلامه حول الأرض التي يرغب في إلحاقها بأرضه طبقاً لمبدأ الشفعة من كوخ وملحقات أخرى يقرها القانون، وما إن دفع المئة دولار حتى انصرف متوجهاً إلى بيته قرير العين هائئ القلب.

استحال النهار عتمة وامتألت السماء بالغيوم وما كان الكاهن ليرى أمامه سوى مسار عربات لا يكاد يبين عبر البراري واكتشف الرجل بحلول المساء أنه ضل طريقه. لم تكن ثمة أكواخ يمكنه الاستدلال بها وتصحيح خطئه وبعد بذل الكثير من الجهود المضنية العقيمة للعثور على المسار الأصلي، ترك الحصان يتخذ مساره بنفسه، فإذا به يحمله بطريق مر خلاله من تحت أشجار واطئة الفروع وعبر أجمات سائكة الشجر والنبات وخلال مستتقع ثم يخرج في نهاية المطاف ويعود به من حيث أتى، لكن هذه المرة بطريق أقصر بكثير من طريق الذهاب وذلك على طريق الضفة البعيدة للنهر القريبة من البلدة.

عندما اقترب الكاهن من القرية لاحظ تصاعد كميات ضخمة من الدخان. ثم رأى السيد بالمر صحبة عصابة من الرجال منهمكين في متابعة أمر نيران مشتعلة في الأدغال. كان ثمة حائل من اللهب يفصل بينه وبينهم. اقتحم الكاهن الطريق واندفع نحو حدود اللهب المتوهج وأوماً له السيد بالمر قائلاً:

لدينا أخبار سيئة لك لكنها في نهاية الأمر ليست بالسيئة جداً كما قد يبدو الأمر. لقد شبت بالأمس نيران بالقرب من مكانك وكادت أن تأتي على البلدة.

هتف الكاهن بقوة: *نار هناك! كيف بدأت؟*.

قال صديقه الأعزب: *لا يمكنني التوقف لأخبرك لكن زوجتك ستخبرك بكل شيء عندما تصل للمنزل. ولولاها لكنا في خبر كان الآن*.

يا له من مشهد فاجع آذى عين ونفس الكاهن عند دخوله البلدة! فالمنطقة كلها التي كانت من قبل مرجاً أخضر بدت وكأن قنينة حبر هائلة قد انسكبت محتوياتها فوقها فسودتها. هداً روعه بعض الشيء عندما رأى أن الكوخ والمنازل الأخرى كانت على حالها، بيد أن زوجته استقبلته بوجه عابس مربد مغاير تماماً لما عهد منه من بشاشة وإقبال. كان صعباً على نفسه أن يراها وقد عانت وتألمت، وبالرغم من أنه لاحظ وهو بعد فوق صهوة جواده، أن النيران لم ترحم بستانه الأثير وأنت على العوارض الخشبية التي كان يتيه فخراً بها وأفسدت حال الكثير من الأشجار الواعدة، فإنه وبشق النفس أخذ في تهدئة روعها ومواساتها.

قال الكاهن: *أوه هذا لا شيء، لا شيء على الإطلاق! ثم ماذا كان ليحدث لو أن النار امتدت إلى الكوخ وأصبحت أنت والأولاد في خطر داهم*.

*بل قل ماذا كانت الحال ليكون لولا التحرك السريع لمالك القرية السيد كاسويل الذي هب لنجدتنا بكل طاقته على رأس عصابة من الرجال والعربات ممن جلبوا معهم براميل ماء كبيرة السعة ودلاء كانوا يستخدمونها في إطفاء النيران. عليك أن تشكرهم لأنهم عملوا كما لم أر رجالاً يعملون من

قبل”.

سأل الكاهن: *لكن كيف اشتعل الحريق؟*

أجابته قائلة: *كيف، الأمر وما فيه أنه بعد مغادرتك المنزل قلت للأطفال: *أبوكم ذهب إلى مصلحة الأراضي الحكومية ليدفع ثمن الأرض وعلينا أن نبادر الآن لنجعل كل شيء في مكانه الصحيح قبل أن يعود*. حسن أنت تعرف أن ثمة رقايات خشب متناثرة هنا وهناك حول الكوخ لا تكاد تبين لم يتسن لك أن تزيلها. فما كان منا إلا أن أخذنا نكومها أكداً صغيرة، وفيما كنا منهمكين في عمل ذلك سمعنا صوت إطلاق نار في الأدغال القريبة منا. كان الصباح كما تذكر هادئاً تماماً، لكن ما إن أطلقت النيران حتى علت المكان سحابة غبار حاملة معها كتلة ملتهبة أضمرت النار في جذع شجرة جاف على بعد ياردات قليلة. وقبل أن أتمكن من الوصول للمكان كانت النار قد اندلعت في كل ما هو قابل للاشتعال وتطايرت في المكان ألسنة اللهب وفي الحال شبت النيران في أكثر من مكان. ولما رأيت أن من المستحيل وقف تمدد النيران أرسلت هيلين إلى أقرب الجيران لأخطره بالأمر، وكما سبق وقلت إنه لولا عون الجيران الذين هبوا لمساعدتنا لما نجا الكوخ من الاحتراق وقد كافح الجيران كفاً مريراً لحماية منازلهم من امتداد النيران إليها”.

بعد كل ما حدث كان المبشر يجوب يومياً أرضه المتقحمة متفكراً في صيرورة كل ما هو دنيوي إلى الزوال، وهو أمر طالما وعظ رواد أبرشيته بحتميته فيما كانت زوجته تتعم النظر إلى وجهه المبتسئ بينما يظل يكرر مشدداً نبرته أنه لا يقول ذلك إلا لمصلحته ومصلحتها بذات القدر:

أوه كل هذا لا أهمية له ولا وزن. لا أهمية له ولا وزن، وفيما هو يرفس بقدميه الحطام المحترق للعوارض الخشبية وينظر في حسرة وغم *وبالنسبة لتلك العوارض ليس لها أهمية على الإطلاق فالقطاع عبر النهر مسيح جيداً وبعد كل شيء من حسن الحظ أن النيران لم تمسه وسيظل آمناً لسنة قادمة”.

ذات مساء بُعيد أيام قليلة، كان السيد بيسون جالساً بمكتبه في عليية الكوخ مستغرقاً في القراءة فغشيت الصفحة أمامه ظلمة غير مألوفة أعقبها قصف رعد شديد. تتابع القصف لمدة تزيد على الساعة دون توقف وهطل المطر بصورة لم يعتدها من قبل خلال إقامته بالشرق وبدا وكأن سحباً كثيفة كانت تفرغ حمولتها من المطر فوق البراري والغابة فيما كان وميض البرق يتوالى المرة تلو الأخرى فيضيء المكان. ظلت الحال على ما هي عليه من رعد ومطر وبرق ليلتها وفي اليوم التالي وفي اليوم الثالث ولولا عهد قطعه الرب على نفسه منذ طوفان نوح لظن الناس أن ثمة طوفاناً آخر يوشك أن يمحو البشر من فوق سطح الأرض. بمنصف ليل اليوم الثالث من العاصفة الهوجاء استيقظت عائلة المبشر على صوت صيحات قوية تتناهى إلى أسماعهم من القرية بالأسفل.

تساءلت السيدة بيسون: *ما الأمر في ظنك؟*

قال زوجها: *أعتقد ألا خطورة هناك فموقع البلدة يتدرج هابطاً نحو النهر ومن الجائز أن تكون المياه الفائضة قد دخلت بعض الأفنية والحدائق وغمرت بعض زرائب الخنازير وفتن الدجاج وأن

الجيران عاكفون الآن على إنقاذ دوابهم وماشيتهم ودجاجهم".

طلعت الشمس في الصباح التالي وكأنها *عريس خرج من غرفة نومه وقد ظفر بفرصة وضع بذرة ذريته* فأفاضت ضيائها على الحقول التي أغرقتها أمطار الأيام الثلاثة الفائتة مزيلة بذلك آثار الخراب الذي سببته العاصفة الهوجاء. ولقد تبين أن النهر الذي يجري على مبعده قصيرة من البلدة قد اعترض سريانه أشجار مينة وأغصان أشجار وتربة مفتتة، فتراكمت على إثر ذلك كتلة ضخمة من الماء سرعان ما أخذت طريقها مفسحة المجال أمام الماء ليندفع بقوة هائلة ليغمر جانباً كبيراً من الأرض ويكتسح كل ما هو متحرك في طريقه. غرق الكثير من الأكواخ واستيقظ النائمون على الماء يتلاطم عند أسرتهم بينما طفت قطع الأثاث عائمة في أنحاء الغرف. كانت هذه دواعي الصياح والصراخ الذي صك سمع السيد بيسون.

أما كوخ آل جونز فقد عملت الأسرة على تأمينه جيداً في وجه الحوادث العادية، لكن في الليلة المذكورة استيقظ توم على شيء بارد يمس يده إذ تدلت خارج الفراش أثناء نومه فغمرتها المياه التي دخلت الغرفة وتسارعت وتيرة ارتفاعها. نادى توم على أمه والأطفال وأشعل ضوءاً وقفز في الماء حاملاً بين ذراعيه موجهاً تحركات الجميع ليسرع بهم إلى خارج الكوخ بعيداً عن ضفة النهر قدر ما يمكنهم بلوغه. يا لحكمة العلي القدير التي شاءت أن تتدلى يد توم القلق في نومه من أعلى السرير في هذا التوقيت! لأنهم وما إن ارتقوا تلك الهضبة وراء الحقل التي لم يرتقوها من قبل حتى تهاوت أركان الكوخ وتطايرت أجزاءه وارتطمت ببعضها وتلاشت عن الأنظار.

لقد أصبحوا الآن أكثر فقراً مما كانوا عليه ودفعهم تكاليف البرد والبلل والبرق الذي لا يني يومض حولهم والمطر الذي لا ينقطع إلى التشبث بعضهم ببعض درءاً لأي خطر بينما هم يشقون طريقهم الوعر المضني للنجاة من هذا الخطر الداهم.

كان ثمة كوخ خالٍ في طرف البلدة وأبعد ما يكون عن النهر، فقاد توم عائلته المرعوبة المرتعدة إليه. استغرقهم بلوغ ذلك الكوخ قرابة ثلاث ساعات، صادفوا جدراناً عارية وأرضيات خالية، مجرد سقف فوق الرؤوس يظلمهم إلى أن وجدهم المبشر في اليوم التالي فيما هو منهمك في إعانة المتضررين المكروبين وباقتراح منه تم تزويد الكوخ بالأغذية ولوازم البيت عن طريق المخازن القليلة التي يملكها المستوطنون هنا وهناك.

خلال ذلك الوقت كله كان السيد بيسون منهمكاً كلياً في العمل التطوعي في صفوف أولئك الذين غمر الفيضان أكوأخهم لأنه كان يعتقد أن ملكيته قد نجت من الدمار والخراب، لكن وبعد أن انحسرت مياه الفيضان، وفيما هو في طريقه المفضل عبر البستان رأى كيف أن المياه قد اكتسحت في طريقها كل أثر للسياح الذي كان يحيط بالهكتارات العشرة الأثيرة عنده. لقد انهار أعلى جزء من السياج وغاص كثيراً في تلك الليلة الليلية ومع فقدان العوارض الخشبية تبخر الكثير من الأغراض الدنيوية التي كان يتكى ويعول عليها في معيشته اليومية بتلك البراري.

الفصل الثالث عشر

الكوخ الهندي

الربيع في البراري الشمالية الغربية. يا له من مشهد بديع! بغتة ودون سابق إنذار تلاشى الثلج مخلفاً وراءه العشب الطويل الميت ملبدًا لا تكاد تفاصيله تبين بحيث يظن الرائي أنه ذوى بلا رجعة، لكن سرعان ما تقع عينك على بقع صغيرة عنقودية الشكل تتراوح أعدادها من ثلاث إلى سبع ناتئة فوق الأرض بينها زهور أرجوانية اللون يكسوها غشاء زغبي سميك يقي كل زهرة منها من وطأة الرياح الباردة القارسة وهي تتفتح بمجرد التحديق فيها. وكلما اعتدل الجو تبرز البراعم من مكانها الخشنة الشعر وتتمايل مع حركة النسيم تمايلًا يسر الناظرين. إنه *الربيع الفتان* كما يطلق عليه أهل الغرب، باكورة خضرة الموسم في استعراضٍ، أبطاله زهور يانعة متفتحة تخب الألباب في وقت لا تزال فيه المروج هامة لا أثر فيها للحياة. لكن الحياة كامنة هناك لأنه وعلى حين بغتة كما لو أن في الأمر سحرًا أو عجيبة من العجائب يضحى المشهد الممتد وقد رفل في خضرة غامرة تتنامى بوتيرة عجيبة وقد زينتها الزهور.

حديقة، لا طريق يفضي إليها ولا سياج يحوطها تتضاعف زهورها المتموجة.

ها أنت تنهض من نومك ذات صباح نديٍّ، والهواء من حولك يردد سجع وهديل ما لا يحصى من الطيور الصادحة. فإن كنت واعدًا من الشرق الأمريكي فسوف يخطر في بالك أن هذا ليس إلا هديل آلاف من اليمام البري تعلن فيه عن مقدم الربيع. ومع أن هذه الطيور تبدو وكأنها قريبة منك فإنك عاجز عن رؤيتها. فهي ليست في المروج القريبة وما تزال قدمك تأخذك شوطًا بعد شوط دون انتهاء عبر عشب البراري المتموج ذاك لتلحق بمصدر الهديل لكنك لا تعثر عليه، وسوف يفاجئك أن يسر إليك صديق من أبناء الغرب بأن هذه الأصوات ما هي إلا صدح دجاج البراري، الآتي عبر أميال بعيدة، والتي تعقد اجتماعها السنوي الجامع وما هذه الوقوة الغربية بهديل محبب أو سجع غنائي، لكنها ترمز لنداءات قتال تطلقها ذكورها وهي تنهياً لخوض عراك بعضها مع بعض.

والآن تنتهي إلى الأسماع، على امتداد أفق السماء الزرقاء فوقنا، صرخات متنوعة شتى لطيور مهاجرة عائدة من الجنوب. أسراب من الإوز البري تنترى سربًا فسرب كأنها في عرض عسكري كل منها يطير وراء قائده، بينما تشكل أصوات كركي التلال الرملية قرع الطبول الزاعقة بينما يدوي في الهواء صوت نعام البراري الأمريكية واضحا حادًا فيما تلمع في ضوء الشمس مناقيرها الطويلة البيضاء وكأنها حراب عاجية مشهورة.

وقف توم قبالة الفندق وقد انتشت جوانحه بمرأى مظاهر الربيع وأصوات الكائنات. لقد مر عليه الآن شتاء ان حافلان بالأحداث والوقائع الجسام. وكان المبشر السيد بيسون قد أولى توم اهتمامًا كبيرًا، فقد أنشأ بكوخه الخاص خلال الشتاء الماضي مدرسة وكان توم وشقيقته إليزا يترددان عليها معظم الوقت وكان توم يساعد المبشر في أعماله بالحقل وخلافه مقابل التعليم.

كبرت إليزا وغدت شابة جميلة رزينة وكانت تبلي بلاء حسنًا في دراستها، وذات يوم نوهت أنها

لن تعود قادرة على مواصلة دراستها بمدرسة المبشر، واحمر وجهها خفراً وحياء عندما استفسر منها مدرستها عن السبب في ذلك ولم تحر جواباً ولم يظفر المدرس بجواب، حتى كان اليوم التالي عندما أتى شاب مغامر مقدم من *قرية مجاورة* تبعد عشرين ميلاً ليدعو السيد بيسون لحضور حفل زواجه من *الآنسة إليزا*.

في الشتاء الماضي نزلت عائلة المبشر بالفندق وشغلت بعض غرفه. وكانت السيدة بيسون قلقة للغاية جراء خوفها من الهنود الحمر وكثيراً ما قالت لزوجها: *أعتقد أن أرضنا هي أول بقعة سيأتي إليها الهنود*.

لم يكن السيد بيسون يشاركها ظنّها هذا لكن جراء مخاوفها هذه فقد قدّم صاحب الفندق الكريم المعطاء لهم تلك الغرف بدون مقابل.

انصرم الشتاء ولم يحدث ما يعكر الصفو. كان توم يبلي بلاء حسناً في دراسته على يد المبشر، وكان يكسب عيشه من العمل لدى أسرة أحد الملاك في البلدة في بيت مقابل للفندق مباشرة، ولذا ما كانت تفصله سوى خطوة قدم عن مقام المبشر حين يود متابعة دروسه.

سأل توم المبشر فيما كان الأخير يهبط درج الفندق: *هل في وسعك سماع ما أحفظه مساء اليوم؟*.
أجاب المبشر: *أجل أنا مدعو في الخارج هذا الصباح لكنني أعتقد أنني سأرجع في الوقت المناسب*.

بعد ظهر ذلك اليوم كان توم جالساً في الغرفة الأمامية من الغرف التي تشغلها عائلة المبشر مستغرقاً في قراءة كتاب، وأزعجه أيّما إزعاج نباح كلب هائج. أطل من النافذة ولدهشته رأى أحد الهنود. استدار الهندي المتوحش فواجه الفندق وبندقية في يده، وقد توهجت عيناه فيما كان يدفع عنه هجوم كلب ضخم من كلاب الحراسة. أخذ توم بمرأى هذا الهمجي اليافع وبراعة وجمال حركاته. كان لون بشرته أفتح من اللون السائد بين بني جنسه وكانت عيناه الناطقتان بالعزم سوداوين واسعتين وملامحه دقيقة متناسقة وقوامه مثاليًا وكان شعره الأسود الطويل غزيراً مسترسلاً وقد ارتدى قطع ثياب منقاة بعناية، وكانت الحلي التي يضعها فوق بدنه وفوق دثاره أجمل بكثير مما يتحلى به الهنود عادة.

توصل توم مما لاحظته في مسلك الهندي إلى أن الأخير يشك في أن أحد المستوطنين البيض قد أطلق عليه ذلك الكلب. كان الرجل الأحمر رابط الجأش مترفعاً جريئاً. في غمضة عين كان توم يهبط الدرج الأمامي للفندق ويترد الكلب. رمق الهندي الفتى توم ومضى متنداً لا يلوي على شيء عبر الشارع الرئيس للقرية حتى أخفته أشجار أرض المبشر عن الأنظار.

وقفت السيدة بيسون صحبة أطفالها في النافذة يتابعون الهندي المنسحب بعيون يمتزج فيها الخوف بالإعجاب.

صاحت كبرى البنات قائلة: *أليس وسيماً؟*.

قالت الأم: *بالتأكيد هو ذو مظهر حسن للغاية إنه النموذج النبيل من بني جنسه*.

سألته صاحبة الفندق، وهي تدلف إلى الغرفة وكانت امرأة وديعة محترمة: *هل رأيت ذلك الهندي؟ يقول أحد النزلاء إن جماعة منهم يعسكرون في أرض زوجك وأن لديهم كوخًا بيضويًا كبيرًا وأنهم يتصرفون كما لو كان المكان ملكًا لهم*.

ارتجفت زوجة المبشر وعقبت قائلة: *هذا ما كنت أخشاه بالضبط*.

ردت عليها صاحبة الفندق قائلة *لكنهم قوم مسالمون ودودون وزعيمهم معه خطاب من وكيل الحكومة يوحي فيه المستوطنين بالثقة فيه والإحسان إليه. لقد كان هذا الشتاء طويلًا وقاسيًا، ويقول الوكيل في خطابه *أن الهنود قاسوا الأمرين خلاله*.

سألت السيدة بيسون: *هل هذا الهندي اليافع زعيمهم؟*

لا، لَكَمْ كنت أتمنى ذلك. إنه أكثر هؤلاء الهمج وسامة وأحسنهم هيئة. وأظن أنه بوسعنا الوثوق به. لكن زعيمهم رجل مرعب، رجل قاسٍ ومخادع، ثعبان سام وإلا فإنني لا أحسن قراءة الوجوه وبواطن البشر.

قالت زوجة المبشر وقد اعترتها الدهشة: *إذا لقد رأيتته رأي العين؟*.

أجل لقد قابلناه زوجي وأنا خلال تجولنا في الغابات. في الظاهر يبدو الفتى الهندي وكأنه يساير الجماعة لكنه ينأى بنفسه عن الآخرين إلى حد ما وكأنه يحس بتفوقه عليهم ويحس بمدى صعوبة مجاراتهم في سلوكياتهم الوضيعة. غدًا ستقوم جماعة منا بزيارة الهنود في خيمتهم وقد جئت لأدعوكم للذهاب معنا. سيكون ثمة جمع كبير منا، وأضافت ضاحكة: *لذا لا تخشي أن يقطع الهنود رأسك بفؤوسهم*.

كانت زيارة الهنود في اليوم التالي محط اهتمام بالغ من قبل عائلة المبشر، صحيح أنه سبق لهم أن رأوا نفرًا قليلًا من هنود الشرق الأمريكي أنصاف المتحضرين، لكنهم لم يسبق لهم بتاتًا أن رأوا الهنود الحمر في براريهم الأصلية بعاداتهم وتقاليدهم البدائية التي لم يغيرها الزمن. كان الكوخ الهندي كبيرًا وحسن البنيان وقائمًا في بقعة حصينة وشاعرية تتناغم مع القرية والغابة والنهر في آن معًا. وهناك شاهدنا مجموعات منهم يفترشون الأرض، وهم يلعبون ألعاب الحظ التي يمضي رجالهم في ممارستها أغلب الوقت عندما لا يخرجون لصيد الحيوانات والأسماك أو يكونون في حالة حرب. لم يكن ثمة نساء يرافقنهم وكان على الرجال بالإضافة لطهي الطعام أن ينهضوا بأعباء تسند في العادة لزوجاتهم مثل جمع وجلب الأخشاب وسلخ جلود الحيوانات المفترسة.

لم يرفع الهنود أعينهم من على البيض الذين دخلوا عبر فتحة ضيقة تمثل بابًا، وانتظموا حول جنبات الكوخ بقدر الإمكان. لم نسمع منهم إجابة على أي سؤال ولم يبد عليهم أنهم فهموا كلمة إنجليزية واحدة مما قلناه وظلت وجوههم جامدة على تبليدها إزاء الملاحظات التي أبديناها وكأن شيئًا لم يكن، وحسبك برهانًا على أن أولئك الهنود كانوا يجهلون حقًا معنى حديثنا المتحضر كما يبدو من ردود فعلهم أن بعض الفضوليين منهم من نوي الوجوه البيضاء الشاحبة انخرطوا في أحاديث همجية؛ لأنهم كانوا يكرهون أخوتهم السُّمَرَ غير الوجوه ويكونون لهم احتقارًا موروثًا.

قال السيد كاسويل صاحب الفندق وهو ينتحي جانبًا بأحد المستوطنين: *من الأفضل لك ألا ينطلق لسانك كيفما اتفق فهؤلاء القوم يفهمون كل كلمة تقولها وحاذر أن يبدر منك ما ينم عن سوء النية وخبث الطوية*.

ومهما يكن من أمر فقد عمد أشد الكارهين في أعماقهم للهنود إلى تقديم هدايا لهم، صحبة بقية البيض الآخرين. قدم جمع المستوطنين للهنود هدايا تتضمن التبغ وكرات من غزل القطن والأزرار النحاسية والكعك والمفرقات النارية وبعض السننات وأصابع الحلوى وبعض أشرطة الزينة، فتلقاها الهنود دون أن تصدر عنهم كلمة شكر أو إيماءة امتنان. لم يصدر منهم ما ينم عن إدراك طبيعة الموقف من حيث وجود ضيوف زائرين ومن جهة تلقي هدايا عدا براعة الأيدي المهضومة الصلبة في تلقف ما يلقي في متناولها ونقله نحو الرأس ببراعة ودقة ودفنه في ثنيات الشعر، واستمر الحال هكذا برهة طويلة من الزمن. كان الفتى الهندي يلعب مع رفاقه، ولما كان مرآه النبيل الجميل قد لفت انتباه جميع البيض فقد حظي بالقسط الأعظم من الهدايا وكان في تقبله لها مختلفًا بالمثل عن الآخرين. كان وجهه استثناء بين جميع بني جلده الداكني البشرة، يشي بما يبطن من امتنان وبالرغم من أنه قام بتهيئة الحلي الصغيرة في ضفائر شعره الحالك السواد، فقد تقصد جبينه عرقًا كما لو كان يستنكف ويأنف من أن يكون هدفًا للتصدق والإحسان أو ما شابه ذلك.

استرعى ذلك انتباه توم وآخرين من بين المستوطنين فبذلوا العديد من المحاولات الفاشلة لتبادل الحديث معه. ولما اكتشف توم أن تكاثر المتحدثين وتعدد الألسنة هو ما يعيق الحديث مع الفتى، ويجعله أمرًا مستحيلًا، فقد بذل قصارى جهده ليلفت انتباه الفتى الهندي له وحده لكن دون جدوى، آلت كل محاولة إلى صمت هندي مطبق وظل الحديث ومحاولة التعارف أمرًا واقعًا على عاتق الجانب الأبيض وحده.

سأل السيد بيسون صاحب الفندق: *كم عدد هؤلاء الهنود؟*.

أجابه الرجل: *يوجد هنا تسعة منهم والآخرين خرجوا للصيد*.

سأل أحد المستوطنين: *وكيف يتمكن كل هؤلاء الناس من النوم في كوخ صغير كهذا؟*.

أضاف أحدهم قائلاً، وهو يشير ناحية السقف المفتوح الذي يسمح بخروج الدخان: *لا بُدَّ أنهم يجدون متعة في الرقاد على الأرض خاصة عند هطول المطر*.

قال المبشر: *لكنني لاحظت أن كل شيء هنا مرتب ومنضبط. ألا تلاحظون أن لكل رجل موضعه الخاص، وثمة في جانب الكوخ خزائن صغيرة يُودع فيها كل واحد منهم حاجياته الخاصة. نحن البيض قلما ننجح في تنظيم البقاع الصغيرة واستغلال المتاح لنا منها بكل هذه الدقة والبراعة التي يملكها هؤلاء الهنود*.

كان الأمر كذلك بالفعل وقد أعجب الزوار البيض أيما إعجاب بما رأوه من نظام محكم يسود المكان.

رمق المبشر الفتى الهندي قائلاً وكأنه يقصده بكلامه: *ثمة يد وراء كل ذلك النظام والهدام هنا، ولا بُدَّ أنه شخص يمتلك من الذكاء أكثر مما تعودنا نحن البيض أن ننسبه للهنود الحمر*.

بدأ الغسق يغشى المكان وشرع القرويون في العودة لديارهم. وما إن عبروا صفًا من شجيرات البلسان الخفيضة وشفوفًا من أشجار البلوط الفتية التي تخفي مسكن الهنود عن الأنظار، حتى تنهت من خلال الكوخ الهندي صراخ وزعيق مفزع مختلط بضحكات ساخرة.

تجمدت السيدة بيسون في مكانها وقد نال منها الرعب حتى شحب وجهها ظنًا منها أن أولئك الهنود الهمج قادمون لذبحهم. لكنهم لبثوا داخل خيمتهم وتواصل صراخهم وضحكهم الهازئ، حتى ابتعد البيض مسافة لا بأس بها.

قال المبشر بتؤدة: *لا يروق لي هذا الصراخ وهذا الضحك الهازئ*.

أجاب السيد كاسويل بطريقة مرحة: *أوه، إنما يتسلى أولئك الهنود بمحاولة تخويف النساء والأطفال*.

رد الكاهن: *ثمة ما هو أكثر من ذلك، هناك تلك النبرات المشحونة بالسخرية المريرة والكراهية، ولو أن رؤسائهم وانتهم الجراءة أو كانت تلك من الأصل خطتهم المبيتة؛ لانقضوا علينا انقضاض الوحوش الكاسرة على فرائسها دون توان أو رحمة*.

في اليوم التالي قدم ثمانية من الهنود إلى القرية الواحد تلو الآخر وفقًا لعادتهم ودخلوا الفندق بغرض التسول، وفجأة انطلقت أسننتهم من عقالها وصاروا قادرين ليس فقط على فهم ما يقال لهم، ما دام يخدم مصلحتهم، لكن أيضًا على الإجابة وإن بلغة إنجليزية ركيكة. كان ثمانيتهم مجموعة متميزة من الرجال الفارعي الطول عريضي الصدر منتصب القامة، وقد ارتدوا أدنرتهم البيضاء والحمراء ما أضفى عليهم مظهرًا وسميًا بديعًا. لم يبدر منهم ما يُنمُّ عن المسكنة والذلة. ما كانوا يتسولون ما يريدون من حاجيات بل كانوا يطلبونها طلبًا. تراهم فتحسبهم مُلَّاك الأرض جاؤوا يستوفون الإيجارات المتأخرة.

إلا أن الفتى الهندي كان لا يزال على اعتداده بنفسه، وكم جالت برؤوس ومخيلة البعض منا، ممن يذهب خيالهم بعيدًا، العديد من التخمينات بشأنه. فمننا من شطح بخياله لحد الزعم بأنه ليس من أصول هندية البتة، وافترضوا أنه لا بُدَّ أن يكون من ذرية والدين أبيضين، وأنه سرق وهو بعد طفل من أحضان عائلة بيضاء كريمة الأصل. لكن الرواد الأكثر خبرة وتجربة وضعوا حدًا لتلك النظرية بتأكيدهم على أنهم قادرين على تمييز الهندي الأصيل غير المهجن من سواه وأن هذا الفتى هندي أصيل غير مهجن.

أمعن توم التفكير في شأن هذا الفتى الهندي.

قال توم للمبشر: *أوه، لو أمكنني فقط التحدث إليه لكم أود أن أعلمه القراءة وأن أحدثه عن عطايا الكتاب المقدس المباركة!*

أجاب الرجل الصالح: *هذا ما يجول بخاطري طيلة الوقت يا توم، وكثيرًا ما أسأل نفسي أفلا

أستطيع على نحو أو آخر أن أرشد هذه النفوس المظلمة إلى نور حَمَلِ الرب الإله يسوع المسيح؟ لكن هيهات فنفسهم صماء مصمتة! ما أبعد الشقة بيننا وبينهم وما أوسع الفارق! وباستثناء صغارهم ما أكثر وحشية ووضاعة كبارهم! وما أفضح أن ترى تلك المخلوقات البديعة التكوين والخلفة تقضي حياتها هائمة على وجوها فوق الأرض فإما هي منكفئة تلعب لعبة العيدانية (لعبة تطرح فيها مجموعة عيدان رفيعة فيحاول كل لاعب استلالها واحداً تلو الآخر دون أن يحرك العيدان المتبقية) أو أية ألعاب شبيهة من الصباح حتى الليل، لكم هذا مؤسف! ثم تعال انظر كيف يصرخون ويضحكون، فإذا بهم أقرب ما يكونون إلى الحيوانات المفترسة أو الشياطين اللعينة عنهم إلى بشر طبيعيين. أولئك القوم يبدوون لي أشد أهل الأرض انحطاطاً ووضاعة وأكثرهم خسة وخداعاً وأغظهم قلباً. ولست أستغرب بعد ذلك كله أن يكون من الصعب بمكان إدخالهم حظيرة المدنية والحضارة أو تحويلهم إلى مسيحيين مؤمنين*.

مرت أسابيع وظل الهنود خلالها يلزمون كوخهم. تتعاضم جرأتهم يوماً بعد يوم ويزيد تطفلهم، حتى باتوا موضع بغض ومقت أكثر المستوطنين خيرية وإيثاراً. ولم يعد من الغريب بالنسبة للنساء في الجوار أن يفاجئن وهن يؤدين أعمالهم المنزلية، فإذا بأحد أولئك الهمج الكئيب المنظر، وقد تسلل إلى المنزل فيجلس فوق أحد الكراسي دون استئذان جاهزاً في أي وقت يختاره؛ لكي يومي بصورة امرأة نحو شيء يرغبه أو صنف يشتهيهِ وكأنه يقول: *ناوليني ذلك الشيء!*

في تلك الأثناء صار توم والفتى الهندي المدعو *ذو الشعر الطويل*، سواء كان ذلك اسمه الحقيقي أم لا، صديقين حميمين.

وبالرغم من ذلك لم يكونا يتبادلان الكلام كثيراً لأن ذا الشعر الطويل كان صموتاً كتوماً إن صح التعبير مقارنة بباقي رفاقه. وحتى بدون لغة الإشارة كان الفتیان يفهمان أحدهما الآخر. كان ذو الشعر الطويل يقرأ ما يجول بخاطر توم دون حاجة إلى أي وسائل وكان القلق يعترى السيدة بيسون جراء خروج توم مع ذي الشعر الطويل ليتجولا بالغابة لفترات طويلة. كان الأخير قد تخير شجرة بعينها لتكون قارباً صغيراً، وقد أعانه توم على قطعها بفأسه الحادة وعلى تجويفها والوصول بها إلى الشكل النهائي للقارب. تنامت بين الفتیین أواصر مودة مدهشة، وذات مساء كان توم في طريقه إلى اجتماع الصلاة فصادفه ذو الشعر الطويل في طريقه فدعاه توم لمصاحبتة بدلاً قصارى جهده؛ لجعل الأخير يفقه ما يدور في الاجتماع. لم يفقه ذو الشعر الطويل إلا أقل القليل مما قاله توم وبعد ممانعة كبيرة أقنعه توم بالدخول معه إلى الكوخ الذي ستجرى فيه الصلاة. وفيما كانت وقائع الصلاة تتوالى بدت على وجه الفتى الهندي علامات التأثر الشديد بخشوع المصلين والورع البادي في جرس كلمات الأغاني ووقار ألقانها. مما لا شك فيه أن ذا الشعر الطويل لم يفقه الكثير مما كان يدور ويجري حوله، للمرة الأولى في حياته، من صلوات وترانيم. لكن انفعالاً جارفاً تملكه إلى الحد الذي امتدت فيه يده لتصل إلى يد توم فتقبض عليها بقوة وحنو إلى أن انفض الاجتماع وقد بلغ به التأثر حد القشعريرة. وبطبيعة الحال لم يتمكن توم من الحديث معه بعد انفضاض الصلاة ولا معرفة ما جاش بنفسه إلى أن بلغ هذه الدرجة من التأثر، وما الذي جال بخاطر وقلب ربيب البراري الصموت هذا من أفكار وخواطر تتعلق بالأبدية، وهو يحضر للمرة الأولى طقوس عبادة مسيحية،* لا أحد يعرف*. لم يتمكن توم من إقناعه بالحضور مرة أخرى،

ومن جانبه هو لم يبذُ عليه ما يدل على أنه استتكَف أو تأفَّف مما رأى وسمع، لكن عندما ألمح صديقه الأبيض للموضوع التمتع عينه بوميض غير مألوف وبدت على وجهه أمارات التأمل والتردد.

كان الفتیان معًا بصورة شبه يومية ولم يعد ذو الشعر الطويل يلازم الكوخ الهندي كثيرًا، ونادرًا ما أصبح يخرج صحبة الهنود الآخرين. وعندما كان قومه يقدون زرافات إلى البلدة، ويضايقون المستوطنين بالطلب والإلحاف في الطلب فيفتحون الأبواب ويتلصصون من النوافذ ويعترضون سبيل المارة في الشوارع، لم يكن ذو الشعر الطويل يصاحبهم وعندما كانوا يرجعون في المساء وقد ظفروا بصيد وفير ويرفعون عقيرتهم بنشيد النصر مرددين عبارة *هاي يار! هاي يار! * فيما هم يدنون من القرية فيواصلون غناءهم حتى يبلغوا كوخهم لم يكن ذو الشعر الطويل واحدًا منهم.

ذات يوم صدف أن زار توم كوخ الهنود، فوجد ذا الشعر الطويل يرتجف جراء إصابته بحمى الملاريا العنيفة. كان وحده هكذا لمدة يومين. كم تأثرت نفسية توم الرهيفة بما يعانیه الهندي الأحمر من إهمال وقلة اعتناء خلال مرضه. كان ذو الشعر الطويل ملتقًا بدثاره وراقداً فوق الأرض وحيداً بلا أنيس أو معين يعينه على الاستشفاء بلا غذاء يفتح شهيته الضعيفة، ولا يد تمتد لتجفف العرق عن جبينه المحموم ولا دواء يخفف آلامه ويذهب عنه بلاء المرض.

صاح توم: *لماذا يا ذا الشعر الطويل لم تدعني أعرف أنك مريض؟*.

لكن ذا الشعر الطويل جلس، وهو يرتعش ملتقًا بدثاره وكالمعتاد سمع ما قاله توم، ولكنه لم يجب بشيء إنما تكلمت عيناه.

جلب توم الخشب وأشعل نارًا وقال: *أمي ستعرف كيف تدبر أمرك يا ذا الشعر الطويل سأذهب لأخبرها بحالتك*، هرع توم إلى الكوخ حيث والدته التي سارعت إلى إعداد بعض حساء الدقيق المخلوط بالحليب ووضعت بعض العقاقير النباتية التي تعين على التخلص من الحمى والملاريا في أحد الأكياس ومضت إلى كوخ الهنود صحبة توم. أي كنز ثمين هي المرأة المحبة المجربة عند المرض سواء كان ذلك في قصر منيف أم في بيت خشبي متواضع أم تحت سقف خيمة هندية متقلبة بسيطة ودودة على الدوام ولا تدخر جهدًا ولا تمل أو تكل من تقديم العون للمحتاج! كان توم مندهشًا أيما دهشة من كون أمه أقبلت بكل ارتياح على إسعاف ذي الشعر الطويل وتقوم بالمهمة بكل دقة وتمرس، وكيف أنها بتلقائية ودون خبرة سابقة تواءمت مع غرابة أحوال أحد الهنود، وكيف أنها على مدار أسبوع استغرقه مرض الفتى، مرَّضته بكل الحنو، وخلال تلك المدة كثيرا ما قالت لتوم:

*إنه واحد من أبناء الرب، يقول الكتاب المقدس: *لقد خلق الله جميع الناس من دم واحد؛ ليعيشوا فوق سطح الأرض* وقد مات يسوع المسيح فداء للإنسان الأحمر البشرة والإنسان الأبيض البشرة على السواء*.

طوال المدة التي كان فيها ذو الشعر الطويل محط عناية ورعاية أمومية من قبل السيدة جونز ومحل اهتمام أخوي من طرف توم، لم يبذُ الفتى الهندي سواء أكان وهو تحت تأثير القشعريرة أو

حين تشتد عليه الحمى فيزفر ويلهث، أية أمارات تدل على الامتتان لما كان يلقاه من ترميض وحنو، كما أنه لم تبدر منه بادرة شكوى أو تدمر خلال معاناته وألمه. وعندما تعافى عاد إلى حال الصمت وشواغله الهندية المعتادة.

هتف أحد المستوطنين الذين كانوا ضحية سطو الهنود قائلاً: *ما كنت لأقدم كوب ماء إلى واحد من ذوي البشرة الحمراء لأنقذ حياته، فلن تجد عندهم ذرة من اعتراف بجميل أو بمعروف. أعط أحدهم كل ما لديك ودعني أراهنك على أنه سينتهز أول فرصة، فيسطو عليك في أحد الأدغال ويسلخ فروة رأسك*.

قالت السيدة جونز: *أوافقك الرأي فأغلب الهنود كذلك ولعل ذا الشعر الطويل جحود على هذه الشاكلة، لكنني امتثلت لوصايا الكتاب المقدس وأنا راضية عن نفسي وضميري مستريح*.

لكن وبعد مرور عدة أيام جاء ذو الشعر الطويل إلى كوخ السيدة جونز حاملاً فوق كتفه ظبياً اصطاده للتو وحطه عند قدميها قائلاً وهو يغادر الكوخ دون توان: *امرأة بيضاء ما أعظمها، لأجلها أحضر ذو الشعر الطويل ظبياً*. مسحت السيدة جونز الدمع عن عينيها وقد أحست بنشوة وانفعال شديدين إذ صادفت أخيراً أحد الهنود ممن تعرف نفوسهم معنى الاعتراف بالجميل بأكثر مما انفعت وتأثرت بجلب الفتى للظبي هدية لها ولعائلتها.

الفصل الرابع عشر

أنشودة الحرب

كانت السيدة بيسون جالسة، بغرفتها الجميلة بالفندق، تحيك بعض الثياب. كانت خواطرها أبعد ما تكون عن تقلبات الحال في الغرب كما عاينتها. ذلك أن زوجها كان يقرأ على مسامعها كتاباً جديداً تلقاه ضمن بريده الأخير وأرسله إليه أحد أصدقائه في الشرق الأمريكي فيما كانت هي منهمكة تخطيط بإبرتها ما تخطط من الثياب. كان الرضيع في مهده بغرفة النوم الملحقة وكانت فاني وهيلين تتهامسان في رزاة في أحد أركان الغرفة، بينما كانا يجربان الثياب الجديدة التي قصتها وخاطتها أمهما لأجل دُميتهما. ولو أنك ألقيت نظرة على هذه المجموعة لتعذر عليك التعرف عليهم بوصفهم عائلة مبشر مستكشف لأن مبنى الفندق كان راقياً فسيحاً، ومهما كان مأكلمهم وملبسهم بسيطاً متواضعاً، ومهما ضيق عليهم الفقر الخناق، فإنهم في نهاية المطاف كانوا راضين هانئين لا يبذون ضيقاً ولا تبرماً. كان الكتاب الذي يقرأه المبشر جهرة على مسامع زوجته قد حمل الزوجين على جناحي الخيال إلى مشاهد أخرى أكثر جمالاً وسحراً من المشاهد الكئيبة التي تغص بها البراري القاحلة تلك. كانت نعمة القراءة بتلوييناتها الصوتية شدة وليونة تبرهن على مدى الانغماس الانفعالي الذي يشعر به المبشر خلال القراءة، وكان تغير لون وجه الزوجة يعكس تباين عواطفها وتلون انفعالاتها تأثراً بالموضوع وبالفكرة وبالأسلوب في آنٍ معاً. يا لسحر الكتب وفتنتها! إنها لتستطيع إذهال الفقير عن فقره وجواب الأفاق في البلاد الغربية النائية أن ينسى أنه شريد المنافي.

هتف الزوجان في وقت واحد وقد نهضا واقفين متسمعين لا يند عنهما نامة: *ما كان ذلك؟*

تعالت مجدداً صرخة مرعبة بدا أنها آتية من إحدى غرف الطابق الأسفل. وفي هذه اللحظة ظهر الوجه الجميل لصاحبة الفندق وقالت:

الهنود بالأسفل وسوف يغنون لأجلنا. هلا نزلتم للاستماع إليهم.

رد المبشر: *أكيد أن موسيقاهم وغناهم نشاز في نشاز ومع ذلك فنحن نقبل دعوتك، أليس كذلك يا زوجتي؟*. اصطحب الزوجان بيسون الأولاد معهم ونزلوا إلى غرفة الطعام. كان ثمانية من المتوحشين الهنود متحلقين حول المائدة الطويلة فيما جلس نفر قليل من النزلاء وظهورهم للحائط ذلك أن أغلبهم كانوا بالخارج ساعتها. كان بعض الهنود يحملون قدوراً من القصدير يضربون عليها الإيقاعات بعصي من الحديد فتحدث ضرباتهم الثقيلة دويًا يصم الأذان عدا عن الأصوات الخشنة الجشء التي كانت ترسلها حناجرهم في وقت واحد فترج المكان بعجيج شيطاني مزعج. كان وقع أداء هذه الجوقة الغربية على نفس المبشر وقعاً بالغ السوء. كان مسلکهم ذاك صفاقة ما بعدها صفاقة وتوحشاً لا مزيد عليه في نظر المبشر، واستقر في نفسه أن قسماتهم التي تقطر خبثاً ولؤماً وأبدانهم المشوهة الأشبه بأجسام الحيات والأفاعي، إنما تنشي بما يعتمل في أعماقهم من نوازع الشر والغل، فيما كانت وجوه البيض تعلوها أمارات الفرع والارتباك وأصحابها يبذلون جهدهم في إخفاء توترهم وحجب حقيقة فرعهم.

همس المبشر في أذن رجل أبيض قريب منه: *ثمة ما يريب في أمر أولئك الهنود، أنهم بصدد التخطيط لأمر بشع فمظهرهم ولهجتهم تتضح شرًا ولؤمًا، وأنا جد مقتنع بأنهم لو لم يقدموا على شيء هذه الليلة، فإنهم يعرفون أن ثمة خطرًا داهمًا يتهددنا. انظر كيف تبرق عيني رئيسهم. لاحظ كيف ينظر هذا الآخر الذي بجانبه نظرة كلها خبث ولؤم وغدر. لاحظ كيف أنهم لا يتورعون عن الاستهزاء بنا والسخرية منا هكذا مواجهة ودون مواربة. والآن استمع إليهم وقد علت أصواتهم بالتلهيل كما لو كنا تحت رحمتهم. ألا تظن بأنهم مسلحون خفية؟*. ثم نهض المبشر واتجه بهدوء صوب الهنود جميعًا وأخذ يرفع دثار كل واحد منهم ليرى ما إن كان ثمة غدارة أو أية أسلحة قاتلة أخرى مخبأة هنالك. لكنه لم يعثر على شيء من ذلك، وفي خاتمة ذلك العرض الفظيع نهض رئيسهم بتغطرس واضح وانحنى أمام المبشر، وفعل أتباعه مثلما فعل، وحيوا الكاهن، وانسل كبيرهم هذا من الغرفة فيما كانوا يتبعونه واحدًا في إثر الآخر.

في اليوم التالي قال توم للسيد بيسون: *لقد فكك الهنود خيمتهم ورحلوا*.

أجابه المبشر: *أنا سعيد بسماع ذلك، إنهم مجموعة خطيرة وأشد ما أقلقني وأخافني أن يقع بينهم وبين المستوطنين أي قتال. لكن ما سر عبوسك وتجهمك هذا؟ هل أحد من عائلتك مريض؟*.

أجاب توم وهو يحاول أن يتماسك: *لا، لقد جاء والدي إلى المنزل الليلة الفائتة*.

قاطعته الصديق الصدوق: *حسن تلك مفاجأة سارة أليس كذلك؟*.

أجل لكنه -لكنه- يريدنا أن ننتقل.

تنتقلون! إلى أين؟.

بالقرب من سبيريت ليك.

تقدم الكاهن في اتجاه كوخ آل جونز وهو يقول: *أسف لسماع ذلك. لقد سمعت هذا الصباح بأن الهنود السيوكس في ذلك الجوار يتعالون على المستوطنين ويعاملونهم بغطرسة، ما ينذر بوقوع حرب. لا بدُّ أن أرى أباك وأقنعه بالعدول عن خطوته تلك*.

بالقرب من سبيريت ليك هذه كانت الواقعة التي هوجم فيها السيد جونز وجرح من قبل الهنود. لكن هذا لم يعفُ عن الذهاب هناك ثانية وممارسة الصيد. لقد أقيمت ثلاثة مستوطنات متجاورة في تلك البقعة التي انجذب إليها جراء جمال مناظرها وخصوبة أراضيها ورخص أسعارها مهاجرون كثير. خالط السيد جونز المستوطنين مخالطة كبيرة، ذلك أن نشأة مجتمع جديد بالكامل خلبت لبه، وكانت معرفته بأدق دقائق احتياجات الرواد الأوائل مفتاح تقبلهم له وترحيبهم بوجوده، وصار السيد جونز عونًا كبيرًا لقاطني سبيريت ليك. كان الهنود كثيرًا وشجعانًا، لكنهم كانوا يخشون كثيرًا بندقية جواب الآفاق هذا وشجاعته الفائقة، أما بالنسبة للبيض فبالرغم من أنهم كانوا يأمنون شر الهنود الهمج إلى حد بعيد، ولا يتوقعون منهم خطرًا عاجلاً، فقد كانوا يشعرون في وجوده بينهم بأمان أكبر وطمأنينة أكثر لذا فقد وفروا له كوخًا مزودًا بكل الإمكانات المطلوبة، ووعدوه بالمزيد من المزايا إن استقر بينهم. عُرف السيد جونز بين الهنود باسم ذي البندقية الطويلة، وكانوا معجبين أيما إعجاب بقدراته

كصياد ماهر، وما أكثر المناسبات التي تجلت فيها هذه المهارة. حُذ كمثل مرة ولج فيها السيد جونز إلى أحد الأكواخ، الذي غاب عنه أصحابه من الرجال فاكتشف أن بداخله ستة هنود أو يزيد منهمكين في العبث والتقيب عما يستأهل السلب والسرقة، فيما كانت النسوة والأطفال منكمشين مذعورين يراقبون ما يجري بلا حول ولا قوة. وعندما ظهر السيد جونز عمدوا إلى الجلوس بكبرياء وغطرسة رافضين الإجابة على أي سؤال، بينما اكتست ملامحهم بأمارات الغضب والاكنتاب. كان من بينهم بعض من ذاع صيتهم في استخدام البندقية، ولما كان السيد جونز يعلم يقيناً نهمهم للقتل والصيد فقد اقترح عليهم فوراً مباراة في مهارة التنشين. قبل الهنود إقامة المسابقة بحماسة كبيرة، لكن جواب الآفاق جونز انتصر فيها ومضى الهنود في سبيلهم يجرون أذيال الخيبة.

عندما رجع السيد جونز إلى بيته وأهله وأشار إلى قراره بالانتقال إلى سبيريت ليك استمعت الأم إلى ما قاله بنفس متوجسة لكنها لم تعترض فقط قالت:

لا يجب علينا إبعاد توم عن مدرسته وتعليمه.

وافق الأب على ذلك لأنه كان يحس بامتنان كبير تجاه المبشر لاحتضانه ابنه ورعايته له، كما كان فخوراً بالتقدم الذي أحرزه ولده في الدراسة حتى الآن.

قال السيد جونز: *أمام توم فرصة عظيمة ولن أكون أنا من يقف في طريقه أو يثبط همته*.

ولما كان صعباً على نفس والدي توم قرار إبعاده عن الدراسة، فقد كان الأصعب هو إقناع توم نفسه بالبقاء صحبة الكاهن لمواصلة التعلم. لقد كان توم ومنذ أمد ليس بالقصير ساعد أمه الأيمن، ما حدا به إلى اعتبار بقاءه لمواصلة التعلم خذلاً لأمه وتخلياً عنها وقت الحاجة.

حثته الأم على البقاء قائلة: *واجبك هو البقاء هنا يا توم، لقد فتح الرب أمامك أبواب توسيع المدارك وتنمية العقل وتأهيلك لكي تكون فرداً نافعاً، ولن نكون بعيدين عنك أبداً وسوف يكون بوسعك القدوم إلينا في أي وقت إن احتجنا إليك*.

سألها توم: *ألا تخشين الذهاب إلى حيث يكثر الهنود يا أمي؟*.

أجابته: *أجل أنا خائفة لكنني مع ذلك أشعر بقوة بضرورة الذهاب. الناس يحتاجونه هناك أشد الاحتياج وهو المؤهل لتولي القيادة في حال الاشتباك والقتال مع الهمج، المستوطنون يعتقدون عليه أمالاً كباراً، ويعولون على خبراته ولست أنا من يقف في طريقه أو يثبط عزيمته، وهو إن ذهب فأفضل مكان لي هو أن أكون في جواره. وإن بقيت هنا فسوف يكون لنا فيك صديقاً صدوقاً عند الحاجة إن حدثت مشكلة أو طراً ما يستوجب الحضور عنه لو أنك بقيت معنا وواجهنا كلنا المخاطر دفعة واحدة*.

بهذا الكلام الذي كان آخر ما قالته الأم المحبة في وداع ابنها راح توم يشاهد الجمع وهم يمضون في طريقهم للموطن الجديد.

الفصل الخامس عشر

مذبحة سبيريت ليك

بين المستوطنة التي أقام فيها المبشر والمستوطنة التي تليها كان ثمة برية فسيحة ممتدة، تليها غابات عتيقة ممتدة يتخلل سفحها الصخري السحيق نهر متلاطم الأمواج. كانت ضفاف النهر المنحدرة الجيرية تعج بالفجوات والكهوف التي تمثل أفضل أوكار للحيوانات المفترسة؛ حيث يمكنك أن تسمع صراخ الفهود والذئبة والذئاب، وهي تمضي بحثاً عن فرائسها.

عبر تلك البقاع الموحشة كان توم يقود العربة الصغيرة التي أمده المبشر بها، وقد عهد إليه بمأمورية الذهاب إلى القرية لجلب صندوق ملابس، أرسله البعض إلى السيد بيسون من شرق البلاد. كان توم يقود العربة قيادة ونيدة فيما كان يصيح السمع للأصوات التي تنتهي إليه من الغابة، وبالقرب من هنا بالضبط وخلال الشتاء الفائت حظي توم برؤية مشهد لن يبرح ذاكرته ما عاش. كان ما كان من أمر هبوب عواصف ثلجية ليلية وما أكثرها في شتاء مينيسوتا، ثم يحدث أن تتوقف العواصف عند الفجر مخلفة وراءها دثاراً ثلجياً يعلو كل شيء في المكان. كان الجليد زلماً يسهل التزلج فوقه وكان الطقس يومها لطيفاً معتدلاً. وما إن أدرك توم بقعة مفتوحة وعلى مبعده بضع أقدام منه، فوجئ الصبي بذئبين رماديين ضخمين يلتهمان حصاناً لم يزل بعد حياً. كان الحيوان المسكين لا يزال موثقاً إلى العربة التي يجرها وهو يناضل باستماتة البلاء المزدوج الذي حل به، فهو من جهة وقع في حفرة عميقة أخفاها الثلج عن عيون السائق الذي عجز عن إنقاذه منها فتركه ليلقى مصيره المحتوم أو لعله ذهب طلباً للمساعدة. لوح توم بسوطه مهدداً الذئاب، وصاح عليها متوعداً عليها تخاف وتمضي في سبيلها. لكن هيهات فقد رفع الذئبين رأسيهما وحدقا فيه بنظرات كلها تهديد فيما كانت أشداقهما تقطران دماً ثم عادا يلتهمان بشره وجبتهما الدامية فيقطعان إرباً إرباً لحم الحصان، الذي لا يزال يناضل يائساً، كتل لحم كانت تنتفض لا تزال كتل لحم كانت الذئاب تبتلعها ابتلاعاً دون أن تمضغها، بكل هذا الشره والنهم أتت الذئاب على لحم هذا الحصان البائس.

كان توم فتى شجاعاً. لكنه وخلال هبوطه جانب النل صوب النهر أعتمت الظلال الكثيفة طريقه بالرغم من أن الظهيرة كانت في أوجها وكانت الشمس الساطعة تغمر البراري بأشعتها، إلا أن الفتى داخله شيئاً فشيئاً إحساساً بالخوف والقلق، ولم يستطع توم التخلص من هذا الشعور. وبين فينة وأخرى كان توم يحس بأنه فريسة قلق وخوف مزعجين، وحتى يخرج من هذا الخناق أخذ توم يصفر بنغمة مرحة ترويحاً عن نفسه وتهدةً من روعه واستعادة لرباطة جأشه كما هو الحال مع الفتيان في مثل عمره. وفيما هو يتأمل كيف كانت تلك النغمات حزينة في قرارها إذ به يفاجأ بتردد نغمات صادرة من بعيد عن طائر أبي الحناء. عندها شد توم رسن الحصان وأوقفه، لأنه كان يعرف أن نداء هذا الطائر كان من بين إشارات التقليد التي يستخدمها صديقه الهندي ذو الشعر الطويل، وكان صديقه قد علمه كيف يطلقها.

قال توم وقد أحس بالفرح: *من أجل صديقي ذي الشعر الطويل سأرد عليك أيها الطائر العجوز*.

لكن وما إن فعلها توم حتى أجابه الطائر فأخذه الاندهاش.

قال توم: *حسن أنتظن أيها الطائر أنني شبيهك وإن أردت صحبتي فلن أعترض فالمكان هنا موحش للغاية!*

وعليه فقد رد الصيحة بمثلها مجددًا.

وعلى الفور تفرقت الشجيرات وخرج من بينها ذو الشعر الطويل وبدا للعيان. كانت عيناه محتقنتين بالدم ودماره ممزق، وكان منظره كله يوحي بأن أمرًا جلا قد وقع.

صاح توم وقد استبد به الهلع: *كيف ذلك يا ذا الشعر الطويل ماذا حدث خَبِّرني؟*

نظر الفتى الهندي بحذر واحتراس حوله ثم وضع أذنه على الأرض وأصاخ السمع ثم نهض واقفًا بسرعة وقال:

الهنود قادمون. قتال كبير. يقتلون الرجال البيض، يقتلون النساء البيض، يقتلون الأطفال.

استفسر توم بقلق بالغ: *ماذا عن أبي وأمي هل قُتِلَا؟*

ذو الشعر الطويل أنقذ البعض وأبوك قتل من واحد إلى عشرة هنود. ذهب ذو الشعر الطويل إلى الحامية في الحصن والجنود لم يصدقوه وقالوا إنه جاسوس. ذو الشعر الطويل جاء إلى توم ليحضر الجنود. رأى الهنود ذا الشعر الطويل وسيكونون هنا، الكثير منهم سيأتون بأسرع ما يكون من واحد حتى خمسين! سيقتلون صاحب الشعر الطويل، سيقتلون توم ويسلخون فروة الرأس. فليذهب توم صحبة ذي الشعر الطويل. لقد أنقذه. الحصان يعرف الطريق إلى البيت.

أدرك توم مما لمس من حال ذي الشعر الطويل ضرورة الاستعجال فقفز من العربة وبسرعة فائقة أدار الهندي رأس الحصان باتجاه البيت واستحثه بدكاء على الانطلاق فكَرَّ الحيوان المفعم بالحيوية عائدًا طريقه نحو البيت بسرعة كبيرة.

إلى اليمين منهم كان ثمة هضبة صخرية ذات ارتفاع شاهق أشار الهندي على توم السير بحذائها. وعلى ميسرتهم كان ثمة جانب شديد الانحدار عدا عن وجود صدع ضيق بالصخر يتيح مخرجًا ضيقًا، تمكن الهندي من الانسلاخ عبره وتبعه توم بالرغم من إحساسه بالدوار جراء الارتفاع الشاهق للمكان. وما إن قطعوا مسافة قصيرة حتى أتوا على شجرة بلوط أنشبت جذورها بالحافة النائنة. قام الصبيان بتسليق الشجرة واستداروا حولها حتى ظهرت لهما فتحة صغيرة. أشار الهندي لتوم بالدخول وقال له:

إن بقينا معًا سيقتلنا الهنود نحن الاثنين. ذو الشعر الطويل يجري بخفة وسرعة الغزلان وثب الهندي بخفة قط فاعتلى الهضبة الصخرية مجددًا.

عندما اعتادت عينا توم على الظلمة المحيطة اكتشف أنه داخل حجرة صخرية واسعة. كانت تلك الحجرة عبارة عن أحد الكهوف الطبيعية وكأن بها إبداع فنان لا عجيبة من عجائب الطبيعة. كانت الحجرة مربعًا كامل الترتيب، أو يكاد بينما يمتد على جوانبها مقعد حجري صلد بينما تراءت فتحة

مربعة، كأنما صُنِعَتْ عن قصد، ينبع منها ماء بارد مثلج نقي نقاء البللور.

اتخذ توم مجلسًا ليتأمل الحوادث الغريبة التي حلت على رأسه فجأة وبدون حسابان. لم يكن ثمة نامة أو حركة تُسْمَعُ أو تُرَى قادمة من الغابة، ولو لم يكن فتانا يعلم مدى دقة الهنود في اقتفاء أثر عدو متوار أو بعيد لا عتراه الشك في تقدير ذي الشعر الطويل لمدى خطورة الوضع المحيط. كلما مرت اللحظات عليه وكأنها دهر دعاه ذلك للتفكير في مدى ملائمة التجروء على الخروج من مكمنه والنظر في المكان وإذ به وهو على هذه الحال يسمع حفيفًا خفيفًا صادرًا من الوادي الصغير الضيق شديد الانحدار بالأسفل. في أي وقت آخر لم يكن توم ليهتم بهذا الصوت، لأنه لم يكن ليمثل بالنسبة له أكثر من نسمة عابرة. كانت الجذور العجفاء للشجرة في مدخل الكهف والظلمة المنتشرة داخله حائلان طبيعيين دون اكتشاف مكان الفتى، اقترب توم وثيْدًا من فتحة الكهف وألقى نظرة فاحصة على الأدغال أسفله. لم يمر وقت طويل حتى رأى أحد الهنود يزحف بحذر عن قرب ثم رأى آخر وثالث ورابع. كان هؤلاء هم مقتفو أثر ذي الشعر الطويل بينما تدلت من أحزمتهم عديد من فروات الرؤوس التي تقطر دمًا، ما يدل على أنها سلخت في وقت جد قريب، وكان من بينها فروات ذات صفائر طويلة ما يشير إلى أنها تخص رؤوس نساء بيض. كاد الدم يتجمد في عروق توم عند رؤيته ذلك المشهد. لكن قلبه قفز بين ضلوعه عندما سمع صوت وقع أقدام خفيفة. بناء على ذلك أدرك توم أن الهنود قد اقتفوا أثر ذي الشعر الطويل، وأن البعض منهم قد التقوا؛ ليكونوا في مواجهة الهضبة بينما ركز البعض الآخر على اقتفاء آثار الفتى الهندي. أحس توم بدنو ساعته وتملكه فزع هائل. إلا أنه فكر بالخطر الداهم المحيق بوالديه الذي حدا بذوي الشعر الطويل أن يدعه وحده للذهاب في مهمة إنقاذهم وأدهشه غاية الاندهاش أن يرى ما رأى من ردة فعل عنيفة جسورة. لم يكن بحوزة توم أية أسلحة فتسمر وراء الشجرة وَكَمَنَ منتظرًا ومتأهبًا للانقضاض على أول المهاجمين وطرحه أسفل السفح السحيق.

تابع توم شبح الهندي يزحف وثيْدًا دون صوت مقتربًا بحذر صوب الشجرة، وكأنه حية مخيفة، وبدا له أن الموت صار قاب قوسين أو أدنى منه، إلا أن نداء صادرًا من أعلى حمل الهندي على لف رأسه. وكان أثر توم خلال رجوعه من الكهف قد أثار انتباه هندي آخر. وفي تلك اللحظة دوت في الأفاق صيحة نداء الحرب التي أطلقها ذو الشعر الطويل ليدعو بها من يطاردونه من الهنود للقتال. من أعلى الهضبة ومن سفحها اندفع الهمج المتوحشون نحو مصدر الصيحة وهم يصرخون صراخًا يصم الأذان. خطأ الهندي، وهو يجهل وجود توم، نحو الشجرة ليستدير ويواجه المنحدر الصخري الشاهق لحد أنه وقف وظهره المقتول العضلات أقرب ما يكون من توم، وقد تدلت من خصره فروات رؤوس دامية. جن جنون توم عند رؤيته ذلك المنظر. أفلت الهندي الشجرة وتأهب؛ ليشارك في المطاردة وعندها هجم عليه توم بكلتا يديه من خلال الشق الموجود، ودفعه ليهوي أسفل الجرف. أصدر الجسد الهاوي صوت ارتطام قوي مكتوم وبعدها ساد سكون مطبق.

بعدها تسنى لتوم سماع صوت المطاردين، وهو يخفت ويتوارى وعندئذ أدرك أن الخطر قد زال فهبط ونهل من ماء النبع، حتى ارتوى كما صب الماء على جبينه المحموم حتى ابترد. وبعد ذلك خرج توم من مكمنه وعبر الهضبة بسرعة ونزل إلى السفح؛ حيث رأى جثة الهندي الأحمر وقد تشوهت بالكامل.

قال توم وهو يدنو من الجثة: *من يدري قد يكون هو قاتل بعض أفراد العائلة*، وأضاف قائلاً بعد أن تفحص الفروات المسلوخة واحدة تلو الأخرى: *لا ليس هو فلا أحد من عائلتنا له مثل هذا الشعر*. بعدئذ أخذ توم البندقية وجراب البارود وكيس الرصاص، وأغمد سكين السلخ في حزامه ثم ألقى بعضاً من فروع الشجر الكبيرة فوق الجثة لنلا يكتشف أصدقاء الهندي جثته سريعاً، وهرع توم بعدها صوب الحامية كما أوصاه ذو الشعر الطويل. تمهل توم بعض الوقت آملاً أن يتمكن من فعل شيء يخدم به ذا الشعر الطويل الذي يعلم يقيناً أنه صاحب صيحة الحرب التي أنقذته والتي تعتمد ذو الشعر الطويل إطلاقها ليبعد الهنود عن طريق الكهف حيث كان توم مختبئاً.

لكن من يكون هو؟ إنه مجرد صبي يواجه حنق وسخط الكثير من الهمج المتوحشين. علاوة على أنهم صاروا أبعد ما يكونوا الآن، وهو لا يعرف مكانهم بالضبط. ناهيك عن أن ذا الشعر الطويل أوصاه أن يمضي صوب الحصن ويخبر الجنود حتى يهبوا لنجدة أبيه وأمه، وعلى ذلك وبدون أدنى تردد استدار توم وشرع في المضي نحو الحصن. كان توم فتىً صحيح البدن بادي الصحة ومشاء سريعاً، ومثله في ذلك مثل والده اعتاد أن يسلك طريقه في أدغال الغابات وأن يقطع الفيافي والقفار.

وفيما كان توم يتابع طريقه الموحش ذاك تضاربت في داخله شتى صنوف الانفعالات والعواطف الجياشة. كان ما عاشه من مشاهد مثيرة ومواقف خطيرة يثير في داخله كوامن الفتوة وغرائز الصبا. لقد جرب الفتى الغر أغرب الأحاسيس، التي لا يعرفها إلا المجريين من الرجال الأشداء، عندما يستثارون خلال المعارك بالأخطار المحدقة ومرأى الدم المسفوك عند القتل والذبح. كانت تلك هي مشاعره عندما دفع الهندي من فوق الهضبة نحو السفح السحيق وعندما شاهد أشلاء المتناثرة وأوصاله المشوهة بكل رباطة جأش وشجاعة. لكن ها هو الآن يتخلله الخور وينتابه الضعف والوهن، وها هو قلبه الغض يغوص بين ضلوعه كلما خطر بباله كل ما فعل.

سرعان ما تبدد هذا الوهن جراء تذكره بطولة ذي الشعر الطويل والحصار المضروب على أبيه وأمه، وما إن كانت فؤوس الهنود الهمج قد أزهقت أرواحهم. كم مر من يوم الآن منذ أن رأى ذو الشعر الطويل أبيه لآخر مرة، إنه لا يعرف لكن المؤكد من مرأى ذي الشعر الطويل ومن مدى انزعاجه أنهما في خطر داهم، وبدلاً له أمر نجاحه في تأمين نجدة عاجلة لوالديه أمراً مشكوكاً فيه. لسوف يستغرقه بلوغ الحصن راجلاً يومين، ولن يتمكن هو والجنود الخيالة من بلوغ مستوطنة والده إلا بعد يوم إضافي ثالث. كانت الساعة الثانية من بعد الظهر ولم يكن توم قد أكل شيئاً منذ الصباح الباكر، لكنه ما خطر له أمر الطعام وهو على حاله هذه من العجلة والهرولة. بفراسة المستكشف المجرب، اتخذ توم أقصر الطرق سبيلاً لبلوغ الحصن. لكن هذا الخيار أبعد به بضعة أميال عن أية قرية، ومع قرب حلول الليل بلغ توم مكاناً به كوخ واحد لا غير. وما إن ولج من باب الكوخ حتى رأى العائلة تتناول وجبتها المسائية. وبكل كرم ضيافة أهل الغرب دعاه صاحب الكوخ؛ ليجلس ويشاركهم وجبتهم فيما عمدت زوجته وفقاً للعادات المستقرة إلى ملء طاسة بقهوة سوداء خالية من السكر والحليب، فقدمتها لتوم مرفقة بصحن مملوء بقطع لحم الخنزير المقدد والبطاطس المهروسة، بينما وضعت إلى جوار طبقه شريحة كبيرة من الخبز البني.

شاركهم توم وتناول وجبته بنهم وتلذذ حتى أتى عليها.

سأله الرجل الذي أرجأ أسئلته حتى أحس باندماج ضيفه في تناول الطعام: *من أين أنت؟ وأين تقصد يا بني؟*.

كان فم توم ممتلئاً بالطعام وكانت في قلبه غصة كبيرة وبين شقي الرحي هاتين، الفم الممتلئ بالطعام والقلب المهموم المغتم تعذر عليه الجواب. كان جائعاً لحد المغص جراء تسارع أحداث اليوم الفظيعة، وكان عقله في حال انشغال وبلبلة كبيرة.

جواباً على النصف الثاني من السؤال قال توم: *أنا ذاهب إلى الحصن لطلب النجدة*.

صاحت الزوجة وقد رفعت في الهواء، بشكل لا إرادي، شوكة علقت بها بعض بطاطس مهروسة كانت تنقلها إلى طبق توم: *طلب النجدة! هل صادفت بعض المتاعب مع الهنود وأنت في الطريق؟ أليس كذلك؟*.

قال توم: *ليس كذلك بالضبط*.

تنفست المرأة الطيبة الصعداء وتذكرت ما كانت بصدده فوضعت البطاطس في طبق توم فأردف توم قائلاً فيما كانت تهم بنقل شريحة أخرى من لحم الخنزير إلى الطبق:

لكنني رأيت الكثير منهم هذا الصباح على مسافة من هنا لا تزيد عن اثني عشر ميلاً، وقد تدلت فروات رؤوس مسلوخة من فوق أجسامهم.

هتقت السيدة الطيبة قائلة، وقد ذُهلَّت عما كانت بصدده مجدداً وجمدت يدها فوق الشوكة وقد علقت بها شريحة اللحم حتى تساقط الدهن على ثوبها الناصع البياض: *يا إلهي الرحيم! لقد قلت لك يا زوجي إنهم سينقضون علينا إن عاجلاً أم آجلاً، ونحن نبعد عن أقرب جار لنا بما يزيد على ثلاثة أميال*.

وبينما أخذ توم يحكي ما جرى هذا الصباح جلست المرأة في كرسيها وقد بقيت يدها مرفوعة بالشوكة وقطعة اللحم بينما يتساقط الدهن فوق حجر ثوبها فيما توقف الزوج عن الأكل وأرهف السمع لما يقال فاغراً فمه.

رمق توم شريحة اللحم طويلاً وهو يواصل روايته ولما يأس من حصوله عليها قال على نحو مباغت: *أنا لم أذق طعم الأكل منذ الخامسة صباح هذا اليوم حتى أتيت إليكم ويلزمي أن أواصل السير طوال الليل*.

هتقت المضيفة الرحيمة القلب: *سامحني لو كنت أهملت في الاهتمام بك لأن ذكر الهنود أزعجني* ومررت المرأة شريحة اللحم لتوم موجهة الكلام لزوجها: *انزل الآن إلى القبو واجلب معك شيئاً من كعك اليقطين وبعضاً من كعك الزنجبيل، فلن يغادر الصبي بيتنا إلا بعد أن يحصل على كفايته من الأكل والشراب والحلوى*، وطفرت الدموع من عينيها الزرقاوات: *وأنت هل ستمضي صحبة الجنود لتقاتلوا الهنود حيث يوجد أبوك وأمك إذا؟*.

أجاب توم: *أجل* .

كيف ذلك، أعتقد أن غلامًا غصًا مثلك يجب أن يبقى بعيدًا عن الخطر. فلن يفيد أحد الهنود شيئًا إن سلخ فروة رأسك .

تشجع توم بفضل كلام مضيفته وأخبرهما بالكيفية التي قتل بها الهندي ذلك الصباح.

قالت المرأة الطيبة بتعجب زائد: *حسن أنا لم أقتل واحدًا أبدًا! لماذا؟ أنا لا أظن أن رد فعل زوجي على هجوم هذه المخلوقات الوحشية على كوخنا سوف يزيد على رد فعل صبي في الثالثة من عمره* .

عند ذلك دفع الزوج بيده متخللة شعره المجعد الشائك حتى أوقفه كله على قمة رأسه، بينما تخرج وجهه بحمرة قانية، وقال بانفعال وغضب ظاهرين:

فليات هؤلاء الحقراء إن شاعوا، وتأكد من أنني سأقدر عليهم إن كنت أنت قدرت عليهم .

تبين لتوم أن ثمة شجارًا يوشك أن يقع بين مضيفته البدينة الضخمة الجسم وبين زوجها النحيل الهزيل القوام فرد بدهاء وذكاء:

لا أحد منا يعرف ماذا يمكنه أن يفعل إلا إن وقع الأمر وحانت اللحظة. لقد اندهشت أنا نفسي مما فعلته .

قالت المرأة وقد طابت نفسًا وعاودها مزاجها المرح: *حسن أظن أن كلامك منطقي جدًّا، وقد جربت ذلك من قبل إذ سبق لي أن ألمتني أسناني، ولم أذق طعم النوم لمدة أسبوع وأراد زوجي أن يأخذني إلى الطبيب في غروف فيل وكنت جد متهالكة مزعزعة، لكن ما إن وصلنا هناك حتى خلع الطبيب ضرسين وبقايا سنّة دون أنين أو خوف، وقال الطبيب وقتها أنه يود لو أنني أكون مريضته طول الوقت. لكنني قلت له إن الأمر يتطلب، في نظري، مريضتين حتى تكون الصفقة رابحة* . ولعلت بالضحك عند تذكرها كم كانت فطنة في الرد عليه.

انتهى توم من تناول وجبته ونهض ليمضي فقالت مضيفته: *أتتوي السفر أثناء الليل؟*

أجاب توم: *الوقت ثمين* .

قالت موجهة كلامها لزوجها: *حسن إن كان الصبي يحس بأن الظروف تجبره على الرحيل فلن أمنعه. لكن يبدو لي أن علينا أن نقوم معه بما نحب أن يقوم به الغير تجاهنا وأن نرافقه ولو شوطًا من أشواط الطريق. هيا امض الآن وجهز العربية والحصان حتى أعد شيئًا من طعام يسد به رمقه إلى أن يصل إلى الحصن. وبوسعك أن توصله لحد الحصن أيضًا* .

قال الزوج وهو ينظر بتوجس خارج النافذة الصغيرة: *هذه مسافة طويلة* .

أصرت المرأة على رأيها قائلة: *حسن ها أنت ترى أن الصبي مجبر على السفر لمسافة بعيدة سيرًا على الأقدام، وهذا يستغرق وقتًا جد طويل خلاله تكون عائلته قتلت وقطعت رؤوس أفرادها بالفؤوس وسلخت فرواتها، بينما هو لا يزال في طريقه للحصن ولم يصل بعد* . ثم احتدت عليه

قائلة: *لو كنا نحن مكانهم في تلك المحنة لوددنا أن يهبوا لنجدتنا على الفور بدلاً من أن يأتوا بعد فوات الأوان*.

رد عليها الرجل الضئيل الجرم وقد عجز عن مقاومة منطقتها القوي: *أجل، أجل*.
والآن إن لم تكن خائفاً.

قال الرجل وهو يوقف شعره الشائك ويحمر وجهه مجدداً: *خائف! أنا خائف؟ كل ما في الأمر أنني كنت أفكر فيما إن جاء الهنود، وأنا غائب عن المكان ماذا سيحدث لك باربري جين*.
قالت وقد بدا عليها الذعر وغاصت في كرسيها مجدداً: *حسن لقد قلت كلمتي إن لم أنس!*
لكنها كانت شخصاً إن أصر على شيء نفذه في كل الترتيبات الخاصة بالبيت وكل النقاشات التي تدور بينها وبين بعلها، ومن هذا المنطلق، من هذا المنطلق وحده فيما نحسب، وبدافع أكثر وجاهة استجمعت شتات نفسها وقوتها وأردفت:

لسوف أجازف أنا إن جازفت أنت يا جيمس، كما أنني في خطر أكبر مما أنت فيه لأنني بدينة بطيئة الحركة. أنت يمكنك أن تختبئ في أي مكان بالغابة ولن يعثروا عليك، فلن تكون أكثر من إبرة في كومة قش كبيرة، كما أنني لا أحتمل مجرد التفكير في أننا جبناء إلى هذا الحد.

قاطعها زوجها وقد استقره وصفها ذلك، فقد كان حساساً مستتقراً إذا ما بلغ الكلام حدود الحديث عن الحجم والشجاعة، وهو جرح تحرص زوجته على أن يبقى مفتوحاً طيلة الوقت *جبناء! جبناء*، وأخذ يعبث في شعره ويضرب قدميه بعضهما بعضاً واندفع خارجاً، وبنشاط يحسد عليه سرعان ما أعد العربة والحصان وكان أمام باب الكوخ. انطلق توم خارجاً، وكانت المرأة الحنون قد زودته بقدر كاف من المؤن قائلة له وهي تمسح دموعها بمريلة المطبخ:

أمل عندما تمر من هذا الطريق مرة أخرى أن تكون بخير وصحة لكنني أخشى أن ينال منك الهنود. كان لجمالها الأخيرة وقع على زوجها بأكثر مما كان على نفسية توم، لأن الحمرة زايلت وجهه مرة أخرى.

تابعت الزوجة البدينة الثقيلة الحركة العربة حتى توارت عن الأنظار، ثم قامت وبشق النفس أمكنها إغلاق النافذة الصغيرة بإحكام وكذا الباب الخارجي، ثم مضت إلى خزانها واستخرجت منها نسخة من الكتاب المقدس وجلست لتقرأ فصلاً وهو التزام طالما قامت به في الأوقات الحرجة وخاصة في وقت الخطر. لم يكن يعنيه أن تقرأ فصلاً بعينه، ولكنها الآن فتحت الكتاب على سجل الأنساب في أخبار الأيام الأول. كانت المرأة قارئة جد متواضعة، لكنها أخذت تعالج ما استطاعت نطق الأسماء ذات الأصل الأجنبي، وقد أدخل هذا التدريب على قلبها بعض الطمأنينة بينما ظل بالها منشغلاً بتوم وزوجها اللذين رحلا بعيداً. في الحقيقة لقد قامت تلك السيدة بصنيع جليل، صنيع تطلب منها تضحية كبيرة، إذ نجحت في جعل زوجها يصطحب الصبي بالعربة، وقد أدى إدراكها لهذا الأمر إلى إدخال السعادة على نفسها فيما اطمأنت وقرت عينها إلى ما خلفه الكتاب المقدس في وجدانها من أثر جميل. كان إيمانها إيمان البسطاء، لكن من ذا الذي يجادل في أنها مقبولة مباركة

عند الرب حسب النور الذي يملأ نفسها؟

من ذا الذي لا يود أن يكون واحدًا من أمثالها في بساطة الإيمان بعلمها القليل ومعتقداتها الشعبية الساذجة كما يخلو للبعض أن يصف حال هؤلاء، على أن يكون شكاكًا متغطرسًا فخورًا دائم الشكوى والتذمر والنعيق وكأن به بومة بشعة تتعب ما شاء لها الليل أن تتعب، امرؤ يشيح بنظره عن أشعة شمس الحقيقة والاستقامة قائلاً: *لا إله، لا إنجيل، لا مخلص، لا ملكوت سموات، لا خلود* هائمًا على وجهه في سبل الحياة بدون رجاء أو رب في الحياة الدنيا وعند الموت *يُلْقَى في غياهب الظلام أعمى بلا نور يهديه!*

الفصل السادس عشر

كوخ محاصر

كان الصباح مغبشاً بالضباب عندما اقترب توم ومرافقه من الحصن. كان الهواء رطباً وقد خالطه البخار، وكان العلم الأمريكي يتدلى من صاريته بلا أدنى خفق أو رفرفة بأشرطته ونجومه المتألقة. كان الحصن في ضاحية أبعد ما تكون عن أقرب مدينة أو بلدة ويحتل مكانه فوق نقطة مرتفعة من الأرض تتحكم في رقعة ممتدة من الأرض في كل اتجاه. قنمة البراري بمختلف أصنافها ودرجات جودتها، أراضٍ قل أن تطأها أقدام البيض من قبل، تمنح الناظرين إحساساً عظيماً بالاتساع والروعة. وعندما أشرق الشمس وتوارى الضباب حدق توم، وقد انعقد لسانه وذهلت نفسه، في المشهد الطبيعي، وها هو توم الذي طالما اعتاد مشاهدة منظر البراري في بيئته يغمره الشعور بأنه لم ير في حياته مشهداً في روعة ما يراه الآن.

قال الرجل الضئيل الجسم الذي يقبض على رسن الحصان: *لا يقدر أي هندي على الاقتراب من هذا الحصن، كل من يقترب يقع في نطاق المراقبة مهما كان بعيداً خاصة عند استعانة الضباط بالتليسكوبات. أفلا يمكنهم أن يروا على بعد مئات الأميال بنظاراتهم المقربة المكبرة. على أية حال لقد سمعت حكايات تروى عن قدرتهم على رؤية أبعد النجوم وما هو أبعد من ذلك*.

كانا قد اقتربا من إحدى البوابات فرأيا أفراد حراسة مدججين بالسلاح يذرعون المكان جيئة وذهابا فقال الرجل الضئيل الجرم الذي بات الآن يحس بالغرور كلما اقترب من القلعة:

سيدي الجندي إن هذا الصبي الصغير يريد رؤية قائد هذه المنطقة ليعرض عليه موضوعاً خطيراً للغاية ولا يحتمل أدنى تأخير.

أرسل الرجل الذي يحمل بندقية رسولاً من مجموعته إلى داخل الحصن دون أن ينبس بكلمة رداً على السيد جيمس، وعندما رجع الرسول قال الرجل ذو البندقية بغاية الاقتضاب:

ادخلا.

لم يكن توم قد رأى من قبل أية حصون، فأخذ يتطلع حوله بلهفة واهتمام بالغين، كانت صفوف من المدافع الثقيلة وقذائف المدفعية مرصوفة على هيئة أقماع، والمباني ذات الطوابق الأربعة المبنية بالحجارة تحيط بالميدان الفسيح الذي يتوسطه نصب وسارية العلم. خلف مرأى المدافع والذخيرة الحربية المهيب وكذا نظافة ونظام المكان وقعاً جميلاً في وجدان توم. وفي داخل هذه المباني ذات الحجرات الكثيرة ووسط عزلة ووحشة البرية تقيم أسر الضباط حفلات تمنح الحاضرين بهجة وحبوراً. تنهات للأسماع، عبر نافذة مفتوحة، أنغام موسيقية تعزفها أصابع ماهرة جد مدربة على آلة بيانو عذبة النغمات. ثم تعالى صوت جميل عذب رافق الآلة بالغناء.

هتف الرجل الضئيل الجرم وهو يتمايل طرباً بينما يربط بإحكام رسن الحصان بأحد الأعمدة الحديدية. أدخل توم وصديقه إلى حجرة طعام قائد الحصن. كان الضابط قد استيقظ لتوه من النوم

وتناول إفطاره على عجل. كانت طاولة الطعام المصنوعة من خشب الماهوجني تشغل حيزاً كبيراً وقد انتظمت فوقها الأطباق وسواها من أدوات الطعام في منظر بديع. كان الجنرال ماكلروي رجلاً طويل القامة نحيف القوام ذا شعر رمادي ووجه لَوَحْتُهُ الأجواء، فبات ذا لون برونزي. كانت زوجته بملابسها الفخمة وضخامة هيكلها تجلس على رأس الطاولة، وكان ثمة صبي ضمن سبعة أولاد يرتدي بذلة أسكتلندية يجلس بجانبها، بينما كانت المربية السوداء نانسي تغدو وتروح جالبة في كل مرة صنفاً من أصناف الطعام.

قال الجنرال برزانة بالغة بينما أشار لزائريه بالجلوس: *حسن أيها الفتى ماذا تريد مني؟*.

شرع توم في سرد أسباب طلبه المقابلة ونمت أسارير وجه الجنرال عن اهتمام متزايد بما كان الصبي يقوله ثم قال مقاطعاً:

تمهل يا بني، أظن أنك تحمل رسالة من الأهمية بمكان بحيث يحسن أن تعرضها على شخصين في آن معاً، ثم دق أحد الأجراس فظهر جندي قال له الجنرال:

أخبر الكابتن مانلي أنني أريد رؤيته.

لم تمر لحظة إلا وقد أتى الكابتن لمقابلة الجنرال. كان الكابتن رجلاً في أربعينات العمر ذا وجه صبور وملامح طيبة ومشية عسكرية واثقة. أحبه توم من الوهلة الأولى.

قال الجنرال: *كابتن أريدك أن تسمع من هذا الفتى حكايته. ابدأ من جديد يا بني وأوجز ما أمكنك ذلك دون أن تنسى شيئاً*.

عندما انتهى توم من روايته قال الجنرال: *أنت فتى صغير شجاع، ولو كنت ضمن صفوف الجنود لأبليت بلاء حسناً وذاع صيتك*، ثم التفت إلى الكابتن مضيفاً: *هذه مأمورية خطيرة يا مانلي ولا بد من اتخاذ إجراء لطمأنة المستوطنين الذين يمثلهم هذا الصبي. لقد سمعت أن هندياً أتى إلى الحصن وحاول أن يفهمنا أن ثمة قلاقل وشيكة، وأظن أنه هو ذات الفتى المدعو ذو الشعر الطويل في حكاية الصبي لكنني لا أعول كثيراً على ما قاله. والآن يا مانلي خذ كتيبة من الجنود لأنني أعتقد أنك خير من يصلح لهذا الأمر. تأكد من أن الرجال قد حصلوا على أفضل الخيول وتزودوا بالموثوق الكافية وبأن أسلحتهم في أفضل حال وأنا واثق بأنك خبير عليم بتلك الأمور، فاذهب وخلص هذه المستوطنة من خطر أولئك الأوغاد الأشرار*.

ثم التفت الجنرال إلى توم سائلاً:

ما اسمك أيها الفتى؟.

أجاب الفتى: *توماس جونز*.

حسن توماس أعتقد أنك تريد مرافقة الرجال.

أجل سيدي.

وهل تعرف أقصر طريق يوصل الرجال إلى تلك المستوطنة؟ أولئك ا

أجابه توم بالإيجاب .

اجلب حصاناً للفتى كابتن مانلي وتأكد من أنه مجهز بكل ما يلزم لأنه قد يكون ذا نفع كبير في رياتكم عبر الطريق. على أي حال إنه فتى ذو خصال نبيلة وروح فروسية ويستأهل منا كل إكبار وإعزاز. كم تحتاج من الرجال يا كابتن مانلي؟.

لن يزيد عددهم على أربعين إن ترك لي الخيار.

اتخذ من الإجراءات ما يحلو لك وأمل أن ألتقى أخباراً طيبة عند عودتك. لا بدّ من تلقين ذوي البشرة الحمراء الأوغاد درساً قاسياً لقاء هذا الخرق للقانون وإلا فسوف يلقون المزيد من التتكيل.

نهض توم وصديقه ليخرجا مع الكابتن مانلي وعندئذ قال الجنرال:

لكنكما لم تقولا لي كم المسافة التي قطعتماها هذا الصباح.

رد توم قائلاً: *لقد سافرنا طوال الليل، ولقد تناولت طعام العشاء في كوخ هذا الرجل وقد أقلني في عربته حرصاً على الوقت*.

هتف الجنرال وهو يغادر الطاولة قائلاً: *يا إلهي، كان هذا تصرفاً جد حكيم. نانسي تأكدي من أن يحتسي الرجلين بعض القهوة ويتاولا بعض الطعام وعندما تنتهي من إفطارك يا بني اخرج إلى ميدان الحصن، وسوف يكون الكابتن جاهزاً للمضي معكما في ذلك التوقيت*.

شعر توم بالخجل والحياء من قبول دعوة الجنرال، لكن السيدة ماكلروي كانت سيدة فضلى بحق إذ شجعتة بشاشة وجهها وإقبالها عليهما وملئها كأسه بشراب طيب الرائحة صبته من إبريق فضي كبير. علاوة على أنها لم تتوان بحكم فضولها النسوي عن سؤاله مراراً بخصوص ما قام به من مغامرات صباح أمس ولم تمل من الثناء على تصرفاته البطولية. كان توم يشرح للسيدة ماكلروي للمرة الثالثة كيفية دفعه للهندي الهمجي من فوق الجرف عندما غطى على صوته صوت رقص وغناء فتاة يتناهى إلى الأسماع عبر الرواق الطويل الذي يفضي إلى حجرة الطعام. كان صوتها أشبه بنغمات الطير الصادح الذي تناهى لسمعه، من قبل، عبر النافذة المفتوحة. كانت تلك هي أليس ابنة الجنرال الوحيدة وفيما هي تندفع داخلة إلى الحجرة توقفت مكانها جراء رؤيتها بعض الغرباء في المكان.

قالت الأم فرحة: *لقد جنبت في الوقت المناسب لتسمعي هذه الحكاية*.

كانت الفتاة في أوائل العقد الثاني من عمرها، وكان وجهها الجميل مرآة تعكس ما بداخلها من أحاسيس مرهفة ولطف جم وحصافة في التفكير، وقد ازدان رأسها بصفائر غزيرة من الشعر الأسود المائل للاحمرار تتثال هابطة كيفما اتفق على كتفها.

لم يعرف توم يوماً معنى الشعور العاطفي أو تمعن في النقاطيع الشخصية لأحد، لكنه الآن مأخوذ بهذا الجمال وتلك الرقة ومفتون بالظهور المفاجئ لتلك الفاتنة الصغيرة، فغاب عن باله أمر الطعام، ونسى ما مر به من أحوال، وغفل عما كان يحكيه وظل يحملق مشدوها صامتاً في هذه العجيبة الساحرة الماثلة أمامه. أدركت الأم حقيقة ما يدور أمامها، وقالت لتوم وقد علت وجهها نظرة أم

نتيه بابنتها:

لكن عليك ألا تنسى تناول طعامك وقد كان وراءك طريق طويل قطعته كما تعرف، ولا يزال أمامك مثل ما قطعت بالأمس.

أعاد هذا الكلام توم إلى وعيه وبطريقته الرجولية القوية استكمل قص الحكاية.

قالت نانسي السوداء، وهي تطل خارج النافذة فيما انتهى توم من تناول وجبته: *لقد أصبح الكابتن جاهزاً تقريباً*

قالت السيدة ماكلروي: *وداعاً يا بني. أرجو لك النجاح في مهمتك وأتمنى لك السلامة من كل أذى*. وعندها خرج توم من الحجرة وامتطى سهوة الحصان الذي خصص له وصافح المستوطن الذي أوصله للحصن ورأى السيدة ماكلروي وأليس يلوحان له بمنديليهما ومضي موكب الجنود في سبيله بانضباط عسكري خارجاً من الميدان.

كانت الخيول في حالة جيدة والجنود في حالة معنوية مرتفعة سعداء أن يمضوا في واجب قتالي بعد كل هذا الاسترخاء في الحصن. كان الجو صحواً والهواء نقياً منعشاً وسرعان ما قطعوا البراري السهلية بسرعة فائقة. لكن اللحظات كانت تمر ثقلاً على نفس توم الفلقة، وعندما توقف الركب عند الظهر لنيل بعض الراحة وإطعام الخيول. لم يطق توم صبراً على هذا التأخير. لكنه كان صحبة هؤلاء الجنود الشجعان في طريقهم لنجدة الأهل وهذا ما بث الأمل والبهجة في قلبه، غير أنه كان يخشى أن يصلوا بعد فوات الأوان. وفيما كان الجنود مستلقين على العشب يتناولون وجبتهم، أحس الكابتن مانلي بما يدور في خلد توم فقال له:

*اصبر يا بني العزيز اصبر. يقول المثل القديم *لا يمنع الحذر من قدر* وهذا المثل ينطبق على أمور الحرب كما على أمور السلم*.

كان الكابتن جندياً مسيحياً فأضاف:

علينا أن نصلي للرب يا توم حتى ينعم علينا. وهذه الهنيهة من الراحة ضرورية للجنود والخيول حتى يكونوا أكثر استعداد للقيام بواجبهم القتالي عندما نلحق هؤلاء الهمج المتوحشين ونشتبك معهم، وإن قدر الرب لنا فسوف ننقذ كل المستوطنين المساكين الذين أمكنهم الفرار من ساحة المذبحة.

كان العصر يوشك أن يبدأ عندما اقترب الركب من إحدى المستوطنات التي تقع على طريقهم. تم إيفاد المستكشفين ليروا ما إن كان ثمة هنود متربصون كامنون في الجوار. عاد الكشاف وأخبروا الكابتن بالأمر وجود للهنود لكن القرية دمرت عن آخرها. وخز الجنود الشجعان المتحمسون الخيول بالمهاميز، وسرعان ما أصبحوا في موقع القرية المخربة.

كان الهواء لا يزال مشبعاً برائحة دخان الحريق، وكلما تقدموا أكثر تلاحظ لهم أن كافة الأكواخ قد احترقت كلياً. كان المشهد ينبيء عن دمار تام. كانت قوائم الخيول تلغ في برك من الدماء المتخثرة ومن أن لآخر كانوا يصادفون أشلاء متناثرة لضحايا المذبحة. في أحد تلك المواضع شوهدت جثة

مستوطن قوي البنية لا يزال قابضًا على فوهة بندقيته المكسورة وقد تحول كل ما على أرض المكان حوله إلى فوضى عارمة جراء مقاومته الباسلة لمهاجميه. وهنا ثمة أطفال صغار اقتيدوا وتهشمت رؤوسهم بضربها مرارًا وتكرارًا في إحدى الأشجار. وهناك ثمة امرأة صلبت حية فوق شجرة بلوط. كانت كافة الجثث مبتورة الأعضاء مسحوقة الملامح، وقد مُرِسَتْ عليهم أشنع صور التتكيل والتمثيل، فقد قُطِعَتْ الأذان وجُدِعَتْ الأنوف وفُتِنَتْ العيون بالعصي وحُشِيَتْ الأفواه بالأوساخ والقاذورات.

أثارت تلك المشاهد البشعة الغضب العارم والسخط البالغ في نفوس الجنود. ثارت نائرة توم هو الآخر واهتزت جوانحه لكنه ارتعب جراء الصفرة الكئيبة التي علت وجوه الآخرين، صفرة نمت عن مدى المقت والبغضاء والكرهية ومدى الرغبة في الانتقام. لكن سرعان ما ظهر الكشافة المستطلعون وأفادوا بأن ثمة قوة كبيرة من الهنود تقيم مخيمًا أمام كوخ خشبي على مسافة بضعة أميال قليلة وقرر الكابتن مانلي أن يهاجمهم عبر جانب من الغابة على يمين موقع تخيم الهمج المتوحشين. عندما بلغت الكتيبة الغابة تبين لهم أن جميع المساكن على جانبي الكوخ المحاصر، والتي تؤلف ثلاثة قرى صغيرة ناهضة قد مُحِيَتْ من على وجه الأرض. بحذر بالغ أخذت الكتيبة الصغيرة أهدبتها للقتال الميداني. كان مئات من الهنود متجمعين قبالة الكوخ المنعزل وهم يمارسون طقسًا همجيًا من طقوسهم الاحتفالية.

همس الكابتن مانلي: *لقد أخذوا أسيرًا وجلبوه ناحية الكوخ يقربونه تارة ويبعدونه أخرى، لعل من بداخل الكوخ يخرجون بغية إنقاذه*.

أجابه توم وقد استولت عليه الدهشة: *إنه ذو الشعر الطويل!*.

رد الكابتن عليه قائلاً: *صه، صه يا بني سنصل إلى ذي الشعر الطويل قبل أن يصلوا هم إن لم يكن بصرهم حادًا كالصقور*.

وزع الكابتن قوته العسكرية إلى أربعة أقسام كل منها عشرة أفراد وأمرهم بالزحف بحرص عبر الأعشاب الطويلة إلى النقاط التي حددها بالقرب من العدو، موجهًا كلاً منهم بأن يثبت النظر على هدفه، حتى يسمعوا القسم الذي يقوده الكابتن يطلق النيران، فيطلقوا هم الآخرون النار. لقد كانت هجمات الهنود على المستوطنات ناجحة بآتم معنى الكلمة ومارسوا كافة أشكال القتل والحرق والتتكيل دون أن يقاومهم أحد فظنوا أنهم سادة الموقف فتخلوا عن حذرهم ما أدى إلى اقتراب كتيبة البيض دون أدنى انتباه منهم.

تسمرت عينا توم على ذي الشعر الطويل. كان وجه الفتى الهندي الوفي الوسيم خاليًا من أي أثر للخوف، لكن كان واضحًا أنه فقد كل أمل في الخلاص. بعين ثاقبة راقب ذو الشعر الطويل الاحتفال الجاري وعندما أحس بأن نهايتهم دنت، بدأ ينشد أغنية الموت. كان الكابتن مانلي عليماً بعادات وتقاليد الهنود وطلب من بعض رجاله تركيز النظر على أكثر الهمج قربًا من ذي الشعر الطويل، ثم أعطى الإشارة فحصدت طلقات العشرة جنود الذين لا يخطئون هدفًا أرواح هؤلاء الهمج وتلتها فورًا طلقات المجموعات الثلاث الأخرى فكانت النتيجة جد ناجحة.

استبد الهلع بالهنود، لأن النيران كانت تتوالى؛ بحيث نشأ عندهم انطباع بأن ثمة قوة كبيرة تفوقهم عددًا وعدة تهاجمهم الآن. وزاد من اضطرابهم وتشتت شملهم رؤيتهم بعض الجنود يخرجون من الغابة وهم يمتطون سهوات خيولهم لأن الكابتن أصدر أوامره بأنه في حال اضطراب أمر الهنود وتشتت شملهم تقوم مجموعة من الجنود بهدوء وسرعة بامتطاء الخيول وملاحقة الهاربين من الهمج. ظن الهنود أن الهجوم الذي وقع عليهم إنما هو هجوم قوة ذات أعداد كبيرة ما بين مشاة وخيالة، فأصبحوا تحت رحمة الجنود فأردوهم قتلى وأثخنوا فيهم طعنا بالسكاكين، ولم يبد أولئك الهمج أي مقاومة تذكر.

وما إن اطلع الكابتن مانلي على الرشقة الأولى من الطلقات حتى قال لتوم:

سأترك ذا الشعر الطويل في حراستك.

وهكذا بشهامة نبيلة جعل الكابتن من توم المُخْلِصِ المحرر للهندي النبيل الذي خاطر بحياته لأجل توم.

لم يطق توم صبرًا ولا أضاع ثانية واحدة فانطلق كالسهم وفك قيود صديقه الهندي التي أوثقوه بها إلى صارية الموت.

هتف الهندي ممتنًا: *آه! صديقي توم الطيب، جندي شجاع هو الصبي*.

سأله توم: *هل أبي وأمي بأمان؟*.

أجاب ذو الشعر الطويل: *في الكوخ هناك*.

هرع توم صوب الكوخ لكن الهندي استوقفه قائلاً:

قد يحسبونك هنديًا فيطلقون عليك النار ذلك أنه رأى بعينه الحادة النظر فوهة بندقية مصوبة عليهما من فتحة في المبنى، ثم أردف قائلاً: *رئيس البيض قادم حالاً ولن يطلقوا عليك النار لقد اخفت البندقية*.

وما إن أتم الهندي كلماته الأخيرة حتى فتح باب الكوخ الخارجي ورأى توم أمه واقفة هناك لأنها كانت قد ميزت هيئته في هذا الغسق المتكاثف وعرفت أنه ابنها. في قفزة واحدة سارع توم للقائها وفيما هي تطوقه بذراعيها وتقبله بحنو بالغ سأله توم:

لكن أين أبي؟.

أجابت الأم وهي تمضي نحو سرير في ركن من أركان المبنى الداخلي؛ حيث كان السيد جونز راقداً *اخفض صوتك، إنه جريح* وبحزن أضافت *وهو نائم الآن ولا يمكنني الجزم بما إن كان سيتعافى أم لا لكن دعنا نأمل خيرًا*.

سأل توم وهو يبكي لدى رؤيته بعضًا من النساء والأطفال في المكان: *لكن أين الرجال الآخرون؟*.

لقد غادروا ليلة أمس الأول. وقد قلت المؤن الغذائية وتراجع الهنود ليوهمونا بأنهم غادروا المكان، ولما كان الرجال قد أضنتهم قلة النوم ليال عدة ونالت منهم قلة الطعام، تسلطت عليهم فكرة أنه يمكنهم الخروج آمنين لعلهم يجلبون العون لنا. لكن ويا لسوء الأقدار خاب فآلهم وما إن خطوا خطوات قليلة حتى انقض عليهم الهمج وذبجهم أمام أعيننا. عمدنا إلى بنادقنا فاستخدمناها في مقاومة الهنود قدر استطاعتنا لكننا اكتشفنا استحالة منعهم من التسلل إلى داخل المبنى.

سألها توم متعجبًا: *هل أطلقتم عليهم النيران؟*

قالت بهدوء: *أجل يا بني وفي الليلة الفائتة ولعلمهم بما صرنا عليه من ضعف تجاسروا وحاولوا إحراق المنزل. شبت النار في سقف الكوخ بأكثر من موضع وصعد أبوك ليخمد النيران مجازفًا بحياته، وعندها تلقى رصاصة. كان أبوك هو قوة دفاعنا الرئيسية، وكان الهنود يخشون بندقيته كما لو كانت دسنة بنادق تطلق نيرانها في وقت واحد.*

لكن كيف واجهتم الموقف بعد إصابة أبي؟

كنا نحن النساء نشحن البنادق ونراقب الوضع ونطلق النيران بالتناوب. ولست قادرة على تصور ما كان يمكن أن يحدث لو تأخرتم ساعة أخرى. لقد وصل العون في وقته بالضبط.

سأل توم متطيرًا: *لكن أين جميع الأطفال؟*

ندد عن السيدة جونز أنين خافت يشي بما في داخلها من لوعة قلب وحرقة نفس لكنها تماكنت بشجاعة فائقة وكتمت أية أعراض أخرى لما يدور بوجدانها من أسى وشجن وقالت بمحبة وهي تضع يدها فوق كتفه:

يا بني نحن عائلة محطمة مشردة ولن يجتمع شملنا مجددًا على الإطلاق. لقد اختفى شارلي عند الهجوم الأول، لم أراه يقتل وأنت خير من يعرف أنه صبي سريع البديهة والحركة، ولعله استطاع الفرار بالرغم من أن الظروف كلها كانت ضده. وسارة باغتتها أحد الهنود وضربها بفأسه بينما كانت تفر من المخزن باتجاه المنزل.

انتحب توم وقال: *ماذا عن بب؟*

*ما وقع لبب كان فصلًا من أكثر فصول ذلك الهجوم وحشية وقسوة. كان ثمة هندي أبدي الكثير من آيات المودة والصدقة تجاهنا وكان يزورنا تقريبًا كل يوم. لقد سبق أن رأيته توم عندما قدمت لزيارتنا. كنا نعامله بحنو ولطف بالغين ومنحناه الكثير من الهدايا. كان الهندي بيدي مودة خاصة تجاه بب وكان بب مولعًا به وما أكثر المرات التي سارع فيها للقائه عندما كان يراه قادمًا إلينا. في يوم الهجوم الفتاك أتى الهندي كالمعتاد وهرع بب وهو يهتف من فرط السعادة؛ ليكون أول من يحييه، وفيما كان الطفل يدنو منه هاشًا باشًا رفع هذا الهمجي المخادع الخبيث بندقيته وعاجله برصاصة في الرأس. تلك كانت إشارة بدء الهجوم. كانت سارة آننذ واقفة عند باب المخزن، وما إن رأت بب يقتل حتى هرولت جارية نحو المنزل وقد شحبت وجهها رعبًا وفرغًا. تلبسها الفرع والرعب حتى إنها لم تكن تجري بل كانت تحلق كالباطر فوق الأرض، لكن هذا الهندي نفسه لحقها

بسرعة البرق لأنه كان أقرب للمنزل منها فضربها ضربة قاضية بفأسه الهندية الخفيفة. أما روبرت فقد ظل بيننا ويا له من صبي بار شجاع*.

كان توم غافلاً عما حوله مستغرقاً في سماع رواية أمه لما جرى حتى أنه لم يسمع دبيب أقدام الكابتن مانلي، وهو يدخل المنزل صحبة رجاله الذين جلس بعضهم، وظل البعض الآخر واقفاً في أنحاء الحجرة، وهم ينصتون بانتباه بالغ لرواية الأم لوقائع المذبحة. وعندما أنهت الأم روايتها قال الكابتن:

لقد أخذت احتياطاتي يا سيدتي وأحضرت معنا جراحاً ولو شئت فسوف يفحص جراح زوجك وينصحنا بما يجب عمله لأجل سلامته.

عندئذ تقدم الطبيب وشرع في فحص وتضميد الجرح.

قال الجراح: *هذا جرح بالغ لكن بدوام العناية الفائقة والتمريض سيلتئم الجرح ويشفى*.

رد الكابتن قائلاً: *هذا هو المستحيل بعينه في مثل هذا المكان. هل يتعين علينا نقله من هنا وهل سيفيده ذلك؟*.

أجاب الطبيب: *لو جهزنا محفة لنقله لكان ذلك أقل خطراً من تركه هنا في هذا المكان البائس*.

أضاف الكابتن قائلاً: *خاصة إذا علمنا بأن نوي البشرة الحمراء سيعاودون القوم إلى هنا لينهوا ما بدعوه من جريمتهم الشنعاء. ولعلي أقترح يا سيدتي أنه وبعد أن ينال رجالي قسطاً من الراحة أن ننقلك وعائلتك على الفور إلى الحصن؛ حيث ستلقون أفضل صنوف العناية والرعاية وسوف يتوفر لزوجك أعلى أشكال الخدمة الطبية وكل ما يحتاجه من وسائل الراحة حتى يشفى من جراحه ويصبح سليماً معافى*.

ألقت السيدة جونز نظرة على الجرح البالغ لزوجها.

قال الكابتن بلطف وحنو: *أنا أقدرُ مشاعرك، لكنك أبديتِ من ضروب الشجاعة والصمود ما يؤهلك لعمل ما هو أفضل. والآن عليك أن تعلمي بأن الهنود في الليلة الفائتة كانوا قرابة أربعمائة فرد أشداء، وقد سيطر عليهم الرعب والفرع كما رأينا، لكن قد يكون بعضهم قد اكتشف أنني لا أملك تحت إمرتي سوى حفنة قليلة من الرجال. وعلى ذلك فسوف يعودون بأعداد كبيرة طلباً للثأر والانتقام. ومن ثم يتعين أن نأخذ السيد جونز معنا وهذا جل ما نستطيع فعله في ضوء تلك الظروف*.

قدّرت السيدة جونز مدى صواب رأي الكابتن، ووافقت ممتنة على خطته وفي الساعة المحددة للتنفيذ كان كل شيء جاهزاً بدقة وكفاءة، وحمل الرجل الجريح على حمالة منقنة الصنع وترك الجنود خيولهم للنساء والأطفال ليركبوها ومضى الموكب الصغير متحركاً دون جلبة يشق طريقه في البراري تحت سماء تضيئها أنوار النجوم.

الفصل السابع عشر

الحريق الغامض

ما أقل الكلام الذي كان أفراد الركب يتبادلونه بينما كانت حفنة الجنود الشجعان تقود النساء والأطفال الناجين وجواب الأفاق الجريح عبر البراري الممتدة. وزع الكابتن مانلي كشافيه الخبراء في كل اتجاه لاكتشاف أية بادرة خطر، لأن العدو الماكر المخادع قد يباغتهم في أية لحظة وينقض عليهم.

همس توم لأمه قائلاً: *تري أين ذو الشعر الطويل الآن؟*.

أجابت الأم: *لا يمكنني تحديد ذلك لأنه غادر الكوخ بينما كنت أقص عليك كيف قُتلَ الأولاد جراء خديعة الهندي المدعو الضفة الصفراء. كانت عيناه تتقدان أثناء حديثي إليك وكان على وجهه نظرة لم أفهمها. أترى أنه شخص يوثق به؟*.

ردد توم كلمة: *يوثق به! كيف ذلك أماه لقد خاطر بحياته لأجلنا*.

أجل إنني أعرف ذلك يا بني وإنه مختلف عن أي هندي سبق لي رؤيته. لكن لماذا غادر بهذه الصورة الغامضة؟.

أجاب توم: *لست أدري لقد حاول الكابتن مانلي العثور عليه فقد ودَّ أن يقدمه للجنرال ماكلروي، وقال لي بأنه لا يشك في أن الحكومة ستكافئ ذا الشعر الطويل على خدماته*.

تتهددت الأم وتكلمت بصوت راجف *حسن شتان ما بيننا وبين أولئك الهنود من فارق شاسع! إنهم يأتون ويذهبون دون جلبه أو ضوضاء ولا يتكلمون كثيراً! لكن ما هذا؟* هتفت السيدة جونز وهي تنتظر للوراء.

تساءل توم *ماذا هنالك؟*.

قالت الأم وهي تشير إلى الاتجاه الذي قدموا منه: *ثمة ذلك الضوء*، وعندها رأى توم عبر الغابات المظلمة التي تشكل خلفية شرراً كثيفاً منبعثاً متطايراً من مدخنة الكوخ كان يُرى على بعد أميال في البراري الممتدة. رجع أحد الطلائع ولفت انتباه الكابتن لنفس المنظر.

قال الضابط وهو يضع نظارته المقربة فوق عينيه: *أنا لم أفهم كنه ذلك المنظر! فمن الواضح أن الكوخ ليس مشتعلًا فقط يظهر أنه محتل من قبل البعض*. ثم اتجه الضابط بحصانه نحو السيدة جونز وقال لها: *سيدتي هل يمكنك أن تخبريني ما إن كان هناك أية وقود تركته بالمدفأة عندما غادرنا الكوخ؟*.

أجابت السيدة جونز بجزم وحزم: *لا لم يكن هناك أي وقود*.

لكن ثمة نار كبيرة متأججة الآن في هذه المدفأة فماذا تفهمين من هذا؟ هل هي حيلة لجأ إليها الهمج المتوحشون. غمغم الضابط بهذا الكلام وهو يزود حصانه بالمهاميز ثم أضاف قائلاً: *ليس

من عادة الهنود أن يدخلوا منزلاً ويوقدوا ناراً. ولو أنهم اكتشفوا انسحابنا فسوف يكونون في غاية الدهاء إذا جعلونا نعتقد بأنهم اكتشفوا أمرنا وسوف نجدهم يحومون حولنا خفية وخلصاً كما لو كانوا فوجاً من الفهود الصائدة. ثمة شخص حي ومتواجد بالمكان فمن ذا يكون هذا الشخص؟*.

لقد رفعت تلك الواقعة الغربية من مستوى انتباه وقلق الجميع ونبهت الجنود إلى أن يتقدموا في طريقهم قدر استطاعتهم دون إقلاق راحة الرجل الجريح. كم من مرة في ظل هذا الضوء الشحيح خشيت السيدة جونز أن يكون زوجها في حالة احتضار جراء امتقاع وجهه وأنيبه الشديد، وقد عمدت هي وتوم وروبرت ملاحظة أية تغيرات تظهر على ملامحه فيما هم يوالون خدمته والعناية به. وفي الوقت ذاته كان أفراد جدد يتناوبون في حمل المحفة بكل نشاط وخفة، لأن الجنود ثمنوا عاليًا ما قام به توم من أداء بطولي للواجب، وما تحملته الأم من مشقة في صبر وما بذلته من محبة وحنو نحو الغير من عائلتها ومن غير عائلتها، وما بذله جواب الآفاق السيد جونز من استماتة في الدفاع عن بيته وأهله ضد شذاذ الآفاق من الهنود الهمج، ولذا فقد قرروا أن يوصلوا العائلة بسلام إلى الحصن؛ حيث ينعمون بالأمان والاستقرار بين جنبات القلعة، فإن هوجموا وهم في الطريق فسوف يدافعون عنهم حتى آخر رمق.

سأل الكابتن مانلي الأم بصوت خفيض: *كيف حدث أنكم سورتكم الكوخ بهذه الجدران ذات العوارض الخشبية السميقة القوية. أكنتم تتوقعون هجومًا؟*.

أجابته السيدة جونز قائلة: *لقد حذرنا ذا الشعر الطويل وأقنع زوجي المستوطنين أن يقطعوا أشجارًا ويقيموا الجدار*.

وقام زوجك أيضًا بتوجيه المدافعين؟.

*أجل ودبر مخرجًا وأنقذ العديد من الجيران، ولولا ذلك لكانوا قد قتلوا. وهؤلاء الأشخاص هم من تخلوا عنا فيما بعد خلال الليل وتركوا وراءهم وهم يهربون الباب الخارجي مفتوحًا على مصراعيه. جميعنا كان يمكن أن نلقى حتفنا قبل انبلاج النهار لولا أننا فوجئنا برؤية ذي الشعر الطويل واقفًا في الكوخ. يعلم الرب وحده كيف تمكن من تقادي كل أولئك الأعداء الكثر وتبنيها في الوقت المناسب تمامًا لما يحيق بنا من خطر داهم. بعدها قام زوجي بتأمين الباب مجددًا واختفى ذو الشعر الطويل من الكوخ فجأة كما حضر فجأة وهو يقول: *ذو الشعر الطويل يذهب بسرعة ليحضر الجنود وسوف يعود بسرعة!؛ وأظن أن هذا ما كان عندما أتى إلى الحصن كما أخبرنا توم وعندما لم ينجح في مهمته هرع للبحث عن توم ليتوسط لنا عندكم*.

قال الكابتن: *لقد مررتم بوقت عصيب وأبلى زوجك البلاء الحسن وكان سدًا منيعًا وأبدي من الشجاعة والحنكة ما لا يتوفر لدى أشد رجال الحصن قوة وشجاعة. وكل ما أرجوه الآن هو أن يتعافى ذلك الإنسان الشجاع سريعًا وأن يجني ثمار شجاعته وسمو أعماله. ولو كان تحت إمرتي بضعة مئات من أمثاله لتمكنت من محو ذوي البشرة الحمراء عن وجه البسيطة*.

غير أن الارتجاجات المفاجئة وحركة الحاملين للمحفة وألم الجرح كانوا أكثر مما يمكن احتمالته بالنسبة للرجل الجريح، فنشطت الحمى وبدأ الرجل في الهذيان وأخذ في الكلام ببطء وجلاء دون

أي أثر للهجة المستكشف جواب الآفاق وجاء كلامه في لغة إنجليزية صافية كان يتكلمها في سنوات عمره الأولى.

هتف وهو يشير بإصبعه: *ها أنتم! لقد جنتم مجدداً. كنت أعرف أنكم لن تدعوني أستريح*.

قال الكابتن بأسى: *إنه يفكر في الهنود أولئك الملاعين ذوي البشرة الحمراء*.

لقد أخبرتكم أنه سطا عليها كلها. أنتم تزعجونني حتى وأنا في قبوري. جماعة من مصاصي الدماء تمتص جوهر الحياة من جسد إنسان شريف أمين!

قال الكابتن وهو يرسل في طلب الجراح: *ها هو الآن تختلط الأمور في عقله*. جاء الجراح وفتح حقيبة العلاج وأشعل عود كبريت عسى أن يقرأ العناوين المكتوبة على العقاقير ثم أعطاه مخدراً قوياً على إثره دخل المريض في سبات متوتر قلق.

همست الأم لتوم قائلة: *أه! ليس الهمج المتوحشون هم من يزعجوننا الآن إنه الألم القديم للروح الجريحة*.

في اليوم التالي وقرب انتصاف النهار صار الراكب قاب قوسين أو أدنى من الحصن. كم كانت رؤية الأطفال والنساء المرهقين المنهكين لتلك الأسوار الكئيبة سارة مفرحة وكأنها تفتح ذراعيها مرحبة بهم! وكم بدا لهم العلم الوطني جليلاً مهيباً وهو يخفق مرفرفاً تداعبه نسيمات الهواء، هذا العلم رمز السيادة للولايات المتحدة، رمز القوة الكفيلة بحماية مواطنيها في البر كما في البحر، في المدن الأهلة بالسكان كما في البراري والقفار!

استقبل الجنرال ماكلروي المستوطنين بغاية المودة والترحاب ما جعلهم يشعرون بأنهم وسط أصدقاء يعرفونهم من زمن. تم تخصيص غرف صحية هادئة لجونز الجريح وآل بيته وتبارت سيدات الحصن في العناية به وبأسرته المكلومة المفزوعة. وكثيراً ما جاءت السيدة ماكلروي لتكون بجوار الرجل الجريح حتى يتسنى لزوجته نيل قسط من الراحة. لقد صار توم ذا حظوة كبيرة عند الزوجين ماكلروي كما حظيت الأم جونز باحترامهما وتقديرهما الرفيع.

كانت حياة جواب الآفاق جونز في الهواء الطلق طوافاً بالبراري قد مكنته من تنمية هيئة بدنية قوية سليمة أعانت الرجل على التعافي من جرحه شيئاً فشيئاً، إلا أن الطبيب لاحظ مستغرباً أنه لم يعد بعد لسابق قوته. كان من آن لآخر تتنابه الحمى ولم تعد جرعات المخدر تجدي فتيلاً أو تخفف ألماً.

ذات يوم دخل الطبيب على مريضه فوجده يهذي بشدة ويهتف بقوة وعنف:

لقد قلت لكم أنني لا أملك مالاً لأدفعه وأنتم لا تتركون أمامي فرصة لكسب المال. أوه، يا له من عبء فادح! الدين! الدين! الدين! ألن أجد الراحة يوماً؟. وبعد هنيهة انتقل جونز إلى موضوع آخر مغمماً *ماذا قال الواعظ؟ تعال إليّ وسوف ترتاح، أجل هذا ما أنا في حاجة إليه. أوه فقط لو استطعت المجيء!*

راقبه الجراح طوال فترة الهديان ثم قال:

إن ما يقتل زوجك ليس رصاصة الهمجي المتوحش لكنه جرح أكثر إيلاً وعمقاً. إن زوجك بحاجة إلى دواء للنفس لا للجسد، وعندما يستعيد وعيه تعالى صحبتته لزيارة قس الحصن ليتبادل معه الحديث.

بعد انقضاء ساعة وعندما خرج السيد جونز من حالة الهذيان قالت السيدة جونز بلطف:

أنت مريض جداً يا زوجي. ألا تظن أنه سيكون من الأفضل لك أن تتحدث قليلاً إلى الكاهن؟.

أجابها بوهن: *كاهن! أي كاهن؟*.

كاهن الحصن.

أجاب الرجل المريض في ريبة بعد برهة صمت: *أنا لا أعرفه لكن ثمة كاهن أنا أعرفه*.

تساءلت الزوجة: *من هو؟*.

قال بنفاد صبر ظناً منه أنها تتعمد الجهل: *كيف ذلك، الكاهن*.

ردت قائلة: *أنت تقصد المبشر*.

أجل لو أمكنني التحدث إليه فسوف أرغب في ذلك.

أبلغت السيدة جونز الجراح بما قاله زوجها وبعدها أرسل الجنرال ماكلروي في طلب المبشر.

كان المساء قد حل وكان الطقس مكفهراً مطيراً عندما عاد الرسول وصحبته السيد بيسون. كان رذاذ المطر يتساقط طوال النهار، لكن عندما هبط الليل تكاثفت سحب سوداء وعصفت الريح بقوة متسببة في سقوط أمطار عنيفة ثقيلة فوق النافذة. كان الهواء قارساً يخترق العظم. كان الحصن يرقل في حلل البهجة والحبور إبان الطقس المعتدل، أما الآن فهو غارق في الرطوبة والبرد القارس. خشيت السيدة جونز على صحة زوجها جراء العاصفة؛ حيث بات بدنه بعد إصابته جد حساس للتقلبات الجوية، وقد خشيت أكثر أن تعاوده الحمى ونوبات الهذيان لو أحس بما يجري من تغير الجو، فقررت ألا تدعو المبشر لرؤيته سوى عند طلوع النهار. كانت قد جهزت المكان بكل وسائل الراحة لزوجها وكافة متطلبات الوضع بالقرب من السرير وأعدت بعض الحساء وكل الأدوية في المتناول عندما دخلت السيدة ماكلروي وقالت لها:

أنت تبدين منهكة مكدودة اذهبي وخذي غفوة الآن ولو احتجت لشيء فسوف أُناديك. تعرفين أن المبشر حضر وسيرغب في لقاء زوجك في الصباح لذا يستوجب الأمر أن تكوني في أفضل حال لتشدي من أزر زوجك.

تفهمت السيدة جونز الموقف وانسحبت إلى غرفة ملحقة عازمة على نيل بعض الراحة ثم العودة. أحست السيدة جونز بأن أمراً جلاً سيقع فعز عليها أن تغلق عينيها، لكن لما كان الإجهاد قد نال منها كلياً فقد استغرقت فوراً في نوم عميق أيقظتها منه السيدة ماكلروي في منتصف الليل قائلة: *لقد انتعش حال زوجك انتعاشاً كبيراً وأظن أنه سيتعافى وهو يرغب في رؤيتك أنت والأولاد*.

هرولت الزوجة إلى جانب زوجها فوجدته جالسًا في السرير في أفضل هيئة وأحسن سيماء، كما لو كان لم يتعرض لما تعرض له من حمى وهذيان وكما لو كان في ليلة زفافهما. طلب منها أنية ماء وفوطة واغتسل بهدوء وروية. وفيما هي داخلة عليه نظر إليها بمحبة غامرة وسألها:

ماري يا عزيزتي هل أتى المبشر؟

أجابته: *أجل*.

هل في وسعى رؤيته الآن؟

أخرجت السيدة ماكلروي ساعتها وقالت بسرور:

هل أنت مضطر لرؤيته الآن؟ أظن أنك لست منتبهًا لتأخر الوقت الآن.

أجل أعرف أنها الثانية عشرة ليلاً، قال ذلك وعيناه تلمعان فهمًا وتيقنا: *لقد كان عليّ أن أرسل في طلبه منذ عام مضى لولا استكباري وتحجر قلبي. لكنني أعرفه وسوف يأتي الآن مهما كان الوقت متأخرًا*.

كان ثمة رنة غير مألوفة في صوته فقالت السيدة ماكلروي وهي تنهض:

سأنفذ طلبك.

فيما كان السيد بيسون يدلف إلى الغرفة مد الرجل المريض يده إليه قائلاً:

أنا أدنو من نهايتي يا صديقي. لقد مررت بتجارب صعبة مريرة في حياتي لم تكن قاسية عليّ بقدر قسوتها على من أحببتهم من صميم قلبي. لقد أخطأنا بشدة ولم يكن هذا الموضع سليماً قوياً واضعاً يده على جبينه، وما زاد الطين بلة كان ما يدور في هذا الموضع وكان كله خطأ في خطأ* حاطاً يده فوق قلبه* لقد تشككت في كل إنسان وارتبت في ربي. كنت قاسياً مستهزئاً أبغضت كل من حولي لكن الأمر مختلف الآن. لقد سمعت الصوت الذي يناديني، ذلك الصوت الذي حدثتنا عنه في الكوخ الصغير. لقد ناداني أنا قائلاً *تعالَ وامنحني الراحة والسلام* ولطالما مزقتني الصراع لكن كل ذلك تلاشى ومضى إلى غير رجعة. أه شتان ما بين الرب وبين الدائنين من البشر! لقد كنت مدينًا بانسًا مطارداً ملاحقاً مقهوراً حتى أوشكت على الجنون ولم تأخذهم بي رحمة ولا شفقة، لأنني كنت مدينًا لهم بمبلغ تافه من الدولارات كنت أنوي دفعه لكن استحال عليّ ذلك جراء لصوصية الآخرين وظلمهم. لكن ديني لمخلصي كان عظيمًا! إلا أنه سامحني على كل شيء دون كلمة تقريع أو ملامة!*

تقوه جونز بكل ذلك بصوت جليّ وقوة عجيبة لكن سرعان ما علا شحوب الموت وجهه ودخل في حالة هذيان متقطع، لم يكن محمومًا كما كان من قبل وأضاء وجهه ببسمة فائقة الجمال وأخذ يردد مجددًا إلى أن أصبح الصوت همسًا.

ماذا قال الواعظ؟ تعالَ إليّ وسأمنحك السلام والراحة* السلام!

الراحة! إنهما ملكي الآن*. وصعدت روحه إلى بارئها.

الفصل الثامن عشر

الصبي المختبئ داخل الشجرة

كان شارلي صبيًا يهوى المغامرة بسليقته. كان ذا طبيعة انفعالية مندفعة، ومع ذلك كان ثمة قوة كامنة بداخله تتحرك وقت الأزمات والطوارئ فتحيله إلى شخص شجاع رابط الجأش. كان واسع الحيلة وإذا ما داهمه خطر محقق واجهه بروح مرحة وثابة. في مستوطنتهم الصغيرة صادف أن وقعت يده على نسخة قديمة من رواية روبنسون كروزو وافتتن بأحداثها الخيالية المثيرة واجتذبتة فكرة أن يكون كروزو آخر جديدًا. لكن كان ثمة عائق جسيم يحول بينه وبين تحقيق حلمه ذلك ألا وهو تحويل البراري الصحراوية إلى محيط بحري تتحطم على صخورهِ الصلدة وفي خضم أمواجه العاتية السفينة التي تقله. ولئن أعوزه وجود المياه المالحة فما أكثر وجود أفراد مثل فرايدي في متناوله فقد هياً له خياله الخصب أن كل هندي ودود هو فرايدي بشخصه ومسلكه، كما صور له خياله وجود كثرة من آكلي لحوم البشر يمثلهم الهنود الأعداء الألداء الذين كانوا طيلة الوقت يغيرون على المستوطنات فينهبون ويذبحون البشر. والآن يحتاج شارلي إلى الاختلاء بكتابه الأثير والتلذذ بما فيه في المكان والزمان المناسبين ودون أن تقطع عليه أمه خلوته بالقول *شارلي اجلب لنا بعض الحطب* أو *شارلي احضر بعض الماء*، وكل ما هو على تلك الشاكلة من الأعباء المنزلية والمهام المعيشية اليومية التي توكل إلى من هم في مثل سنه من الصبية، لذا فقد تفقد شارلي الجوار بحثًا عن ملجأ آمن وصادف أن وجد ذات يوم في الغابة القريبة من الكوخ شجرة مجوفة ضخمة. ما أكثر ما مر شارلي بتلك الشجرة ولم يتسن له اكتشاف تلك الحقيقة السارة. كان مدخل تجويف الشجرة مغطى كليًا بكتلة متشابكة من الأغصان والفروع. ولو قبيض لتلك الأغصان والفروع أن تنمو وتتشابك بهذه الطريقة حتى تخفي الفجوة الكائنة بالشجرة لما أمكن لها أن تقوم بذلك بأفضل مما فعلت، ولما أمكن كذلك لغير صبي محب للاستطلاع والكشف مثل شارلي المتقمص شخصية كروزو أن يكتشف ذلك المدخل. وما إن اكتشف شارلي المدخل حتى دأب على التسلل خلسة داخل التجويف وعن طريق شعاع ضوء يدخل عبر فجوة بأعلى الشجرة، تمكن الصبي من إمعان النظر فيما صادف البطل خوان فرنانديز من حظوظ مواتية وأخرى معاكسة، وراح يحاكي تصرفاته بقدر ما يستطيع.

ما أغرب ما حل بالصبي بعد قراءته للرواية وما أعجب تحولات شخصيته خلال ساعات النهار الطويلة. لقد صار في مقدوره أن يسمع ويرى الكثير مما يجري حوله فكان يجلس مكانه داخل خلوته الخفية معرضًا عن الرد على أمه وهي واقفة عند باب الكوخ وهي تتادي عليه نداء عاليًا منغمًا:

شارلي! شارلي! أين أنت يا شارلي؟

وبدوره كان أبوه يخرج ويصيح بصوت أجش خشن:

شارلي، شارلي، أمك تحتاجك. لماذا لا تأتي؟

بعد برهة قصيرة كان الأبوان يرسلان سارة للبحث عنه وكان صوتها يكرر نداءات الأبوين فيما هي تبحث عنه في كل مكان دون جدوى.

ثم يحدث عندما يرجع للمنزل أن يخضع للاستجواب المعتاد *لماذا تغيبت وأين كنت؟ لقد نادينا عليك ولم نترك مكاناً إلا وتفقدناك فيه* فما كان منه إلا أن يرد بلامبالاة ظاهرة *أوه، لقد كنت موجوداً هنا بالخارج* وهنا ترد سارة وقد نفذ صبرها* لا ليس الأمر كذلك لقد زرعت المكان كله بحثاً عنك ولم أجد لك أثراً* وعندها يرد شارلي بأنفة واستتكاف* أف! البنات يُتقنّ البحث والتحري!*

والآن ألم يكن خطأ جسيماً أن يصم شارلي أذنيه كلية عن سماع نداءات والديه عندما يكونون بحاجة له؟ ثم ألم يكن يتسبب في قلق وإزعاج زائدين لهما جراء غيابه غير المبرر؟ إلا أن صبينا برر كل ذلك لنفسه بحجة أن عليه إخفاء شخصيته كروبينسون كروزو آخر. كان روبنسون كروزو في تقديره أعظم الناس وأعلاهم قدرًا في كل العصور. اتخذ شارلي كروزو مثالاً أعلى له يحذو حذوه في كل شيء واعتبر أنه مما ينقص من شأنه ويقلل من قدره حال تقمصه شخصية كروزو *الحاكم بأمره في كل ما هو تحت سلطته* أن ينفذ صاغراً كل ما ينفذه شارلي الطفل من أوامر ونواهي والديه. لم يكن يأنف وهو في المنزل تحت ولاية والديه أن ينفذ ما يطلب منه، لكنه وحين يكون في كهف كروزو المعروف باسم الشجرة المجوفة يصبح شخصاً آخر تماماً، وقد اتخذ قراراً بالأخالف تلك القاعدة حتى لا تختلط الأمور، فهو شارلي جونز حين يكون في المنزل وهو روبنسون كروزو حين يكون في كهف كروزو المعروف بالشجرة المجوفة.

بطريقة أو بأخرى حصل شارلي على مسدس خيالة، صحيح أنه غير صالح للاستخدام لكنه يحل محل أحد المسدسين اللذين وجدتهما روبنسون كروزو على سطح السفينة الإسبانية. لم يعدم شارلي يوماً الأمل في العثور على مسدس آخر، لكن نظراً لحاجته إلى ذخيرة يخزنها تحسباً لاشتباك منتظر مع آكلي لحوم البشر فوق البر فقد امتدت يده مراراً وتكراراً إلى مخزون والده من البارود والرصاص.

وكثيراً ما تساءل والده باندهاش وهو يبادر إلى سد النقص المتزايد غير المفهوم في مخزون الذخيرة: *بحق السماء ما سر تناقص البارود والرصاص على هذا النحو وبهذه السرعة؟* كما أن الصبي اعتمد في تكديسه لمزيد من الذخيرة الحية على ما كان المستوطنون الأسخياء ذوو النية الطيبة يمنحونه له عن طيب خاطر، والتي كان يعمد إلى حفظها بعيداً عن الأعين داخل حقيبة جلدية قديمة. أضف لذلك أنه كان يجفف بقايا اللحم ويخزنه ويكدس الكثير من اللوز والجوز والبنندق علاوة على حب الذرة القابل للتحميص والبطاطس الصالحة للتحمير، كل ذلك استعداداً لوقت الحاجة.

والآن ها هو كهف شارلي يقدم خدمة جليلة للصبي فقد أنقذ رأس شارلي ذات الشعر المجعد من السلخ، لأنه في ذات المساء الذي هجم فيه الهنود على الكوخ، كانت إحدى عيني شارلي على تاريخ أعمال روبنسون كروزو والأخرى كانت تراقب لتكتشف ما إن كان أحد آكلي لحوم البشر قد نزل على البر فيما كان شارلي يرتشف رشقات من ماء النبع التي ملئت إبريق قهوة قديم، وكان شارلي

يطلق على هذا الشراب حليب الماعز، وتابع الصبي المجزرة البشعة التي وقعت تحت ناظريه. رأى الصغير الحبيب بب وهو يجري لملاقاة المدعو الضفة الصفراء كما أنه شاهد بأمر عينيه كيف كانت أمه رابطة الجأش عندما أطلق الهمجي المتوحش الغادر النار على الصبي الصغير فتعثر وسقط ولم تصبه الرصاصة. ورأى في هذه اللحظة شقيقته سارة تجرى من المخزن صوب الكوخ وكيف أن ذلك الهمجي الشرير لم يتنبه لهروب بب وذلك لاستغراقه في قطع الطريق على الفتاة لدرجة أن بب الذي أفرعه دوي إطلاق النار ورؤية أخته تصاب وتهوى طريحة على الأرض زحف في اتجاه شجرة شارلي ظناً منه أنه يتجه نحو الكوخ.

رأى شارلي باب الكوخ مغلقاً وفهم كيف أن أبوابه قد أعدا لدرء هجوم الهمج الهنود وأن همّ الهنود حالياً قد انتقل إلى مهاجمة المنزل. وعلى ذلك زحف شارلي بحرص وحذر خارج الفجوة وأطبق بأصابع يد واحدة على فم بب ليمنعه من إصدار أي صوت وجره داخل الشجرة. كان شارلي متأكداً من أنه جازف بحياته عندما فعل ذلك، فلو حدث أن أطلق الصبي صرخة خوف أو فزع لاكتشف الهنود مخبئه وكلاهما سيذبح. لكن الفتى النبيل البار بأهله استرخى حياته في سبيل إنقاذ حياة شقيقه الغالي المحبوب.

لاقى شارلي صعوبة بالغة في مهمة التركيز على ما كان يجري أمام عينيه من أحداث بسبب أنه كان يضع عينيه على شقيقه كل لحظة لئلا يصدر عنه ما يفضح أمرهما ويكشف مكان اختبأهما الآمن. أما الصبي الصغير بب فقد انتابه هلع كبير وصارع في البداية بكل ما أوتي من قوة ليتخلص من قبضة أخيه، حتى أن أذرع شارلي أنهكت وتضععت من فرط الضغط المتواصل حال القبض على أخيه وسرعان ما هدأت المقاومة أخيراً عندما بدأ بب يتفهم الوضع.

همس شارلي: *إنهم الهنود الملاحين وسيقتلوننا لو صدر عنا أي ضوضاء*.

مر على الصبيين ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ بطولهما وهما بمخبئتهما الآمن. ما أعظم امتنان نفس شارلي كونه تزود بكل تلك المؤن والمياه دون تحسب لقدوم ساعة مخيفة كذلك! وكان شارلي حصيماً حكيماً في حرصه على عدم الإسراف في شرب الماء لأنه لم يكن متأكداً من المدة التي سيبقيان فيها حبيسي الشجرة، كما أنه علم بب أن يأكل ببطء لأنه سمع والده يقول بأن الصيادين في البراري يفعلون مثل ذلك ليدرءوا خطر العطش الشديد. كانت محنة شديدة ولا شك لصبي في ميعاة الصبا أن يتابع مثل تلك المشاهد المرعبة تجري حوله، وبعدئذ عندما أحرقت الأكوخ المجاورة لكوخهم تلبسه الخوف من أن الشرر المتطاير قد يطال الشجرة فيحرقها.

خلال كل هذه المتابعة الطويلة ظل شارلي يتحين الفرصة حتى يكون آمناً مع والديه داخل الكوخ، لكن الهنود المتوحشين رقدوا وعسكروا حول الشجرة في كل مكان، وكم من مرة زحف فيها أحد الهنود على يديه وركبتيه وأخذ يطلق الرصاص من وراء الشجرة تجاه ساكني الكوخ.

ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ ما أطولها وأثقلها على نفس الولدين الصغيرين المختبئين داخل الشجرة! ولم يكن ثمة ما ينبئ عن قرب انقضاء احتجازهما داخل الشجرة إلا أن يتواصل الدفاع المستميت عن الكوخ بذات الصورة كما هو حاصل الآن. كان لا يزال ثمة طعام كاف لهما بالرغم من أنهما اضطررا لأكل البطاطس نيئة. لكن الماء تعطن وصار طعمه مقززاً وإن لم يحصلوا على مزيد من

الماء النقي فماذا هما فاعلان؟ بدأ بب يشعر بوطأة العطش الشديد وحاول ذات مرة أن يصرخ طلبًا للماء. لقد رُبِّي بب على أن يكون بطلاً لكن مشاعر الخوف تمكنت منه، وأحياناً بدا وكأنه نحا جانبا احتياجاته ومخاوفه الخائفة وراء قلقه وخوفه الطفولي على والديه.

ذات مرة سأل بب شارلي وعيناه الزرقاوان تنطقان رعباً وصوته مرتفع لحد التهور، فيما كان أحد الهنود المتوحشين يزحف ليطلق النار على أحد الأهداف من وراء الشجرة *هل سيقتل الهنود الأوغاد أبي وأمي؟* فما كان من شارلي إلا أن أخذ كل احتياط لحماية شقيقه والدفاع عنه إن تعرض للخطر. لكنه العطش، فكيف يمكنه أن يتوقع من صبي صغير مثل بب أن يتحمل طويلاً الظماً دون أن يتوجع ويشكو بأعلى صوت؟

همس بب بصوت أجش: *أريد بعض الماء لقد جف ريقى وحلقي*.

حسن لا تحدث جلبية، وشارلي سيجلب لك بعض الماء.

وعلى ذلك انتظر شارلي حتى هبط الليل فأخرج رأسه من الفجوة بحذر وأمعن النظر فيما حوله. لم يكن النبع بعيداً لكن شارلي كان يعرف أن الهمج المتوحشين لا بُدَّ وأنهم يضعون أعينهم على النبع فلم يجازف بإخراج جسمه بالكامل من الفتحة إلا بحرص بالغ وبطء شديد. أما وقد اطمأنت نفسه إلى غفلة الهنود عن الشجرة فقد خرج بكامل جسمه من الشجرة ثم أدخل رأسه داخلها مجدداً وهمس:

والآن يا بب لا نائمة ولا حركة عندما أذهب لجلب الماء. سأعود خلال دقيقة.

بدا الصبي البطل في جنح الظلام وكأنه يرقانة فراشة كبيرة تزحف بخفة ونعومة تجاه النبع. كان شارلي يعلم أنه لو تعثر في فرع أو غصن شجرة أو ارتطم بإبريق القهوة بشيء فلا بُدَّ أن يلفت ذلك انتباه الهنود وسمعهم الحاد وسوف يهبون للتأكد مما سمعوه، إلا أنه فوجئ بمدى رباطة جأشهم ومدى هدوء نفسه عند المخاطر فما كان منه إلا أن أتم عمله البطولي الفذ عائداً بالإبريق الأسود القديم ممتلئاً حتى حافته بالماء.

كان شارلي على بعد بضع خطوات من الشجرة عندما رأى بالقرب من الفتحة شبح شخص يراقبه. ظن شارلي أن نهايته قد حانت لأنه رأى أحد الهمج المتوحشين يرفع بيده سكين السلخ فأيقن أن كل شيء انتهى، وعندها تحرك الشبح خارجاً من العتمة باتجاهه ويا لهول ما رأى. كان ذلك الشخص أخاه بب يمشي متقللاً مجهداً ناحيته وهو يقول هامساً ما استطاع:

هل جلبت بعض الماء؟.

وحتى لا يكون هناك مزيد من الجلبة أثر شارلي بشجاعة وجرأة أن يدع أخاه يشرب الماء في المكان الذي كانا فيه، فتمالك نفسه ووضع الإبريق على شفتي بب وسرعان ما تجرع الطفل رشقات كبيرة من الماء، كان يصدر بعد كل رشفة ينهلها صوتاً أجشاً من حلقه وقعت كلها على أذني شارلي المرهفتين كأنها دوي رصاص مسدس صغير. صبر شارلي على أخيه حتى ارتوى إلا أنه بعدها أخذ في دفعه برجليه الضخمتين ثم أدخله بسرعة ولطف داخل الفتحة ثم لحق به

بأقصى سرعة ممكنة وظلا على هذا الحال ساكنين تمامًا لمدة ساعة قبل أن يتجاسر شارلي على الخروج ثانية لجلب الإبريق الذي اضطر لتركه وراءه فوق الأرض.

لم تكن يقظة أبيهم واستعداده للدفاع عن الكوخ مدعاة لملازمة الولدين مخبئهما داخل الشجرة فترة أطول مما جال في خلد شارلي عندما اتخذ قراره بالاختباء في ذلك المساء المشهود ولعب دور روبنسون كروزو، ولكن بالمثل لأنهما تقاديا خطر التعرض لرصاصات والدهما عند الرد على نيران الهنود المهاجمين. وكما سبق وقلنا بأنه لما كانت الشجرة ضخمة وتحتل مكاناً أقرب ما يكون من الكوخ فسوف يزحف الهنود الهمج خلفها بحيث يتمكنون من إطلاق النار وهم بمأمن من نيران جونز الأب، لكن وفي كل الأحوال كان هذا التبادل خطيراً على أرواح الولدين وكان الوالد قد أخبر شارلي أكثر من مرة بأنه قد تقب الشجرة برصاصات بندقيته. وفي تلك الأونة كان الصغار ينبطحون على الأرض ما استطاعوا تقادياً لأي خطر.

عندما أضرم الهنود النيران في سقف الكوخ اضطربت نفس شارلي اضطراباً عظيماً خشية أن يكون والداه قد احترقا حتى الموت. كما أن فزعه وخوفه لم يخفا عندما رأى والده يصعد إلى السقف ليخمد النيران فيعرض نفسه لأن يكون هدفاً سهلاً لرصاصات الأعداء.

لم يستوعب شارلي ما جرى من هجوم الكابتن مانلي لأن الجنود لم يَمروا بالقرب من الشجرة، والبليلة والصخب والضحكات المخيفة التي مزقت سكون الهواء وهذا التطاحن بين المتقاتلين في ذلك الغسق المعتم المخيم، كل ذلك بدا لشارلي وكأنه دوامة ريح مخيفة، ومثلما وقع القتال فجأة توقف على حين بغتة، لم يجرؤ شارلي على مغادرة الشجرة لأنه لم يعرف إلاّ صارت الأمور ولصالح من انتهى القتال. كانت لديه فكرة مشوشة عن أن رحى القتال دارت بين بعض البيض الذين هجموا على الهنود لكن أيهم انتصر، هذا سؤال لا جواب له عند فتانا. ومن ثم فقد تابع الصبي مراقبة الموقف ليجيب على ذلك السؤال، وطال الانتظار وطالت المراقبة حتى وقت متأخر من الليل عندما رأى شارلي شباً مبهمًا يخرج محاذراً من داخل الكوخ.

قال شارلي: *لقد استولى الهنود على الكوخ وهم الآن سيضرمون النار في بيتنا كما فعلوا ببيوت الآخرين*.

لكنه حَيْرَهُ أن يرى كيف التصق الهنود الهمج ببعضهم بعضاً بدلاً من أن ينتشروا في كل اتجاه كما كان دأبهم من قبل. أمكنه أن يراهم وهم ينسحبون بعيداً وربما لاح له بعضهم وهم يعنلون ظهور خيولهم ويمضون. لما تواروا عن الأنظار تماماً ورأى كيف أن بب قد أراح رأسه فوق حقيبة البارود الجلدية واستغرق في النوم جراء الإجهاد، زحف شارلي خارجاً من الفتحة وأخذ يستطلع المكان. فجأة ارتطمت قدمه بجثة هندي ميت راقداً وجواره بندقيته وسرعان ما عثر على جثة هندي آخر. لكن كل شيء كان هادئاً بالكوخ.

قال شارلي مُحدِّثاً نفسه بفرح كبير وهو يذلف داخل البيت: *لقد وقعت معركة واندحر الهنود*.

كان البيت مظلمًا يعمه السكون فتلمس شارلي طريقه ناحية المدخنة وقلب الرماد وعثر على بعض الجمرات وخرج فجمع فروغاً وأغصاناً وكدسها فوق الجمر الملتهب ونفخ فيها حتى صارت ناراً،

ثم جرى صوب الشجرة فأيقظ بب من نومه واستحثه على الرجوع إلى الكوخ صحبتته ثم عاد مجددًا ليجلب مؤن وذخائر رفيقه كروزو.

نظر بب حوله في دعر وتساءل: *أين أبي وأمي؟*.

قال شارلي بلهجة واثقة مهدئًا روح شقيقه: *أعتقد أن المستوطنين كانوا على قلب رجل واحد وطردوا الهنود وقد اصطحبوا عائلتنا إلى حيث الأمان والاستقرار، والآن يا بب سوف نعيش أنت وأنا هنا مثلما عاش روبنسون كروزو فوق الجزيرة وسوف تكون صاحبي فرايدي إلى أن يرجع أهلنا لأنهم كما ترى سيفتقدوننا وسيعودون لاصطحابنا معهم بعيدًا عن الكوخ*.

تساءل بب وقد شرع في البكاء: *ألا نستطيع الذهاب إليهم حيث هم الآن؟*.

قال شارلي: *إن الظلام يعم المكان ولن نستطيع العثور عليهم*.

ألن يرجع الهنود ويؤذوننا؟.

بدأ شارلي يفكر فيما قاله أخوه.

أجاب وهو يهز رأسه في شك: *لست أدري ولكن هذا دأبهم. لكنني سأخبرك بما سوف أفعله. ثمة الكثير من الهنود قد قُتلوا في جوار المنزل وسأخرج الآن وأجمع قدر استطاعتي بنادقهم، ودعهم يأتون كما يشاؤون. لقد تمكن روبنسون كروزو من الاستيلاء على تسعة وعشرين قاربًا خفيًا وأراهن بأنه لم يكن في حوزته كل هذا العدد من البنادق التي أوشك على الاستيلاء عليها*.

هرول شارلي إلى خارج الكوخ وظل يتفقد ويجلب البنادق حتى أصبح لديه دستة بنادق.

قال شارلي: *الآن سأجلب الكثير من الخشب وسنجعل النيران تفرقع وتططق* وأخذ ينفخ في الفروع المحترقة؛ ليطير الشرر في الهواء *وإن عاد الهنود فسوف يظنون أن ثمة حشدًا كبيرًا من الرجال بالمنزل* مُردفًا: *علاوة على أن أهلنا سيعرفون أننا أنت وأنا هنا بالمنزل وسيعودون لتفقدنا إن رأوا الشرر يتطاير من المدخنة. على العموم أحسب أنه من الأفضل لنا أن أمضي معهم على أن أمكث لأقاتل الهنود وحدي، ولو قُدر لي أن أقتل فسوف يأكلني الهنود وأنا أكره أن يأكلني أحد*.

جلب شارلي من الحظيرة كومة معتبرة من الخشب ودلو ماء، ثم خرج ليتأكد من تأمين الباب الخارجي، ثم أغلق مصراع نافذة الحجرة. بعدها مضى ليفحص البنادق، ولأنه شأنه في ذلك شأن فتیان الغرب عمومًا خبير متمكن من فهم أساليب التعامل مع الأسلحة النارية فقد نظفها وحشاها بالذخيرة.

قال شارلي: *إذا كان كروزو قد نصب بنادقه السبعة في مواقعها فسوف أنصب أنا دستة بنادق*.

ولحسن حظ شارلي كانت المواقع معدة من قبل فنفذ خطته بنجاح. وبعد أن أتم نصب البنادق هبط إلى القبو ليرى ما إن كان ثمة طعام هناك فوجد البعض منه ورجع فوضع غلاية الشاي فوق النار ثم صب قدرًا من الماء المغلي فوق الثقل الموجود بوعاء الشاي، ثم أعد المائدة لنفسه ولأخيه بب

وحدد لأخيه مقعدًا بعينه ولنفسه مقعدًا آخر قائلاً:

علينا أن نتصرف كما كانت العائلة تفعل طالما نحن خارج الشجرة.

بعد أن أتموا تناول وجبتهم قال شارلي:

أنا متعب وقد مر عليّ وقت طويل لم أنل فيه طعم النوم الهانئ، لذا فلنذهب لناوي إلى الفراش.
استلقى الصبيان على السرير الكائن بركن الحجرة وقد أحاط شارلي أخاه الصغير بذراعيه في
محبة واستغرق الاثنان في نوم طفولي هنيء.

الفصل التاسع عشر

بب يطلق النيران بصورة عشوائية

كانت الساعة التاسعة صبيحة اليوم التالي عندما استيقظ شارلي وقد استعاد نشاطه بصورة كبيرة. مرت لحظات قبل أن يستيقظ شارلي من مكانه وكيفية حضوره هنا. بعدها هرع أولاً إلى فتحات إطلاق النيران التي صوب البنادق من خلالها، مسح شارلي المكان بعينيه من كافة الجهات ليرى ما إن كان ثمة أعداء في مرمى البصر. ولما كانت نتيجة البحث مرضية فقد شرع في إعداد الفطور، لأن بب استيقظ لتوه جائعاً كأنه *قطيطة جائعة*.

قال شارلي لأخيه وهما يتناولان وجبة الصباح: *أتعرف أن لدي خطة ممتازة لصالحنا كلينا. سوف أحفر كهفاً في القبو فلو تمكن الهنود من دخول الكوخ يمكننا الاختباء هناك كما اختبأنا بداخل الشجرة*.

قال بب: *وسوف تحرص على جلب بعض الماء لكي أشرب منه*.

أجاب شارلي: *أجل سنحصل على كل ما نحتاجه هناك*.

وحتى يستيقظ شارلي ثانية من أن كل شيء بالخارج هادئ وخال من كل ما يهدد سلامتهما قام بفحص ثانٍ ثم توجه إلى القبو؛ لكي يبدأ في حفر الكهف. ولحسن طالع الخطة اكتشف شارلي أن حوائط القبو أقيمت بغير عناية ودقة وصادف في أحد الأركان حجراً كبيراً أمكنه تحريكه من مكانه في أساسات القبو دون أن يحرك الحجارة الأخرى. استخرج شارلي الحجر بواسطة جاروف النار الحديدي وسرعان ما أصبح عنده كمية كبيرة من الرمال الناعمة.

قال شارلي لشقيقه: *الآن عليك أن تأخذ الجاروف وتقرغ الرمال في كل أنحاء القبو بينما أقوم أنا بالعمل اعتماداً على اليدين*.

كانت تلك مهمة يسيرة فقد كان الرمل جافاً خفيفاً. لم يمر وقت طويل حتى صار لديهما مكان فسيح يختبئان فيه.

قال شارلي: *لكنني سوف أوسعه أكثر بحيث لو حدث أن احترق الكوخ فوق رؤوسنا فلن يكون المخبأ خانق الحرارة يزهق أنفاسنا*.

لكن بب أحرز تقدماً قليلاً في تجريف الرمال، وعليه فقد أكمل شارلي ما بدأه شقيقه ثم عمد إلى كومة من القش كان قد سبق له جمعها بجهد جهيد في ركن من الأركان وأخذ منها ما يكفي لتغطية الرمال في كل أنحاء المكان.

قال شارلي: *والآن دعنا نجرب كهفنا الجديد*، وتلوى زاحفاً عبر الفجوة التي استخرج منها الحجر ولحق به بب زاحفاً هو الآخر، مد شارلي يده وسحب الحجر إلى مكانه مجدداً. كان شارلي مبتهجاً راضياً كل الرضا.

هتف قائلاً: *كم يعجبني ذلك! إنه أقرب شبهًا بكهف روبنسون كروزو*.

ظن بب لوهلة أنه معجب بالمخبأ، لكنه سرعان ما صاح قائلاً: *أنا أتنفس بصعوبة بالغة والمكان مظلم موحش*.

أجابه شارلي: *من حسن حظنا أننا ما زلنا في طور التجربة لكنني سأعمل على إصلاح كل شيء*.

دفع شارلي الحجر بقدمه وصعد إلى الأعلى وعاد وفي حوزته حربة ونجح ببراعة في فتح بعض الفجوات الصغيرة عبر الملاط بالشقوق التي خلفتها وراءها الحجارة التي رصت بغير تناسب. تم له ذلك بطريقة متقنة لا يمكن ملاحظتها وبحيث يمكن بسهولة أن يتخلل الكهف الهواء والضوء فيحيلاه إلى مقام مناسب تمامًا للغرض الذي أنشئ من أجله.

الآن أصبحنا بعد الظهر فصعد الولدان لأعلى، ونظر شارلي في أرجاء المكان بالخارج مجددًا ليرى ما إن كان ثمة إشارات تنبئ بالخطر *لكن كل شيء كان على ما يرام على مدى البصر*.

قال شارلي برزانة وثقة: *لا أظن أن الهنود سيعودون ثانية. في اعتقادي أنهم نالوا ما لا يحبون من القتال فقد ولوا الأدبار بسرعة كما أن الكثيرين منهم خروا صرعى*.

عندها وانت الشجاعة بب فقال:

لكم أحب أن أدخل عصاي الكبيرة في أدبارهم إن فعلوها ورجعوا.

لم يتمالك شارلي نفسه عن الضحك على ما قاله شقيقه بالرغم من كل المشاهد الدامية المرعبة التي تلاحقت أمامهما في الأيام القليلة الماضية لكنه أجاب أخاه قائلاً:

أنا أعرف ما يمكنك عمله إن جاؤوا لتجعلهم يولون الأدبار. ثم أخرج شارلي من جيبه كرة مجدولة من خيط القنب ربط خيطها بزناد إحدى البنادق المنصوبة ثم تحسس ثانية جيبه بحثًا عن سكينه ليقطع الخيط وقال:

أين مطواتي؟! لا بُدَّ أنني فقدتها عند ذهابي للنبع لجلب الماء، كثير من الأشياء سقطت مني أثناء زحفي فوق العشب. لا بأس يمكنني أن استخدم سكين المائدة ومد يده فأخذ واحدة من فوق المائدة وقطع الخيط وعلق طرفه الأخير بحيث يكون في وسع بب الوصول إليه ببسر وسهولة ثم فعل نفس الشيء مع جميع البنادق.

بعدها قام بشرح الأمر لشقيقه قائلاً: *الآن عندما أطلب منك جذب أحد الخيوط لا بُدَّ أن تفعل ذلك بأقصى سرعة ممكنة. سوف أهمس لك، اجذب! وعندها بادر دون إبطاء للقبض على الخيط وتسحبه هكذا*. ولكن بغير قصد من شارلي انطلقت رصاصة.

أنا لم أقصد فعل ذلك لكن هذا مثال على ما سوف يتم. جذب الخيط يؤدي إلى تشغيل البندقية وإطلاق الرصاص، فهمت.

أصغى بب بانتباه كبير وسأل شارلي بحماسة:

أو أفعل ذلك الآن؟

أجاب شارلي: *أوه لا تفعل، إنما أفعل ذلك عندما أطلبه منك. عندما يأتي الهنود وأقول لك، اجذب! لنفرض جدلاً أنني ذهبت في ذلك الاتجاه* وصعد شارلي إلى فتحة المراقبة* ونظرت في هذا الاتجاه* وسدد نظره على الفتحة وقال: *ثم رأيت هندياً ضخماً قادماً ليقتل بب*.

رد عليه الولد الصغير *أجل أنا أعرف* والتمعت عيناه ببريق الإثارة.

حسن كما كنت أقول، أنظر من الفتحة فأرى هندياً ضخماً قادماً.

عندما نطق شارلي الكلمات الأخيرة اقترب بب أكثر من الخيط وعينه لا تفارق شارلي.

ثم قلت همساً، اجذب!

في التو سحبت قبضة بب الممتلئة الخيط فدوى في البراري صوت طلقة ثانية.

سأله أخوه غاضباً: *لماذا فعلت ذلك أنا لم أطلب فعل ذلك الآن. كل ما في الأمر أنني كنت أشرح لك كيفية القيام به وأود أن تقوم به على النحو السليم. لا تمس الخيوط قبل أن أطلب منك ذلك، إذا عندما أعطيك الأمر تجذب الخيط، أليس كذلك؟*

بدا الولد ذو الشعر المرجل كما لو أنه عزم على الوقوف بقرب البنادق.

واصل شارلي كلامه قائلاً: *بهذه الطريقة يمكننا أن ندفع عنا الكثير من الهنود فأنا أذخر البنادق وأطلق الرصاص وأنت تطلق الرصاص أيضاً. لكنني لم أضع هذه البندقية بالطريقة الصحيحة* متطلعاً خارج الفتحة وهو مستمر في إعادة وضعها وإذا به يعود وقد اصفر وجهه وصارت ألفاظه واهنة غير بيّنة وهو يهتف:

ماذا لو كان ثمة هندي هناك الآن!

كان هذا القول يجري على ألسنة الصيادين القدامى، مهما كانت مهارتهم في استخدام الأسلحة النارية، فما إن كانوا يرون في مرات صيدهم الأولى حيواناً ضخماً – طيبياً – مثلاً – فقد كانت تتلبسهم تلك الإثارة وذلك الانفعال القوي بينما يكون ذلك الطيبي واقفاً على بعد خطوات قليلة منهم، في لمح البصر لا يأخذون قرار إطلاق النار وعندما يأخذونه يكونوا على يقين بأنهم سيخطئون الهدف. إذا لم يكن مفاجئاً أن يتجمد شارلي في مكانه للحظة. فقد حرق في الهندي كما لو كان تحت تأثير سحر بينما كان الهندي ينسل وقد أحنى رأسه قادماً من جهة النبع متجهاً نحو الشجرة في ذات الطريق الذي سلكه شارلي وهو يجلب الماء، ثم تمهل ليلتقط شيئاً من فوق الأرض ثم خطا يضع خطوات ثم توقف ووضع أذنه فوق الأرض متسمعاً متصنناً كما لو كان ينصت أو يسمع شيئاً بالفعل. كان الهندي في مرمى بندقية شارلي طيلة الوقت وكان هدفاً سهلاً إلا أن الصبي لم يرفع أصبعه ليجذب الزناد.

اتجه الهندي الهمجي سريعاً للأمام كما لو كان يقص أثر شارلي فيما هو يزيح بيده للوراء الأغصان والفروع فاكتشف فتحة الشجرة، ولدهشة شارلي قام الهندي بالزحف داخل الشجرة.

مرت قرابة ساعة مكث خلالها شارلي يتربق وقد استبد به قلق عارم متسائلاً عما قد يحدث بعدئذ
وعندها شاهد حوالي عشرين أو أكثر من الهنود يتسللون خلسة ويقترّبون من الاتجاهات كافة
صوب الكوخ. تخرج وجه شارلي بالدم مجدداً واستعاد رباطة جأشه وهمس لأخيه *الهنود
قادمون*.

بعدها قام شارلي بتسديد النظر من فتحة أقرب بندقية لشقيقه واكتشف أنها تغطي في مرماها العديد
من الهنود الهمج ثم عاين البندقية التي تليها وسدها هي الأخرى وقال لأخيه الأصغر *اجذب!*.
نَفَذَ بب الطلب ومضي ليجذب الخيوط واحداً تلو الآخر حسب ترتيبها. أحدث ذلك انتشاراً عشوائياً
للنيران في المكان كما لو كان ثمة احتفال تطلق فيه المدافع على شرف سفينة حربية عتيقة الطراز.
كان الأثر مذهلاً فقد ظن الهنود الهمج أن ثمة قوة كبيرة تشغل الكوخ فأطلقوا صرخات مدوية
وتخلصوا من أسلحتهم النارية ورموها فوق الأرض واختفوا تماماً عن الأنظار.

كان شارلي مذهولاً من سوء فهم بب للأمر وللأثر الذي أحدثه ذلك. حدق شارلي مندهشاً في
المكان وقد خلا من الهنود لأنهم فروا هاربين بلا أثر، وقفز إلى الأرض واحتضن بب بقوة حتى
كاد يزهق أنفاس الصغير، وراح يضحك بشكل هستيري ويقول متلعثماً: *هذا سبق لنا على
روبنسون كروزو لقد تفوقنا عليه!*

كان المشهد مضحكاً للغاية ومثيراً للسخرية فقد أتى الهنود الهمج ليجمعوا جنث قتلاهم وكانوا قد
تسللوا زاحفين مقتربين من المنزل دون أن يتنبه لهم أحد، فأيقنوا بأن اشتباههم بخلوه من أي أحد
صحيح وفي محله. ومن ثم فقد كان إطلاق الأولاد للنيران مفاجأة صادمة لهم، إذ أن من بالداخل
سمحوا لهم بأقصى اقتراب ممكن قبل أن يفتحوا عليهم النيران، لأنهم كانوا يقدرّون وفقاً للسوابق
بأنه لو كان بداخل المنزل البعض القليل من المدافعين عنه فقد كان الأولى بالأخيرين أن يبقوهم
بعيدين عن المنزل ما استطاعوا. ناهيك عن أن النيران جاءت من الاتجاهات كافة بالمنزل في
نفس الوقت ما بدا معه أن الكوخ حاشد بالرجال.

كان يوماً عظيماً وكان الدخان الخفيف المتقطع المتصاعد في الهواء على أثر إطلاق نار كل بندقية
يمنح شارلي رؤية شاملة واضحة لما يجري بالميدان من توابث كل أولئك الهمج في وقت واحد
وملامحهم المفروعة، وكيف كانوا يفرون من مرمى النيران وقد تملكهم الرعب، ما بدا للفتى
مشهداً يثير الضحك والسخرية خاصة عندما يفكر في أن خطأ غير مقصود من بب هو السبب في
حدوث كل ما حدث.

وما إن تمالك نفسه حتى عاود تلقيم البنادق بالذخيرة. لكن كان ثمة أمر أكيد واحد يزعجه أيما
إزعاج ألا وهو وجود الهندي للآن داخل الشجرة. ما الذي دعاه لدخول تلك الشجرة؟ فكر شارلي
بينه وبين نفسه *ربما سيفتح ثغرة في الشجرة ويتحين الفرصة ويطلق النار عليّ. أيّاً يكن إنه
جاسوس ولو تسنى له أن يكتشف أن ليس بالمنزل أحد سوانا بب وأنا فسوف يتسبب ذلك في
حدوث ما لا نحب*.

تحرير شارلي ولم يدر ماذا هو فاعل. لازم شارلي مكانه عند الفتحة ليرى ما إن كان الهندي
سيخرج أم لا. مكث شارلي قرابة الساعتين في موضعه ذاك حتى أرهقه الانتظار والترقب. ثم كان

منه أن فكر في خطة أخرى. كان شارلي قد قرأ في كتاب تعليم تهجئة قديم قصة الصبي الذي لم يهبط من فوق شجرة تفاح المزارع بالملاطفة والملاينة فقال المزارع: *إن لم تنزلك الكلمات فسأجرب الحجارة* ما جعل الولد المنتهك حرمة المكان ينزل بسرعة للأرض. والآن لا يعتلي الهندي الشجرة لكنه بداخلها ولن يخرج لمجرد أن شارلي يراقبه عن بعد ومن ثم فإنه يتعين على شارلي اتخاذ إجراءات أقسى، فسدد بندقية إلى حيث يتوقع أن يكون الهندي الهجري مختبئاً وأطلق النيران. أطلق شارلي النار ثلاث مرات، وفجأة خرج المحتل الأغبر الوجه والجسم من الشجرة وتوارى وراءها وشرع في إرسال إشارات صديقة تجاه الركن الذي تتقاطر منه الرصاصات. فهم شارلي الإشارات لكنه غمغم قائلاً: *لن تخدعني بهذه السهولة أيها الوغد العجوز*. واصل شارلي إطلاق النيران وفي كل مرة كان يظن بأنه نال من الهجري مقتلاً. خلال هذا الوقت كله لم يرد على النيران بالمثل ما زاد من فضول الفتى ليعرف سبب ذلك لكنه خلص إلى أن تلك ليست إلا حيلة وخدعة من قبل الهندي وعزم على ألا يستغفل. ومهما يكن من أمر غموض سلوك الهندي ذاك وماذا دعاه لذلك فقد أصابه القنوط من تحقيق مأربه وتسلل هارباً بمهارة كبيرة.

أسدل الليل أستاره الكثيفة حول الكوخ المحاصر وأحس شارلي بشعور مخيف بداخله. كان يحس بالأمان طالما كان بمقدوره أن يرى العدو لكن الآن وقد أرخى الليل سدوله الكثيفة فقد باتت الأجواء تنذر بشر مستطير. كان صفير الريح وأزيزها يُسْمَعَانِ عبر الأشجار وصرير الحشرات يتخلل لحاء الأشجار والصرير الحاد لصرار الليل، كل ذلك كان يبدو له غريباً مخيفاً. فكر شارلي في الموتى والجنث المشوهة الراقدة فوق العشب خارج الكوخ حيث العشب وقد تلطخ بالدم البشري وفي اللعنات والصرخات التي تصاعدت وترددت أصداؤها في الجو والصراع المميت الدامي الذي تابعه من حيث هو مختبئ داخل الشجرة ذلك الملاذ الآمن الحامي، وكيف كان الرجال العزل يقاتلون باستماتة ودوي طلقات الأسلحة النارية الذي ينز في الجو والصرخات المرعبة والتوسلات التي تقطع نياط القلوب تصدر عن النساء والأطفال وهم يقتلون ويعذبون على يد أولئك الهمج وتلك النيران المتلظية الفظيعة التي شبت في الأكواخ بينما الهنود يرقصون ويصرخون في طرب وحبور كريهين: كان عقله الدائب التفكير غاصاً بكل تلك الذكريات والصور. في ظلمة وسكون الليل البهيم ذاك وفي ذلك الكوخ خايلت شارلي تلك المشاهد بغاية القوة وخُيِّلَ له أن ثمة وجوهاً شيطانية مرعبة تتلصص عليه وتدمدم حوله وفي اتجاهه من كل أركان الحجر. في أحد اللحظات خُيِّلَ له أن درج القبو يتخلل ويتزعزع تحت وطأة أقدام ثقيلة. وبينما استغرق بب في نوم هنيء غافلاً عما يحس به أخوه من رعب وفزع ظل على إثره يرتعد ويترقب طيلة تلك الليلة الطويلة إلى أن أزاحت أشعة الصباح الوردية كل أضغاث الليل وأوهامه.

الفصل العشرون

ذو الشعر الطويل

خيم الحزن على سائر أرجاء الحصن لدى علم الجميع بموت السيد جونز علاوة على أنباء الفظائع التي اقترفها الهنود في هجومهم الغادر على المستوطنات، وعندما شيعت جنازة المستكشف الراحل ذرفت عليه عيون المحاربين القدامى دموعاً حرى. وقد أبدى الجنرال ماكلروي تقديره واحترامه للسجايا والخصال التي لمسها في شخص المستكشف الراحل في أيامه الأخيرة، فقال:

صحيح أنه لم يخدم في سلك الجندية النظامية لكن إن كان ثمة من يستحق الدفن كجندي فإنه جونز المسكين، ولسوف يحظى بذلك الشرف.

وهكذا حُمِلَت الجثة إلى القبر يحف بها موكب عسكري يتقدمه الجنود بالخطوة العسكرية الجنائزية على أنغام اللحن الجنائزي وقرع الطبول الرتيب، ثم وُريَت الجثة التراب في مئواها الأخير وتلى قس الحصن صلاة الدفن بصوت راجف لأن المبشر آثر أن يأخذ مكانه ضمن صفوف المعزين بجانب أرملة الفقيد، ثم تم إطلاق النار بالتحية العسكرية الواجبة والمعتادة في مثل هذه الظروف وحذا موكب الجنود حذو نار التحية العسكرية فأطلقوا نيران بنادقهم.

عند هذا الحد أحست السيدة جونز بأنها تكلت زوجها بالفعل وأنها جد وحيدة الآن في هذا العالم وبات همها هو معرفة ماذا هي فاعلة الآن في مثل تلك الظروف لنفسها ولعائلتها في آن معا. وبقلب منقطر حزناً راحت تناقش الأمر مع توم.

لا يمكنني مواصلة البقاء هنا في الحصن نحيا على كرم ضيافة الجنرال، وبما أن والدك الغالي قد رحل فقد بات لزاماً عليّ أن أكسب عيشي بعرق جبينى. وسأخذ روبرت معي لأنه بعد غض صغير وسنعيش في بيت متواضع حيث يمكنك أن تكون معنا كلما سنحت الظروف. ولكن ما الذي يمكنني فعله لتحقيق ذلك هذا ما أجهله الآن لأن فرص كسب العيش بالنسبة للنساء عادة ما تكون ضئيلة.

اعتصر الألم توم لرؤية والدته تتحدث بمثل هذه الطريقة المحبطة ولأنه من ناحيته أعجز من إن يمد إليها يد العون في محنتها تلك. عندما بلغا هذه المرحلة من الكلام سمعا طرقة خفيفاً على الباب ثم دخلت السيدة ماكلروي.

استمحك العذر إن اقتحمت عليكما خلوتكما لكنني جئت لأسألك أية ترتيبات أعددت للمستقبل وحتى أقول لك إن لم يكن ثمة شيء واضح في الأفق فإننا الجنرال وأنا نرغب في بقاءك معنا.

اعترضت السيدة جونز قائلة: *لكنني أثقلت عليكما بأكثر مما ينبغي ويجب عليّ أن أسعى حثيثاً وبأسرع ما يكون لإقامة بيت يضمنا أنا وولدي روبرت*.

سألتها السيدة ماكلروي: *هل يوجد ثمة في الأفق مكان مناسب لكما؟*.

أجابت الأرملة: *ليس على وجه التحديد*.

ردت السيدة ماكلروي قائلة: *ليس من المنتظر حدوث ذلك سريعاً. والآن دعيني أحدثك عن خطتنا التي ارتأيناها الجنرال وأنا بالنسبة لك وهي خطة لصالحنا نحن وأنت. إن هذا المجتمع الصغير الذي يعيش بين جدران هذا الحصن هو مجتمع متماسك للغاية، ووقت الجنرال ووقتي مزدحمان للغاية لدرجة أن أطفالنا يفتقرون لعناية الأم المنتظمة. وأنت بالضبط الشخص الذي نحتاجه للقيام برعاية أطفالنا. وأولادك خير شاهد على مدى امتيازك كأب فلقد تجلى فيهم ما يبهرن على أنك تمتازين بالخصال العقلية والنفسية التي تؤهلك لشغل هذه الوظيفة. والآن إن قمت بتدريب وتعليم أولادي بعض الوقت فسوف تزيحين عن كاهلي عبئاً ثقيلاً وتريحيني من قلق يأخذ بخناقنا طيلة الوقت وسيكون الأولاد موزعين بيننا نحن الاثنين بحيث تريح إحدانا الأخرى.*

بدأت السيدة جونز مترددة وقالت: *لكن روبرت.*

إن الجنرال مولع به كثيراً ويقول إنه لو كان لديه ولد مثله لصنع منه رجلاً ذا شأن، وكل ما يأخذه زوجي على عاتقه من مهام ينهض به بالتمام والكمال. لسوف يحظى روبرت بكل المزايا والفرص وسيكون تحت نظرك طول الوقت.

عزّ القول وسكت اللسان من فرط ما تأثرت السيدة جونز بكلام السيدة ماكلروي. لقد وقع هذا العرض من نفسها موقع الغوث الرباني. ولو أنها جابت الأرض طولاً وعرضاً فما كان لها أن تحظى بمثل تلك المعاملة الودودة اللطيفة. لكنها لم تنزل بعد مترددة لم تحسم أمرها. كانت حياتها في كوخ زوجها جوار الآفاق المغامر المستكشف سنين حرمان وفقر ما جعلها في حيرة من أمرها واقعة بين شقي رحى بين ما كانت فيه وبين ما هو معروض عليها من قبل زوجة الجنرال المضيفة الرقيقة، لدرجة أنها ترددت في قبول تلك الثقة الموضوعة فيها. كما أنها عليمه بما فيه الكفاية بأحوال الأطفال بحيث تدرك أن أبناء عائلة غنية لا بد أن ينظروا بتعال وكبر إلى من دونهم طبقة ومكانة. ترى هل سينظر إليها أولاد الجنرال بالاحترام الواجب حتى تتمكن من القيام بهذه المسؤولية التي أنيطت بها من قبل والدتهم؟ طافت برأسها تلك الخواطر متقاطرة سريعة وإنصافاً للطرفين أحست بأنها مطالبة بحسم تلك النقطة ووضع النقاط فوق الحروف. كانت السيدة جونز امرأة مستقيمة المقاصد قويمة السلوك ومن ثم فقد قررت أن تكون صريحة فيما يتعلق بهذا الأمر فقالت متسائلة:

لكن هل سيكون هذا الاتفاق مقبولاً عند أولادك سيدتي؟

كانت السيدة ماكلروي تتوقع هذا السؤال وكانت جاهزة للرد عليه فقرعت الجرس وظهرت المربية السوداء نانسي.

قالت لها: *أرسلني ويلي وأليس إلى هنا*، وما هي إلا لحظة حتى كان الصبي وأخته يدخلان مسرعين.

قالت الأم: *يا أولاد لقد كنت أحاول إقناع السيدة جونز بالبقاء معنا وتولي مسؤوليتكما فما رأيكما في ذلك؟*

قالت أليس وهي تمضي ناحية السيدة جونز وتحيط رقبتها بذراعيها وهي حركة تمتاز بها: *أوه،

سيكون ذلك جميلاً للغاية!*

قاطعها ويلي موافقاً: *إنه لأمر جيد من جانبها أنا واثق من ذلك كما أنني سأحظى بوجود روبرت ليلعب معي، إنه صانع ماهر لبنادق الهواء والفلين، هل أستطيع ذلك أمأه؟*

هكذا حُسمَ الأمر وبطريقة أحست معها السيدة جونز كما لو كانت هي التي أسدت بقبولها معروفاً لعائلة ماكلروي وليس العكس، وفي واقع الأمر كان الاتفاق عادلاً منصفاً للطرفين كما لاحظت السيدة ماكلروي بصدق وإخلاص.

قام السيد بيسون بزيارة أرملة السيد جونز ليوذعها ويسألها ما إن كان توم سيعود معه. كان المبشر جد سعيد بالاتفاق الذي أبرم بين الطرفين وقد عبر مجدداً عن تعاطفه الحميم مع الأرملة المكلومة الثكلى حاضاً إياها على قراءة الإنجيل والتعزي بآياته ورحل الاثنان بعد أن قبل توم أمه وشقيقه روبرت بحنان بالغ مودعاً إياهما.

قالت السيدة ماكلروي بمودة بالغة: *يجب أن تأتي من حين لآخر لترى أمك، ولعلك تعرف أننا سنصبح عائلة واحدة من الآن فصاعداً، ولن يفقدك روبرت ووالدتك فقط بل سيفقدك بقية الأولاد وسيسرون بمشاركتك إياهم تسليتهم ومذاكرتهم، *وهو الأمر الذي أوماً ولداها بالموافقة عليه. وما إن درجت عربة المبشر مبتعدة عن ساحة الحصن حتى قالت السيدة جونز وهي تنتهد:

ما هذا الذي حل بعائلتي خلال بضعة أيام! قتل الهنود زوجي وابنتي سارة وولدي الغالي بب وكذلك شارلي فيما أظن لاقى مصيرهم بالرغم من أنه ثمة غموض يكتنف ما جرى له.

قالت السيدة ماكلروي: *إذا فأنت تجهلين ما جرى له.*

لا وذلك الشك هو ما يعذبني. لعل الهنود أسروه ولعله في تلك اللحظة التي نتكلم فيها يلقي من هؤلاء البرابرة أفطع صنوف المعاملة أو لعل حيواناً مفترساً التهمه أو لعله الآن يتضور جوعاً ويموت عطشاً في البرية. هذا الشك الذي يكتنف مصيره فوق كل ما أملك من طاقة تحمل. قالت السيدة جونز ما قالته ثم نظرت بقلق خارج النافذة.

حل موعد تناول العشاء ونزل الجميع بمن فيهم السيدة جونز وروبرت إلى حجرة الأكل. وبينما هم يدخلون الحجرة لفت الجنرال انتباههم إلى ركن الحجرة وكان هندي يجلس ملتقاً بإزاره وما إن زال عنها وقع المفاجأة عند الوهلة الأولى حتى تعرفت فيه على ذي الشعر الطويل.

قال الجنرال: *سيدة جونز لعلك تقدرين على فهم ما يقوله ذو البشرة الحمراء فهو لا يتواصل معي بشكل كاف لكنه متلهف على رؤية ولدك توم.*

قالت السيدة جونز بحنو للهندي الهمجي: *أنا سعيدة بمقابلتك، هل لديك أي شيء تحب أن تبليني إياه؟*

لكن ذو الشعر الطويل بدا وكأن خطباً ما دهاه وجلس ساكناً وقد أطبق فمه.

سألته السيدة جونز: *ألن تتحدث معي يا ذا الشعر الطويل، أنت تعرف كم عاملتك دائماً بالحسنى،

أليس كذلك؟*

المرأة البيضاء طيبة مع الهندي. الجندي يقول الهندي كذاب، الجندي يقول ذو الشعر الطويل كلب. قولي له اذهب بعيداً.

قالت السيدة جونز للجنرال: *أخشى أن يكون بعض رجالك قد أساءوا معاملة ذي الشعر الطويل*.

قال الجنرال: *حسن سأؤكد من أنهم لن يقوموا بالمزيد من الإساءة له مستقبلاً* وأردف مسترضياً هذا الفتى الشجاع الأغبر السحنة: *لعل ذا الشعر الطويل يحب أن يتناول العشاء معنا*. لكن الهندي استتكف الدعوة وظل على عناده وقال:

ذو الشعر الطويل ليس متنسلاً ولا كلباً، ذو الشعر الطويل يصطاد الغزلان والراكون ويصيد الأسماك، الكثير والكثير!*

قاطعته السيدة جونز: *لكن ألم تحضر لي بعضاً من لحم الغزلان ذات يوم فهل رفضت قبوله يا ذا الشعر الطويل؟*.

أخذ ذو الشعر الطويل يكرر: *المرأة البيضاء طيبة، ذو الشعر الطويل لا ينسى أبداً. ذو الشعر الطويل مريض المرأة البيضاء عالجته. ذو الشعر الطويل قتل الغزال من أجل المرأة البيضاء*.

قالت السيدة جونز: *أجل كنت مريضاً واعتيت بك وهذا واجبي وأنت كنت لطيفاً معي ومع أبنائي ولن أنسى لك ذلك*.

بفضل لطف وحنو السيدة جونز مع ذي الشعر الطويل اقتنع الهندي أن يشاركهم تناول الطعام الموضوع أمامه. التهم ذو الشعر الطويل بغاية الشراهة نصيبه من الطعام ما أوحى بأنه كان يتضور جوعاً منذ فترة ليست بالقليلة وكان مظهره يدل على أنه واجه الكثير من المصاعب والمخاطر. كانت السيدة جونز واثقة من أن قدومه ينبئ بشيء يخصها شراً كان أم خيراً، وقد دل عليه تحفظه في الكلام وخشيت أن يكون شراً ورأت أنه يستحسن استدراجه في الكلام حتى يضع في متناولها ما لديه من أنباء أيًا كانت طبيعتها فيما يتعلق بالملابس التي أدت لموت زوجها وما يشير إلى مقتل سارة والصغير بب وما يتصل باختفاء شارلي الذي تعتقد هي أنه قد قتل هو الآخر. أصغى الهندي لكل ما قالته وهو صامت حتى بلغت الجزء الخاص بشارلي والصغير بب وعندها هتف بقوة:

شارلي لم يمتهن! بب لم يمتهن!

قالت السيدة جونز: *لكن بب مات لأنني رأيت الهندي المدعو الضفة الصفراء وهو يطلق عليه الرصاص*.

* لا، الهندي يقول الحقيقة*.

سألته متعجبة: *ما الذي يدعوك لقول ذلك؟*

لم يجب ذو الشعر الطويل على سؤالها لكنه استخرج من تحت إزاره حذاءً صغيراً وضعه على

حافة المائدة ثم وضع بجواره مطواة جيب مثلومة.

صاحت السيدة جونز وقد دبت فيها حماسة كبيرة وشعَّ بداخلها بصيص من رجاء وأمل: *كيف ذلك يا ذا الشعر الطويل، ذلك هو حذاء بب وتلك هي مطواة شارلي. من أين جئت بهما؟*

ذو الشعر الطويل ذهب يبحث عن شارلي، رحل كثيرًا، تلصص في مخيم الهنود كثيرًا، لم يجده. ذو الشعر الطويل يقول بأن شارلي لم يقتل، شارلي لم يؤسر. شارلي يختبئ قرب الكوخ. ذو الشعر الطويل بحث في كل شبر قريب من الكوخ ورأى يد شارلي مفرودة الأصابع مطبوعة على الأرض في الطين عند النبع، ساعتها قال ذو الشعر الطويل لنفسه لقد عطش شارلي وجاء إلى النبع للحصول على الماء وتتبع ذو الشعر الطويل أثره وعثر على السكين قرب الشجرة الكبيرة وعثر على الحذاء قرب الشجرة الكبيرة، كان بب مختبئًا في الشجرة الكبيرة فأزاح ذو الشعر الطويل الفروع والأغصان جانبًا ورأى فتحة في الشجرة. سمع ذو الشعر الطويل الهنود قادمين فزحف وتسلل داخل الشجرة بسرعة، لم يكن شارلي موجودًا ولا كان بب موجودًا لكنه وجد تلك الأشياء، حفنة من الجوز واللوز والبندق وبعض حبات البطاطس وكسرة خبز وبعض حلي صغيرة لا بُدَّ أنها سقطت من جيب شارلي فخبأها داخل إزاره، وبعد ذلك رأى ذو الشعر الطويل الهنود قادمين واحدًا ثم اثنين فثلاثة فعشرة فعشرين امتلأ المكان بهم وهم يزحفون في اتجاه الكوخ، ظن الهنود أنه لا أحد في الكوخ فاقتربوا كثيرًا من الكوخ وإذا برصاص بندقية ثم أخرى ثم ثالثة وغيرها كثير ينطلق من داخل الكوخ ففرع الهنود وفروا كما تفر الغزلان، انتظر ذو الشعر الطويل ليرى ما إن كان الهنود سيرجعون فلم يرجعوا، انطلق الرصاص في اتجاه ذي الشعر الطويل فخرج من الشجرة وتوارى خلف الشجرة بسرعة ورفع يده علامة السلام إلى من يطلقون النار، لا أحد منهم صدق ذا الشعر الطويل وحاولوا قتله، أخذ ذو الشعر الطويل طريقه وأتى إلى الحصن!

قال الجنرال ماكلروي: *حسن هذا غريب، من حكاية ذي الشعر الطويل يُسْتَنْجَ أن ثمة أشخاصًا في الكوخ ولا بُدَّ أن بعض المستوطنين نجوا من المذبحة وعادوا وتمكنوا من الكوخ ويجب علينا الآن أن نهب لنجدتهم.*

سألت السيدة جونز الهندي قائلة: *لكن أين شارلي وبب إذا؟*

ذو الشعر الطويل لا يعرف ويظن أنهم في الكوخ.

استعلم الجنرال من الهندي قائلاً: *كم عدد الأشخاص الذين تظن من خلال إطلاق النار أنهم كانوا موجودين بالكوخ؟*

ذو الشعر الطويل لا يعرف ليس هناك دليل.

سألت السيدة ماكلروي زوجها: *ما الذي يعنيه ذو الشعر الطويل بقوله هذا؟*

يعني أنه لم يرَ أحدًا منهم يظهر حول الكوخ ما يزيد الأمور غموضًا، ولو كان أي من المستوطنين قد عاد لقص ذو الشعر أثرهم، أليس الأمر كذلك يا ذا الشعر الطويل؟ أوما ذو الشعر الطويل برأسه موافقًا *ومع ذلك فإنه يقول بأن ثمة بنادق كثيرة كانت تطلق النيران لدرجة أن قوة

كبيرة من الهنود المهاجمين أصابها الفزع ولاذت بالفرار. كيف كانت النيران تأتي يا ذا الشعر الطويل، أكانت تنبئ بأن من يطلقونها ذوو باع كبير في استخدام البنادق؟*

كان هناك أعداد تطلق، كانوا بارعين جداً، أصابوا بعض الهنود وصوبوا في اتجاهي تصويماً جيداً حتى ضيقوا عليّ الخناق وكدت أصاب، النيران من هنا والنيران من هناك، الرصاص في كل مكان!

سألته السيدة جونز، بحكم أنها أم لا تكف عن القلق على مصير أولادها قائلة: *ما سبب اعتقادك بأن الأولاد داخل الكوخ؟*

أجاب الفتى الهندي الذكي: *لأن الآثار تتجه ناحية الكوخ، لم يتمكن ذو الشعر الطويل من قص الأثر ولو فعل ذلك لأصابته نيرانهم.*

قال الجنرال وهو يخبط الطاولة براحة يده: *أعتقد أن ذا الشعر الطويل محق، سيدتي لقد ولد أبناءكم ليصبحوا أبطالاً. وإن لم أخطئ فإن شارلي وبب هم من دافعوا عن ذلك الكوخ ضد الهنود الهمج*. ثم أردف متشككاً *ومع ذلك فهذا أمر مستحيل إذ كيف يتسنى لولدين صغيرين أن يقوما بهذا العمل البطولي الفذ. ولعلكم تذكرون أيتها السيدات الفضليات أن ذا الشعر الطويل قال بأن ليس فقط كانت النيران تطلق من بنادق كثيرة لكنها كانت تطلق في وقت واحد، وإذا سلمنا جدلاً بأن في وسع الولدين أن يطلقوا النار من عشرات البنادق في زمن واحد فتلك خارقة من الخوارق الطبيعية غير المفهومة. الحقيقة انه كلما تمعنا في الأمر أكثر كلما تحيرت أكثر، ما قولك في ذلك يا ذا الشعر الطويل؟*

ذو الشعر الطويل لا يفهم، ليس عنده خبر، العقل مظلم تماماً كان الهندي يشعر بالخزي والعار لأن حصافته وحكمته خذلتاه هذه المرة *لا يوجد مستوطنون داخل الكوخ. شارلي وبب داخل الكوخ، إطلاق نار كثيرة، أصابت اثنين، ثلاثة من الهنود وأخافت الكثيرين منهم، أنا لا أعرف.*

قالت السيدة مفسرة ما بين السطور في كلام ذي الشعر الطويل: *هو يقصد أنه متيقن من أنه لا يوجد مستوطنون داخل الكوخ لأنه لم يعد أحد منهم إلى الكوخ ولكنه متيقن من وجود شارلي وبب داخله، وفيما يتعلق بإطلاق النار الكثيف ذاك فإنه مثلنا يضرب أحساساً في أسداس دون أن يصل لنتيجة.*

قال الجنرال وهو ينهض واقفاً: *حسن ثمة طريقة وحيدة لحل ذلك اللغز هو أن أرسل كتيبة على الفور لكشف غموض الموقف في الكوخ.*

نهض ذو الشعر الطويل واقفاً وقال:

الرئيس الأبيض يرسل الجنود إلى الكوخ بسرعة.

رد الجنرال عيه قائلاً: *أجل وأحب أن تكون دليلهم إلى هناك.*

أجاب الهندي بحزم وجزم *لا، ذو الشعر الطويل يذهب وحده، ذو الشعر الطويل دائماً يذهب وحده* ثم أوسع الفتى الهندي الخطو وتوارى بسرعة عن الأنظار.

الفصل الحادي والعشرون

اجذب الخيط يا بب

كانت نفس شارلي تجيش إثارة وتوترًا نظرًا لما رآه رأي العين من وقائع المذبحة ولما أبداه من براعة وحذق في الدفاع عن الكوخ، فتبدل حاله من البلادة والخمول والاستقامة إلى المبادرة والإقدام والابتكار. أحس شارلي بضرورة مراقبة الموقف خلال ساعات الليل الطوال وكان يختلس من أن لآخر غفوة قصيرة حينما كان بب يؤدي ما عليه خلال النهار.

ذات يوم وبعد أن تناول بب إفطاره قال شارلي:

بب أحس بأنني سأقع مريضًا، فمي مر مرارة بالغة ورأسي تؤلمني فلا أكاد أرى. إن لم أتحسن وجاء الهنود فلا تنس أن تدخل من الفتحة الموجودة في القبو وترجع الحجر إلى مكانه وراؤك كما سبق ودربتك وابق ساكنًا على حالك كما فعلنا داخل الشجرة.

وهل سيكون عليّ أن آخذ إبريق القهوة وأذهب إلى النبع كما فعلت أنت؟.

قال شارلي: *لا عندها سيرك الهنود ويقتلونك كما أن لدينا بئرًا في الباحة. لكنني سأخبرك بما سأفعله، لسوف أحضر دلوًا مليئًا بالماء البارد الآن وأملأ إبريق القهوة وأضعه في الفتحة ومعه قدر كبير من الطعام لتأكل منه حتى لا تضطر إلى الخروج لجلب أي شيء، وإذا حدث ومث وجاء أبي وأمي وأخرجوك من هنا فقل لهما بأنني وضعت الماء والطعام هناك، لا تنس ذلك؟*.

أجل وسأدعهما يختبئان في شجرتنا أليس كذلك يا شارلي؟.

أجاب شارلي: *أجل عليك أن تخبرهما بكل ما يمكنك تذكره، قل لهما أنني حاولت أن أكون ولدًا طيبًا، ثم قال برقة ونعومة: *قلّ لأمي أننا كنا نردد كل ليلة أهزوجة* ها أنذا في سبيلي للرقاد* ولا تنس بتاتًا أن تقول *هانذا في سبيلي للرقاد* إياك أن تنسى؟*.

قال بب: *لا لن أنس، لكن إن كنت ولدًا طيبًا مثلك ومثل أمي وقلت *ها أنا ذا في سبيلي للرقاد* كل ليلة وعندما أموت فهل سيبعث الرب ملاكًا كبيرًا ليأخذني إلى السماء، هل سيفعل الرب ذلك يا شارلي؟*.

قال شارلي: *أجل سيفعل والآن أنا سأذهب لأحضر الماء* مضى شارلي بخطوات مرتبكة نحو البئر وعاد بدلو ممتلئ بالماء وملاً إبريق القهوة ونزل بوهن إلى القبو ووضع الإبريق في الفتحة التي حفرها ثم عاد وحمل كافة المون المتوفرة عندهما ووضعها هناك بالمثل ثم صعد لأعلى مجددًا واتجه ناحية السرير لكنه فجأة توقف ووضع يده فوق عينيه وقال:

أوه أين السرير؟ أنا عاجز عن الرؤية، أنا دائخ تمامًا، ثم سقط بجوار السرير فوق الأرضية الخشنة. نظر بب إليه مستغربًا لا يكاد يفقه ما يجري ثم قال:

شارلي هل أذاك النزول إلى القبو؟ لم يتلق بب جوابًا. بعدها بلحظات فتح شارلي عينيه وقال:

بب أنا في غاية المرض لو حدث وجاء الهنود، عليك أن تترقبهم وألا تغفل عن ذلك وإلا جاؤوا وأنت غافل عنهم*.

ثم استغرق في صمت تام.

قال بب متعجباً من أن شقيقه لم يكمل جملته: *ماذا قلت يا شارلي؟*.

بدا صوت الصغير الحبيب يتناهى وهو يجمع شتات فكر شارل ويعود إلى حيث توقف في الكلام فيقول:

لو حدث وجاء الهنود مجدداً تذكر يا بب أن تجذب الخيوط ربما يخيفهم ذلك ويعيدهم من حيث أتوا كما حدث في المرة السابقة، وإن لم يهربوا فإذهب إلى الفتحة بالقبو كما سبق وأخبرتك.

أخاف أن أذهب إلى القبو من دونك.

أجاب شارلي: *لكن عليك أن تذهب وإلا قتلك الهنود. ولن تشعر بالخوف إن دعوت الرب ليعتني بك*.

سأل بب: *هل الرب أقوى من الظلام؟*.

قال شارلي: *أجل إنه خالق الظلام وخالقك وخالق كل شيء ولكنني أشعر ببعض التحسن أظن أنني قادر على بلوغ السرير وسيكون ذلك أفضل بالنسبة لي*.

كان شارلي فريسة حمى مخية كما يدل على ذلك احمرار عينيه وتوهج وجهه وخفقان صدغيه. كان الإرهاق قد نال منه ولم يعد في مقدوره التحمل أكثر من ذلك وسرعان ما غدا ذاهلاً عما يدور حوله ولا يكف عن الأنين والارتجاف. كان شارلي مقتصدًا غاية الاقتصاد في استهلاك ما هو متوفر من مؤن ضئيلة جراء جهله كم من الزمن على الشقيقين أن يبقيا حبيسي الكوخ، لذا فكان يتناول أقل القليل من الطعام مؤثراً أخاه على نفسه ليأكل حتى الشبع لا من باب المحبة الأخوية فقط ولكن ليضمن هدوءه وسكوته أطول وقت ممكن. لكن نوبة الحراسة الليلية هي ما أودت به إلى حالة الضعف والحمى.

لم يكن بب مدركاً بالضبط ما الذي ألم بشارلي، ولما اكتشف بعد مضي بعض الوقت أن الأخير لم يعد يكلمه قام بوظيفة الحراسة وأحس بأنه يقوم بعمل جليل. مر الوقت بطيئاً ثقيلًا على صغيرنا بب، وكان من حين لآخر يمضي نحو فتحة المراقبة، فلما أحس بالأخطار يتهدهده بدأ في تسلية نفسه والترويح عنها. لفتت الحقيبة الجلدية التي تحتوي الذخيرة انتباهه، فعمد إلى جاروف النار وشرع في إنزالها من فوق المشجب فسقطت بثقلها فوق الأرض. عندها نظر بب إلى شارلي متوقعاً أن يبدي رد فعل أو أن يقول شيئاً، ولما لم يحدث شيء من ذلك راح يجر الحقيبة نحو المدفأة وبدأ في ذر البارود على النار. كان هذا ممتعاً تماماً بالنسبة لبب، وكانت نفخة خفيفة كقيلة بانبعاث رماد أبيض، تتبعها نفخات ينبعث على إثرها الرماد الأبيض فيما القبض المثلثة للولد الشقي تحرك الجاروف داخل المجرمة. ثم شرع بعدها في نثر البارود من داخل المجرمة فوق الأرض وأخذ يصفق بيديه فرحاً عندما رأى النيران تشب في خطوط البارود التي وضعها فوق الأرض. ما أغفل

صبينا عن مهالك ما يقوم به من حيل وألعاب نارية والتي قد تنتهي به إلى إحداث انفجار كبير مدمر فيما لو خطر له أن البارود الصالح للاحتراق صالح أيضًا للأكل. وكان قد حدث خلال تنقيب شارلي في خزانة الأطباق أن وقع بيده وعاء صغير مخفي يحتوي عسل قصب السكر، ولما كان هذا الصنف مفضلًا عند بب فقد احتفظ به شارلي بغرض تناول الولد الصغير له عند اللزوم وكان من أن لآخر يقدم بعضًا منه لبب خلال تناول وجباته. استخرج بب الوعاء من الخزانة ومعه صحن حيث ملأ الأخير بالعسل ونثر البارود فوقه وشرع في تناول هذا الخليط الشهي. كان بب يعرف أنه يقوم بعمل مؤذٍ لن يرضى عنه شارلي فتوقف عن تذوق اللحسة الأولى آخذًا الصحن والملعقة في يده وسار وئيذًا مجهدًا ناحية السرير وقال:

لقد صنع بب لشارلي بعض الحلوى. بب ولد صالح.

إلا أن شارلي لم يستجب على أي نحو لعرض السلام هذا ومن ثم وضع بب الصحن فوق الطاولة واتخذ مجلسه حيث مكانه المعتاد وقت الأكل وبدأ في تناول الوجبة. لم يكن الخليط مستساغًا بالقدر الذي كان يتوقعه بب وبعد قليل من الملاحق كف بب عن تناول الخليط مبدئيًا تقززه. والآن خطر بباله أن الوقت قد حان لتولي نوبة الحراسة. وما أن صعد ليلقي النظرة الأولى حتى اتسعت حدقتا عينيه الزرقاوان لما رأى هنديًا يتسلل زاحفًا.

قال بب مفزوعًا وهو يهبط عن المرقب: *شارلي الهندي أتى ليقتل بب!*

ولما لم يجبه شارلي تسلق السرير منهكا وهو آخذ في الصراخ ويقول:

شارلي رُدَّ على بب، لقد أتى الهندي وظنًا منه أن شارلي لم يجب عليه لأنه أحرق البارود قال بب وشفاه ترتعدان:

بب آسف لأنه كان ولدًا شقيًا، ولكنه لن يكون كذلك مستقبلًا. بب يحب شارلي ثم وضع وجهه الصغير بحب على وجه شقيقه. لكنه تراجع للخلف ما إن لمست خدود شارلي المحمومة بشرفته الناعمة. وهنا استرجع بب كيف علت درجة حرارة جسمه عندما استبد به الظمأ وهما داخل الشجرة وكما كان فضل شربة الماء التي جلبها شارلي من النبع عظيمًا في إنقاذ حياته من الهلاك، فهتف قائلاً:

لقد جف حلق شارلي من العطش، بب سيعطيه بعض الشراب! مهرولًا ناحية الطاولة ملتقطًا وعاء كبيرًا ملاء بالماء من الدلو الذي تركه شارلي فوق الأرض ثم تسلق بب السرير مجددًا محاولاً وضع الوعاء على شفتي شارلي ثم قلب ماء الوعاء كله على وجه شارلي ورقبته. كان لهذا الإجراء المفاجئ بدلق الماء البارد على هذا النحو مفعول السحر على جسد الصبي المحموم وعندما تعرف على بب استفسر مفزوعًا:

أين – أين أنا؟ ماذا حدث؟

صاح بب بجدية بالغة: *ثمّة هندي قادم!*

حاول شارلي النهوض لكنه سقط منهكًا قائلاً فيما كان الوهن يدب في جسمه فيخلله كله:

بب أنا لا أقدر على النهوض، أنا جد مريض، اجذب الخيط.
فعل بب كما علمه ودربه شارلي ومجددًا كسر الكوخ الحصن سكون البراري والغابة بالطلقات العشوائية التي لا يتولى إطلاقها جنود أو رجال أيًا كانوا.
قال شارلي وقد خفت صوته حتى صار همسًا: *الآن اذهب واختبئ في القبو ولا تصدر أي صوت أو حركة*.

قال بب: *أنا خائف من دونك*.

قال شارلي: *أنا جد مريض ولا أقدر على الذهاب معك*.
ارتجف بب وهو يرى صفرة الموت تكسو وجه شارلي ونظرة عينيه الجامدة *أنا خائف جدًا*!
قال شارلي: *توجه للرب بالصلاة والدعاء ثم اذهب ولا تصدر حركة أو صوتًا*.

ركع بب الصغير بجوار السرير وأطبق راحتيه وراح يكرر:

*الآن أنا في طريقي للرقاد

أدعوك يا إلهي أن تحفظ روحي

وإن كتب علي الموت قبل أن أستيقظ

أدعوك يا إلهي أن تأخذ روحي*.

ثم أضاف: *أرجوك يا رب أن تحفظ شارلي وألا تترك الظلام يؤدي بب* وقال وهو ينهض من ركوعه: *بب ليس خائفًا الآن* ثم نزل إلى القبو وزحف حتى بلغ مخبأه في الجدار وأعاد الحجر مكانه بالضبط. كان الهندي الذي رآه بب هو ذا الشعر الطويل. وبينما كان ذو الشعر الطويل يستطلع المكان بحذر بالغ كانت الكتيبة التي يقودها كابتن مانلي قد وصلت إلى الكوخ. وجد الجنود الباب الخارجي موصدًا بإحكام، وبالرغم من أنهم أصدروا ضجيجًا مدويًا وهم يحاولون فتح الباب عنوة فلم يجدوا أدنى استجابة من داخل الكوخ. بعضهم نفذ صبره فكسروا الباب بينما اعتلى البعض الآخر الجدران. كان الكابتن مانلي أول الداخلين واندفع بعده الجنود بحماسة متلهفين على نجدة المستوطنين في حال بقاء بعضهم بالكوخ. وفور دخوله وقعت عين الكابتن مانلي على شخص ممدد فوق سرير.

قال الكابتن مانلي بوقار: *اصمتوا يا أولاد ثمة شخص صغير ميت*.

طفرت الدموع من عيون الجنود وهم يتحلقون حول ضابطهم الأمر وراحوا يحملقون في صمت في ملامح الصبي. كان ثمة نظرة رانقة تكسو وجه الفتى الشجاع الراقد وكان شعره المجدد البني رطبًا مشبعًا بالماء بعكس جبهته البيضاء وكانت الدروس التي تلقنها عن الثقة بالنفس والتحكم في الذات قد شعت على قسمات وجهه أمارات النضج والنبل. انحنى كابتن مانلي وقبل الجبهة الباردة ونزع الجنود عن رؤوسهم قبعاتهم العسكرية احترامًا وتوقيرًا.

في نفس الوقت تم تفتيش الكوخ بعناية ودقة بالغين. قال الرقيب أيتون وهو يلمس قبعته: *ليس ثمة أحد بالكوخ يبدو أن الفتى الصغير كان وحده بالمكان*.

مستحيل! فيم كانت إذاً تلك النيران التي انطلقت من داخل الكوخ بينما كنا في الطريق؟ وها أنت ترى بعينيك أن ثمة ما لا يقل عن ستة بنادق كلها موجهة للخارج بدقة. أين إذا الأصابع التي جذبت الزناد؟ أيها الرقيب ثمة لغز هنا يتطلب تفسيراً وحلاً. هل فتشت القبو؟

كان الجواب: *أجل فتشناه*.

وقف الضباط ينظرون إلى بعضهم البعض في حيرة بالغة واستمروا في الحديث فيما بينهم بصوت خفيض وعندما دخل ذو الشعر الطويل وبدون أن يلاحظ وجود أحد وقف عاقداً ذراعيه وهو يحدق في شارلي.

قال الكابتن وهو يلتفت فجأة إلى ذي الشعر الطويل: *كم بقيت هنا قبل أن نصل؟*

وقت قصير، ليس بالطويل.

هل كنت على الأرض عندما سمعنا صوت إطلاق الرصاص؟

داخل الشجرة هنا، هناك بالأعلى.

هل غادر الكوخ أحد بعد إطلاق النار؟

أجاب الهندي *لا أحد غادر الكوخ*.

في اعتقادك من الذي أطلق النار يا ذا الشعر الطويل؟

شارلي أطلق النيران.

لكن شارلي ميت وقد أطلقت النيران منذ لحظات قليلة؟

لا، الهندي لا يفهم، شارلي لم يطلق النيران. بب هو من أطلقها.

رد الكابتن متبرماً: *مستحيل، كيف يمكن لطفل مثله القيام بذلك؟*

سأل الفتى الهندي وهو يشير إلى الخيط المجدول من القنب المتدلي من كل زناد بندقية والذي كان لونه يحاكي لون الحائط لدرجة بعيدة فلم تلاحظه سوى عين الهندي الحادة الثاقبة *فيم تستخدم تلك الخيوط يا كابتن؟* قام الكابتن بفحص هذا الترتيب البارع وسرعان ما استقر الرأي على أن ذا الشعر الطويل لم يجانب الصواب في ما قال.

سأل الكابتن: *لكن أين الطفل؟* وقام الرجال بتفتيش الكوخ مجدداً. تم فحص الخزانة حتى أعلى رف فيها وقام الرجال بإفراغ العلب المتبقية من محتوياتها ناهيك عن الفحص المدقق للسريير الذي يرقد فوقه شارلي، وبلغ الأمر حد وضع احتمال بعيد كاختفاء الطفل خلف جدران القبو موضع الاختبار فقام الجنود بخبط الحوائط بكعوب بنادقهم.

سأل الكابتن ذا الشعر الطويل، فقد علمته السوابق أن يركن إلى ذكاء وفراسة الفتى الهندي: *أيمكن أن يكون بب قد أمكنه الهرب من المنزل؟*.

هز ذو الشعر الطويل رأسه قائلاً:

لا أثر له، بب لم يخرج من الكوخ.

قال الرقيب الأيرلندي أوكونور وهو يلمس حافة قبعته العسكرية احتراماً: *ربما بعد إذا سعادتك وهذا اعتقادي قسماً بروحي أن روح الفتى الشجاع هي من قامت بإطلاق النيران. فأمثاله سيدي لن يتخلوا عن الدفاع عن الكوخ، ولو كان ذلك لمجرد احترام الجثث غير المدفونة للنساء والأطفال ممن قتلوا على يد الهمج الوثنيين، يا لسوء مصيرهم!*

قال الكابتن وهو يبتسم إزاء ما قاله الأيرلندي الواسع الخيال من خزعبلات *يا ذا الشعر الطويل ما رأيك في أن أدعك تحل هذا اللغز بينما يتفرغ الرجال لتناول جرياتهم فوق العشب، أعتقد أنه لو كان ثمة من يستطيع حل اللغز فهو أنت*.

اصطف الجند وكوموا بنادقهم وترك ذو الشعر الطويل وحده مع شارلي. وقف الهندي للحظة ينظر إلى الجسد المسجي للصبى ونمت ملامح وجهه الجامدة عن مشاعره التي يكنها لشارلي. ثم قام بالبحث في سائر أرجاء الحجرة بعناية فائقة ثم خرج بتؤدة خارج الكوخ ودار حوله وهو يتفحص الأرض بدقة خلال سيره. وسرعان ما رجع واتجه مباشرة نحو القبو وهبط الدرج بحذائه الأملس الجلد الذي لا كعب له دون أن يصدر عنه صوت. بلغ ذو الشعر الطويل قاع القبو الغارق في عتمة لا يكاد يبين منها شيء. تناول بعضاً من القش المنثور فوق أرضية قاع القبو ثم كشط الرمل الرطب بعيداً حتى وصل لطبقة أخرى من القش. وبأناة بالغة أخذ ذو الشعر الطويل يزيح طبقة القش العليا عن مساحة كبيرة ملتفتاً إلى الجهة التي يفترض أن يكون الرمل قد نثر منها، وخلال لحظة كان واقفاً حيث كان كوم الرمل الذي أزاحه وكدسه شارلي وبب جانباً. وبالاتحاء أكثر رأى الموضع الذي شقت منه الأرض بواسطة الحجر حيث كان يدفع خلالها ويسحب ثم وضع أذنه فوق الأرض وأصاخ السمع ومن فوره نهض وانسل خارجاً من القبو وانتصب معقود الذراعين أمام الكابتن مانلي.

سأله الكابتن: *حسن، أي الحظين نصيبك؟*.

لقد وجد ذو الشعر الطويل طفلاً.

عند سماع ذلك حدثت ضجة بين الجميع ونهض بعضهم متلهفين لصحبة الكابتن والهندي لكن ذو الشعر الطويل أبى ذلك قائلاً في غضب:

جنود كثيرون، سيخيفون الطفل.

قال الكابتن: *هذا صحيح، أنت وأنا سنذهب وحدنا*.

أرشده الهندي في الحال إلى الموضع الذي كان يختبئ فيه بب.

قال الهندي مشيراً إلى الحجر: *الطفل هنا انزع الحجر*.

استخرج الكابتن الحجر من مكانه وركع على يديه وركبتيه ونظر في الداخل عبر الفتحة ورأى عيني بب المتألفتين تتظران في عينيه ومد يده فأخذ بذراع بب الممتلئة وقال برقة ولطف فيما كان بب قد بدأ في البكاء:

لا تخف يا بني الصغير، كلنا أصدقاؤك وجئنا لنعيدك إلى أمك.

سأل بب وهو ينظر بتفحص لذي الشعر الطويل: *ألن يقتلني الهنود؟*.

قال الضابط *لا وهذا هو ذو الشعر الطويل قدم خصيصاً ليحميك من قتل الهنود*.

عندما ظهر الكابتن مانلي وهو يحمل بب بين ذراعيه امتلأ الهواء بصيحات فرح الجنود وفجأة غدا بب بطلاً يحمله الجميع ويداعبه، فرحة غامرة ما بعدها فرحة توجت بنبأ سار مفاده أن العزيز الشجاع المغامر شارلي قد دبت فيه الحياة مجدداً. لم يكن شارلي ميتاً. أيقظه من سباته صياح الجنود إثر ظهور بب. فتح شارلي عينيه وغمغم بصوت واضح بين الألفاظ وقد ظن أن الهنود يهاجمون الكوخ *اجذب الخيط يا بب!*

الفصل الثاني والعشرون

توم والمرابي

دنا السيد كاولز بكرسيه من المدفأة، وكان هذا السيد مزارعاً وصاحب متجر بقالة ومديرًا للبريد ومرابياً. كانت المدفأة الكبيرة العتيقة الطراز مفتوحة وكان صاحبنا يستمتع بما تبعثه من حرارة في يوم قارس البرودة كهذا اليوم متلذذاً برؤية اللهب يتقاذف بسماح طقطقة الخشب المحترق.

كانت المائدة عامرة وقد جهزت لأجل العشاء. كان ثمة طبق كبير يحتوي لحم دجاج بري بارد وطبق زجاجي يحوي خوفاً برياً مطبوخاً وصحناً به بعض البسكويت وفوق نار الموقد ثمة سلطانية بيضاء تحوي شرائح من الخبز الساخن المقدد.

كان سيد المنزل المطاع قد أمر السيدة كاولز بالألا تحضر في تلك الساعة، ومن ثم فقد اغتامت الفرصة بسرور بالغ لتحتسي قدحاً من الشاي صحبة صديقتها السيدة باركر، وكى تحيط علماً بما جرى من تفاصيل الحادثة التي وقعت ليليل واکر وماريا هوبس في الليلة الفائتة حيث كانا عائدين من حفل راقص بأحد الأكواخ على مبعده ستة أميال فكدرهما سقوط العربية في منطقة *سلو كريك*، كانت السيدة كاولز تعشق النميمة التي تزخر بكل ما هو مثير شائق موافق لهواها والتي تصادفها دوماً عند السيدة باركر.

كان الزوجان كاولز محبين للمال ولجمع المال من قمة رأسيهما إلى أخمص أقدامهما وكان السيد تشارلز كاولز من أشد الناس حرصاً على الأمرين في أن معاً.

كانت أمسية عاصفة من أمسيات شهر مارس وكانت الرياح تهب متدافعة تترى على مدى البراري المترامية، وكأنها قطعان خيل برية جامحة لا تلوي على شيء، فتهب على المنزل المحصن للمرابي، فترفع الثلج في الهواء بقوة وعنف فينبعث منها أزيز وصرير حادين. زاد السيد كاولز من خشب الوقود في المدفأة وأعاد تهيئة جلسته بأن وضع قدميه فوق أحد الكراسي واستغرق في تأمل أمر ما يشغل باله.

كان السيد كاولز أغنى رجال المستوطنة برغم حداثة وجوده بها وصار صاحب القبضة الحاكمة العليا على كل من فيها. كانت زيارته الأولى للبلدة الصاعدة الواعدة مثاراً لضجة كبيرة بين أهل البلدة، إذ لو كانت البساتين والبراري المطروحة للبيع في خطة الحكومة محل أقاويل وشائعات، فإن حقيقة كونه صاحب موارد مالية كبيرة قد انتشرت انتشار النار في الهشيم وصارت حديث الناس وخبر الساعة الدوار. تتبأ كثيرون بأن مثله لا يتنازل ويقبل العيش في بلدة صغيرة كهذه وهو استنتاج رجحته غطرسة مظهره وعنجهية مشيته وجلوسه وسلوكه عامة. ولما كان ما كان من أمر ابتياعه أفضل متجري البلدة وشرع النجارون في إقامة مبنى ملحق كبير بمحل البقالة وجاءت العربات من ناحية الميسيسيبي محملة بالبراميل وصناديق البضائع، كان ذلك كله موضع ترحاب جميع أهل البلدة ومثار فرحهم الغامر، وقال المستوطنون البلدة سوف تتطلق الآن فقد بدأ أصحاب رؤوس الأموال في المجيء وسترتفع قيمة الأراضي هنا.

لكن السيد كاولز لم يدق وتدًا في أرض البلدة من أجل سواد عيون الناس ولا في سبيل مصلحتهم وسرعان ما اكتشفوا هذه الحقيقة. لم يستثمر السيد كاولز سننيمًا واحدًا في تحسين أحوال البلدة، لكنه احتفظ برصيده المالي لم ينقص منه شيء، وكان يبيع بأعلى الأسعار في الغرب ويمنح قروضًا لمن يريد لكنه دائمًا ما كان يضع يده على تأمين كبير وكان يقرض النقود على ذات المنوال بفائدة خمسة بالمئة شهريًا.

واجه المستوطنون العثرات المالية المألوفة في الغرب الأمريكي، لكن حدث من بعد أن تدهورت الأعمال والتجارة والصناعة في الشرق ما نجم عنه تدني قيمة الأرض وتناقص أعداد المهاجرين الذين كانوا ينفقون القليل الذي يملكونه عند وصولهم، وكانوا مضطرين لأن يعملوا بأقصى طاقة لديهم. وإبان هذه الشدة الكبيرة اعتاد الناس أن يعتمدوا كليًا على الابتياح من متجر البقالة وأن يقترضوا المال من صاحبه. ولم يمر وقت طويل حتى كان الأخير بكل تحجر قلب يضع يده على كل المزارع بالمنطقة كمرهونات. لم يكن السيد كاولز ليرحم أيًا كان عندما يحل يوم الدفع وإن لم تكن النقود حاضرة كان يضع يده على المرهون لا تأخذه بأصحابه رحمة أو شفقة ولا يلين قلبه لتوسلاتهم واسترحاماتهم. لكن وإنصافًا للرجل لم يكن لينسى في كل مرة يأتيه أحد طلبًا لقرض أن يسمعه تحذيرًا مخيفًا لا لبس في معناه. كان السيد كاولز رجلًا متوسط الجرم عريض الصدر ذا عيين سوداوين قوي العضلات سريع الغضب لا يؤمن بدين ولا يقدر أية شعائر وذا صوت عميق يمتلك ناصية الكلام إذا تكلم، وإذا غضب كانت عيناه تبرقان ويحرك جسده بغاية القوة. لم يكن يوقر أحدًا أو يحترم قدرًا مهما يكن أمره أو وضعيته الاجتماعية فالناس في نظره سواء. عندما كان أحد يطلب مالًا كان يقول:

بالتأكيد يا سيدي يمكنك الحصول عليه لكن انتبه جيدًا إن لم تدفع في الوقت المتفق عليه فلن أنتظر لحظة واحدة. على كل من يتعامل معي أن يكون أمينًا. أوه نعم كنت تتوقع أن تدفع لكناك لم تدفع. عندها لا تأتيني نائحًا بكاء فلن يفيد هذا في شيء البتة. وسوف أضع يدي فوق أرضك ولك أن تعلم أنني لن اتركها ثانية. فلا تقل بعدها أنني لم أحذرك سلفًا بما سيؤول إليه الأمر في النهاية.

كان مرابي القرية الناشئة موضع خوف الناس وكرهيتهم وتملقهم في آن معا. كانت علاقته بالجميع تقوم على الغطرسة والازدراء. كان السيد كاولز مثقفًا ذا إدراك واسع وكان محيطًا إحاطة كبيرة بكثير من الأمور وكان يحلو له أن يرفع قدميه السمينتين فوق نضد المتجر، وأن يلقي على مسامح من يفدون إلى متجره الدروس البذيئة الأسلوب والخطب العصماء الألمعية، التي يستطيع أعلى الناس ثقافة أن يلتقط من ثناياها بعض الدرر الفكرية النادرة والمدهشة بالرغم من كل البذاءة والسباب التي تصاحبها والتي لا يستسيغها أسوأ الناس خلقًا وأشرهم سلوكًا.

لكن أئمة* تبع ماء زلال في حجارة قلب هذا الرجل القاسية الصماء* فلننتظر ونرى.

كانت قسما ت وجه هذا المرابي قاسية مخيفة، لكن في هذا المساء بدت تلك القسما ت مسرًا لانبعاثات متضاربة تتنازع نفسه. كان ثمة أمر غير عادي يشغل خاطره ويملك عليه تفكيره، جلس يفكر ويفكر يتقلب ذات اليمين والشمال في جلسته وأخيرًا نهض وعبر الرواق المظلم ودخل المتجر وقال:

آه توم هل هذا أنت؟

أجاب الفتى باستحياء قائلاً: *أجل أخبرني السيد بيسون بأنك تود رؤيتي*.

قال السيد كاولز وهو يعود إلى حجرة الطعام بالمنزل يتبعه توم: *أجل تعال ورائي*.

سأل البقال الفتى: *أتعلم لماذا أرسلت في طلبك؟*

لا يا سيدي.

حسن لدي موضوع خاص أحب أن أحدثك بشأنه لكنني أتصور جوعاً وإن تفضلت باحتساء قرح شاي معي سأجلو لك الأمر.

كان توم ينفر من التعامل مع هذا الرجل وكم استغرب كثيراً كونه ضيفه هذه المرة. إلا أن جلستهما كانت ودية وحميمة وكان المضيف شديد العناية به وهما يتشاركان مختلف أصناف الطعام اللذيذ.

قال البقال وهما يأخذان جلستهما بعيداً عن الطاولة: *توم لقد وصلتني أخبار طيبة عنك* بدا صوته رقيقاً مرتعشاً بعض الشيء *وأنا جد سعيد بتلك الأخبار. ولقد تابعتك عن كثب لمدة طويلة ولأنني كاولز العجوز السيئ كما يراني الناس فأنا أحب أن أرى الآخرين يفعلون الخير. لقد لازمت عائلتك بعد أن كنت نويت الرحيل وهذا أمر صائب. ولقد تابعت دراستك على أفضل وجه وهذا يحسب لك وأنت فتى أمين ناضج العقل تروم أن تصبح يوماً، كما أحسب، مبشراً مثل معلمك*.

تعجب توم من كلام البقال وتضاعف عجبه إذ كيف لهذا التاجر الجلف البذيء اللسان الجشع أن يبوح له بمكنونات نفسه؟

لقد أردت مبارحة المنزل للدراسة لكنك كابن بار ثابت على مساعدة العائلة. لقد كان هذا إنكاراً عظيماً للذات أليس كذلك؟

أجاب توم متلعثماً *أجل هو كذلك*.

بالطبع هو كذلك لكن كيف تأتي لك أن تتخلى عن طموحك بكل هذه الجراءة؟

نصحتني أُمي بالصلاة والدعاء حتى أجد الحل وقد فعلت.

سأله البقال: *وهل أجدت الصلاة والدعاء نفعاً؟*

أوه أجل، حقيقة أنا لا أستطيع العيش دون الصلاة، إنها تأخذ بيدي في أغلب الأحوال.

اعترض البقال قائلاً: *لكن أخطر ببالك وتصديق بأن الرب القدير يأبه لأمورنا التافهة الصغيرة، ويستجيب لطلباتنا المتواضعة التي نرفعها بالدعاء له؟*

أجاب توم وقد توهج خداه ودمعت عيناه: *أجل يا سيدي وما أكثر ما دعوته وفي كل مرة كان يستجيب لي*.

لعلك توهمت ذلك.

صاح توم: *أوه لو إنك كنت عضوًا في عائلة المبشر كما كان حالي وسمعته وهو يصلي للرب ويدعوه بطلب أيًا كان من الطلبات، فلا بدُّ أن ترى كما رأيت أنا رأي العين تحقق مراده قبل أن يقوم من ركوعه، وعندها لن يساورك الشك في أن الرب لم يسمع له. كيف ذلك يا سيدي وأنى له في تصورك أن يحصل على القليل الذي منحه إياه المستوطنون ما لم يكن ذلك استجابة من الرب لدعائه وصلاته؟*

أجابه المرابي وهو يحرك جسمه بصعوبة: *أنا متأكد من أنه مرَّ بضائقة شديدة*.

واصل توم كلامه قائلاً: *أود أن أروي لك واقعة أو اثنتين إن لم ..*.

لا واصل كلامك لن يزعجني ذلك البتة لكن الوقت ضيق. أنا أصدق كل ما تقول وسوف أحدثك بجلية الأمر يا فتى، ثم نهض وأخذ يذرع المكان وهو منفعِل للعاية *إنني أعرف عن تلك الأمور ما لا يعرفه سائر الناس هنا. هناك أخي وهو كاهن في الكنيسة الميثودية وهو يؤدي الصلوات ويدعو الرب كما يفعل مبشرنا. وكثيرًا ما صلى من أجلي وكان يقول بأنه واثق من أنني سأتحول يومًا وأصبح واعظًا*.

قال توم بجدية بالغة: *لعلك تصبح واعظًا يومًا فلديك استعداد كبير لصنع الخير، الكثير من الخير*.

هكذا كان أخي يقول. فماذا لو تحقق ذلك يومًا! كم يكون غريبًا أن يتحول رجل عجوز خاطئ ملعون مثلي إلى حياة الوعظ والصلوة والدعاء مثلما يفعل المبشر! إنهم يصفونني بالرجل الفظ الغليظ القلب. لكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ لقد كنت أخبر كل من أتاني طلبًا للمال بأنه أحمق مغفل وأني سألزمه بما ورد في صك الدين؟ وكنت أضع يدي على أراضيمهم، ولو لم أفعل ذلك لفعله غيري، انظر كيف يتم الأمر إنهم يرهنون كل ما لديهم ويأتون لابتياح أغلى السلع ثمنًا بالمتجر. يسوعني ما يفعله أمثال هؤلاء وهم لا يستحقون ذرة شفقة مني.

رد الفتى بقوة: *ولكن لماذا نبرر أخطاءنا بأخطاء الغير*.

أجابه المرابي وقد اكفهر وجهه: *الأمر كما تقول لكن لدي عمل مختلف أقوم به معك أكبر من أن أنشغل بتبرير سيئاتي. لقد قام ذلك المبشر بزيارة رعوية لي وأخذ على عاتقه أن يخبرني بأن الرب الإله قد دعاك لتبشر بالإنجيل وأن من واجبي أن أوفر المال لك حتى تذهب للكلية أو ما شابه كي يتفوق ويؤهلك للقيام بهذه المهمة*.

انتصب توم واقفًا وهو يهتف متعجبًا: *أنا!*

أجل أنت، اجلس يا فتى واهدأ فيما أخذ البقال منفعلاً يشوِّحُ بذراعيه في أن معًا *لقد قال المبشر بأنني الوحيد هنا الذي يملك المال للقيام بهذه المهمة. منتهى الصفاقة، أليس كذلك! أن يأتي أحد فيملي على كاولز العجوز البائس غاصب المال ما يفعله بهذه الطريقة. لقد انقلبت على عقبي وتركته دون أن يكمل ما أراد إملأه عليّ لكن الأمر لم يمر عفواً فقد شغلني كلامه ليل نهار. وأنا لا أستغرب أن يكون مثل هذا المبشر المتطفل قد راح يصلي للرب ويدعوه ليحقق مبتغاه منذ أمد

بعيد وها هي النتيجة، المرابي العجوز سيقف وراءك ويدعمك يا بني. نحن المغضوب عليهم الشاتمين الناس الشيوخ اليائسين من رحمة الرب بحاجة ماسة لواعظين من أمثالك يتخرجون من تلك المدارس التبشيرية الذائعة الصيت، ولقد دعوتك هنا لأقول لك بأنك تستطيع الاعتماد عليّ في توفير منّي دولار ذهباً لتبدأ بها دراستك الدينية ومثلها في كل عام إلى أن تتخرج حسب احتياجك كما قال المبشر. ولك أن تفهم أنه عندما يبدأ كاولز العجوز أمرًا فإنه ينهيه على أكمل وجه*.

قال توم وقد شملته الدهشة والفرح الغامر: *لكن كيف سأرد لك الدين؟*.

صاح البقال وقد تطاير الشرر من عينيه: *ترد الدين! ترد الدين!* ثم هدأت نفسه وطفرت الدموع منها فابتعدتا: *فقط صل من أجل مارق عجوز مثلي هذا هو رد الدين الذي أبتغيه*.

ثم مضى نحو المدخل ونادى:

جونسون! جونسون!

تتاهى صوت من الخارج يقول *أنا هنا سيدي* ثم ظهر الخياط الشاب الأنيق المظهر والذي يستأجر إحدى الفترينات في المتجر.

خذ قياس هذا الفتى لعمل بذلة واهتم بأن تجعله في أبهى مظهر يليق به في أفضل مجالس الشرق الأمريكي.

الفصل الثالث والعشرون

مشهد جميل، الفراق

*كُنست أرضية المدفأة وأوقدت النار

والإبريق ينادي الشاي*.

تتاهى النداء الأمين الصريح الصادر عن ديكون بالمر إلى سمع توم وتلك واحدة من مئات المرات، التي طالما سمع فيها مثل ذلك النداء. انصرم عام وقدم آخر وانبلج صباح وهبط ليل وما زال الرجل الصالح يهزج بهذه الأغنية المفضلة عنده، وبالرغم من انه أعزب وبالرغم من أن شعره خطه الشيب، فإنه لا يزال يحمل قلبًا يتوق إلى زوجة تنتظر في عشق زوجها، ويحن إلى مباحج الحياة الأسرية. ولم لا يكون الأمر كذلك؟ وهل يتوق سائر الناس إلى ما هو أكثر إشراقًا وأفضل مما يأتيها به الحاضر في هذه اللحظة؟ شيء يتعين عليهم أن يترقبوه وينتظروه لعلهم يحصلون عليه يومًا؟

قرع توم برفق باب صاحب المتجر وفتح المرابي الباب قائلاً بحرارة: *ادخل، ادخل!*

أجاب توم: *لا شكرًا لك لقد أتيت لأقول لك إنني سأبدأ الدراسة بالشرق يوم الإثنين* ثم تراعتت الكلمات على شفثيه *الجنرال والسيدة ماكلروي وأمي سيكونون في بيت المبشر اليوم وهم يرغبون في صحبتك على العشاء*.

هتف البقال متململاً: *حسن، حسن يا فتى لقد جئت حاملاً رسالة أليس كذلك؟ إنها صحبة متنوعة أليس كذلك؟ كاولز العجوز يجلس على طاولة واحدة مع المبشر حامل الإنجيل وطالب يسير في ذات النهج المقدس وأناس من هذا القبيل. لا، لا لن يكون ثمة تناغم بيننا. أخبرهم أنني لا يمكنني بحال، لكن*.

الآن يا سيد كاولز هتف توم وهو يقبض على يده *لا بُدَّ أن تأتي وسوف أشعر باستياء كبير إن رفضت القدوم وهم راغبون حقًا بوجودك معهم وأنت تعلم أنه لولا تعطفك عليّ...*

قاطعها صاحب المتجر وقد اغرورقت عيناه السوداوان بالدموع *عندك، عندك يا فتى لا تتحدث بمثل هذا الكلام. كل ما في الأمر أنه ما دامت تلك رغبتك فسوف آتي. لكن كيف ستذهب إلى ضفة النهر يوم الإثنين؟*

أوه المبشر سيجلب عربة.

حسن أبلغه بأن خيولي في خدمته.

لن نركز على العشاء في كوخ القس والذي خلاله احتل بب *الجامح الحرون*، مكتب الكاهن في العلية متقمصًا دور الكاهن متأثرًا في ذلك بأخيه توم وجعل من نفسه الواعظ والجمهور والجوقة وأقام قداسًا، وما إن أرسل الترنيمة الأولى حتى نحا جانبًا كلمات القس التي يقولها في ترنيمة

البركة وصدح بصوت قوي:

*أود أن أصبح ملاكًا

ملاكًا ذا مكانة رفيعة*.

وكذلك لن نتوقف عند مشاهد السبت التالي المهيبة الحميمة وهي آخر المشاهد التي قبض لتوم أن يراها في رحاب الغرب القاسي.

كان الوقت مساء أحد أيام مايو اللطيفة عندما أنزلت عربة المرابي الواسعة الفسيحة، والتي كانت تجرها خيوله القوية، ركابها على البر في انتظار وصول الباخرة. ما أطول شريط الأفكار والعواطف التي أخذت تتدافع وتتزاحم في ذاكرة وقلب السيدة جونز وهي تقف وقد التصق بها توم يتهامسان كلمات يختلط فيها الأمل بالتوجس والحذر وهما في انتظار وصول الباخرة!

قالت السيدة جونز: *ما أروع وأعظم أن تصبح كاهنًا كفوًّا من كهنة يسوع المسيح. هذا قصارى ما تمنيته يومًا لك. لكنك ماضٍ نحو بلاد مختلفة تمامًا عن البلاد التي نشأت وتربيت فيها، بلاد فيها ما فيها من غرائب ومهالك. وأنا أتنبأ لك بأن تتفوق في دراستك. لكن لا تطمح إلى ما لا يمكنك بلوغه من أمور وحاجات. ولا تقلق من أنك لم تصبح واعظًا يشار له بالبنان ولا تتمن يومًا الوجود في *مستوطنة ممتازة*. التضحية لا تعني الاهتمام بالمكان ولا بالسلطة ولا باستحسان الجمهور. حافظ

على تواضعك. ضع الرب يسوع المسيح نصب عينيك دائمًا وهو الذي سيربطنا ببعض مهما تباعدت المسافات بيننا*. ثم قبَّلته قبله الوداع العميقة. صعد توم على متن السفينة التي سرعان ما حملته بعيدًا بينما تتخايل في وجدانه ونفسه صور المبشر المبارك وأليس ذات الشعر الجميل وأمه، تلك المجموعة الصغيرة التي وقفت ترمقه بحب وهو يمضي بعيدًا. انهمر دمع الفتى عندما غابت صورهم عنه وتواروا بعيدًا. لكن مشاهد الليل الساحر فوق نهر المسيسيبي سرعان ما أخذته من دوامة همومه وأحزانه. مئات الأضواء كانت تتبعث من الشاطئ في كل اتجاه من القرى والمدن والبلدات، من الأكواخ والمنازل بينما تتهادي البواخر ذهابًا وإيابًا فوق سطح النهر مصدره هدير ماكيناتها كما لو كانت تتيبًا هائلًا ينفث من فمه اللهب أفواجًا متتابعة. كان هذا المشهد حلمًا فائقًا أخذ بلب توم وسرعان ما سيطر على عقله ووجدانه. كانت أحداث ماضيه الكشفية المثيرة في الغرب تتتابع في مخيلته ومجددًا انتابته أحاسيس الضيق النفسي الخانق وتذكر الأحوال المرعبة ورباطة جأشه البطولية في مواجهة هجوم الهنود الغادر. وها هي الدموع تتهمر من عينيه وهو يطوف بخياله حول قبر أبيه النائي في عمق البراري القصية. يا ترى هل يقدر للأحباء الذين نجوا من الهجوم الهندي الغادر أن يأمنوا على أنفسهم وكم من الوقت يدوم ذلك؟ ألن يكونوا بحاجة لعونه في أقرب الأجال مجددًا؟ وهل سيكون المستقبل المنشود الذي ينطلق الآن في سبيل بلوغه بكل ما يملك من حماسة وعزم في مستوى تصوراته وخيالاته؟ وهل سيجتاز بأمان المخاطر التي صورتها له أمه بنظرها الثاقب البعيد ونبوءاتها المجربة السديدة؟ وهل سيحقق آمالها فيه؟ ألم يعقد عليه المبشر العطوف والمرابي الغريب الأطوار أمالًا كبارا بأن يكون إنسانًا ذا شأن عظيم. فهل سيخيب يا ترى ظنهم؟ أضناه الفكر فمضى نحو قمرته واستغرق في النوم وحلم بأنه كان يسمع صوت الطائر المغرد، الذي سمعه صبيحة أول زيارة قام بها للحصن، يصدح بنغمات حلقت بعيدًا عبر

النافذة المشرعة وأن أليس الجميلة تنظر إليه وتقول:

لا تتسني يا توم وأنت في ديار بعيدة.

هكذا يتزوج الحب الإلهي والحب البشري في بوتقة واحدة لا انفصام لأحدهما عن الآخر إلى أبد الأبد. لكم هو غريب ولكم هي تجربة واحدة لا تتمايز! وداعاً توم! وداعاً شارلي! وداعاً بب! لعلنا نلتقي يوماً.

النهاية

